تقي الدين النبهاني

الدولة الإسلامية

تقي الدين النبهاني

الدولة الإسلامية

دار الأمة

تقي الدين النبهاني

الدولة الإسلامية

من منشورات

الطبعـة الأولى

١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م

الطبعـة السـابعـة

(مـعتمـدة)

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

دار الأمّـة
للطباعـة والنشـر والتـوزيـع
ص.ب. ١٣٥١٩٠ بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«تكـونُ النُّبُـوَّةُ فـيكمْ مـا شـاءَ اللّـهُ أنْ تكـون، ثـمّ يرْفعُهـا اللّـهُ إذا شـاءَ أنْ يرْفَعَهـا. ثُـمّ تكـونُ خِلافـةٌ علـى مِنهـاج النبـوَّة، فتكـونُ مـا شـاءَ اللّـهُ أنْ تكـون، ثُـمّ يرْفعُهـا إذا شـاءَ أنْ يرفعَهـا. ثُـمّ تكـونُ مُلْكـاً عاضّـاً، فتكـونُ مـا شـاءَ الله أنْ تكـونَ، ثُـمّ يرفعُهـا إذا شـاءَ الله أنْ يرفعَهـا. ثُـمّ تكـونُ مُلْكـاً جَبريَّـةً، فتكـونُ مـا شـاءَ الله أنْ تكـونَ، ثُـمّ يرفعُهـا إذا شـاءَ أنْ يرفعَهـا. ثُـمّ تكـونُ خِـلافـةً على مِنهـاج النُّبُـوَّة».

محتويات الكتاب

حديث افتتاح الكتاب ٣
محتويات الكتاب ٤
مقدمة ٧
نقطة الابتداء ١١
تكتل الصحابة ١٣
انطلاق الدعوة ١٥
مقاومة الدعوة ١٧
تفاعل الدعوة ٢٤
دوران من أدوار الدعوة ٢٩
توسيع مجال الدعوة ٣٣
بيعة العقبة الأولى ٣٥
الدعوة في المدينة ٣٦
بيعة العقبة الثانية ٤٠
قيام الدولة الإسلامية ٤٨
بناء المجتمع ٥٠
تهيئة أجواء القتال ٥٥
بدء القتال ٥٨
الحياة في المدينة ٦٢
جدال اليهود والنصارى ٦٤
غزوة بدر ٦٨
إجلاء بني قَيْنُقاع ٧١

القضاء على الاضطرابات الداخلية ٧٢
غزوة الأحزاب ٧٨
معاهدة الحديبية ٨٥
إرسال الرسل إلى الدول المجاورة ٩٦
غزوة خيبر ٩٩
عمرة القضاء ١٠١
غزوة مؤتة ١٠٢
فتح مكة ١٠٦
غزوة حنين ١١٠
غزوة تبوك ١١٧
سيطرة الدولة الإسلامية على جزيرة العرب ١٢١
جهاز الدولة الإسلامية ١٢٣
موقف اليهود من الدولة الإسلامية ١٢٨
استمرار الدولة الإسلامية ١٣٣
السياسة الداخلية للدولة الإسلامية ١٣٩
السياسة الخارجية للدولة الإسلامية ١٤٧
الفتوحات الإسلامية هي لنشر الإسلام ١٥٣
تركيز الفتوحات الإسلامية ١٥٦
صهر الشعوب وجعلها أمة واحدة ١٦١
عوامل ضعف الدولة الإسلامية ١٦٨
انحلال الدولة الإسلامية ١٧٤
الغزو التبشيري ١٨٣
العداء الصليبي ١٩٤

آثار الغزو التبشيري ١٩٩
الغزو السياسي للعالم الإسلامي ٢٠٥
القضاء على الدولة الإسلامية ٢١٠
الحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية ٢٢٣
إقامة الدولة الإسلامية فرض على المسلمين ٢٣١
صعوبات قيام الدولة الإسلامية ٢٣٦
كيف تقوم الدولة الإسلامية ٢٤٤
مشروع دستور للدولة الإسلامية ٢٤٩
أحكام عامة ٢٤٩
نظام الحكم ٢٥٢
الخليفة ٢٥٣
معاون التفويض ٢٥٨
معاون التنفيذ ٢٥٩
أمير الجهاد ٢٦٠
الجيش ٢٦١
القضاء ٢٦٢
الولاة ٢٦٦
الجهاز الإداري ٢٦٨
مجلس الأُمّة ٢٦٩
النظام الاجتماعي ٢٧٢
النظام الاقتصادي ٢٧٤
سياسة التعليم ٢٨٣
السياسة الخارجية ٢٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يع الجيل الحاضر على الدولة الإسلامية التي تطبق الإسلام، والذين عاشوا في أواخر الدولة الإسلامية (الدولة العثمانية) التي أجهز عليها الغرب، إنما رأوا بقايا دولة فيها بقايا حكم إسلامي؛ ولهذا فإن من أصعب ما يجد المسلم تقريب صورة الحكم الإسلامي إلى أذهان يسيطر عليها الواقع، ولا تستطيع أن تتصور الحكم إلاّ في مقياس ما ترى من الأنظمة الديمقراطية الفاسدة المفروضة على البلاد الإسلامية فرضاً. وليست الصعوبة في هذا وحده، وإنما أصعب الصعوبة في تحويل هذه الأذهان (المضبوعة) بالثقافة الغربية. لقد كانت هذه الثقافة الغربية سلاحاً شهره الغرب في وجه الدولة الإسلامية، وطعنها به طعنة نجلاء أودت بحياتها، وحمل إلى أبناء هذه الدولة سلاحه هذا يقطر من دماء أمهم القتيل، وقال لهم مفتخراً: (لقد قتلت أمكم العجوز التي كانت تستحق القتل لسوء حضانتها لكم، وقد مهدت لكم عندي حضانة تتذوقون فيها الحياة السعيدة والنعيم المقيم) ومدوا أيديهم يصافحون القاتل، وما يزال سلاحه هذا مخضباً بدماء أمهم، لقد فعل معهم فعل الضبع ــ فيما يروون ــ حينما تجعل فريستها تذهل إلاّ عن اللحاق بها، فلا تصحو إلاّ بضربة يسيل لها دمها، أو تصل بها الضبع إلى قعر الوادي فتأكلها.

فمن لي بأصحاب هذه الأذهان المضبوعة أن يعرفوا أن هذا السلاح المسموم الذي قضى على دولتهم الإسلامية، هو نفسه الذي يقضي دائماً ـ ما تمسكوا به ـ على حياتهم وكيانهم، وأن هذه الأفكار التي يحملونها ـ من القومية وفصل الدين عن الدولة ومن آراء تطعن في الإسلام ـ هي بعض السموم التي حملتها لهم هذه الثقافة، وفصل (الغزو التبشيري) من كتاب الدولة الإسلامية هذا ـ وكله حقائق وأرقام ناطقة ـ يرينا القاتل المجرم، ويقفنا على السبب الذي حمله على ارتكاب الجريمة، ويبصّرنا بالوسائل التي توسل بها للقضاء على القتيل، وما كان السبب إلاّ قصد محو الإسلام، وما كان أهم الوسائل إلاّ هذه الثقافة التي جاءت مع الغزو التبشيري.

لقد غفل المسلمون عن خطر هذه الثقافة، وصاروا يحاربون المستعمر ويتناولون منه ثقافته، مع أنّها هي سبب استعمارهم، وبها يتركز الاستعمار في بلادهم، ولينظروا بعد هذا كم يكون منظرهم متناقضاً تناقضاً مزرياً ومضحكاً معاً، وهم يديرون ظهورهم للأجنبي ـ يدّعون محاربته ـ ويمدون إليه أيديهم من خلف ليتناولوا بكلتا يديهم سمومه القاتلة يتجرعونها، فيسقطون بين يديه هلكى، يحسبهم الجاهل شهداء نزال، وما هم إلاّ صرعى غفلة وضلال.

ماذا يريدون؟ أيريدون دولة على غير أساس الإسلام؟ أم يريدون دولاً متعددة في بلاد الإسلام؟ لقد أعطاهم الغرب ـ منذ صار الأمر إليه ـ دولاً كثيرة، ليتم خطته في إبعاد الإسلام عن الحكم، وفي تقسيم بلاد المسلمين، وفي تخديرهم بالتافه من السلطان، ولا يزال يعطيهم كل حين دولة ليمعن في تضليلهم وليزيد في تقسيمهم، وهو على استعداد لأن يعطيهم

أكثر ما داموا يحملون مبدأه ومفاهيمه لأنّهم تابعون له.

إن الأمر ليس في قيام دول، وإنّما هو في قيام دولة واحدة في العالم الإسلامي كله، وإن الأمر ليس في قيام دولة أية دولة، ولا في قيام دولة تسمى إسلامية وتحكم بغير ما أنزل الله، بل ولا في قيام دولة تسمى إسلامية وتحكم بالقوانين الإسلامية المجردة دون أن تحمل الإسلام قيادة فكرية. إن الأمر ليس في قيام دولة كذلك، وإنّما هو في قيام دولة تستأنف الحياة الإسلامية عن عقيدة وتطبق الإسلام في المجتمع، بعد أن يكون متغلغلاً في النفوس متمكناً من العقول وتحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم.

ليست الدولة الإسلامية خيالاً يداعب الأحلام؛ لأنّها قد امتلأت بها جوانب التاريخ في مدى ثلاثة عشر قرناً، فهي حقيقة. كانت كذلك في الماضي، وتكون كذلك في المستقبل القريب، لأنّ عوامل وجودها أقوى من أن ينكرها الزمن، أو يقوى على مصارعتها، وقد امتلأت بها اليوم العقول المستنيرة، وهي أمنية الأمة الإسلامية المتعطشة لمجد الإسلام.

وليست الدولة الإسلامية رغبة تستأثر بالنفوس عن هوى، بل هي فرض أوجبه الله على المسلمين، وأمرهم أن يقوموا به، وحذرهم عذابه إن هم قصروا في أدائه. وكيف يرضون ربهم والعزة في بلادهم ليست لله ولا لرسوله ولا للمؤمنين؟ وكيف ينجون من عذابه وهم لا يقيمون دولة تجهز الجيوش وتحمي الثغور، وتنفذ حدود الله، وتحكم بما أنزل الله؟!

لذلك كان لزاماً على المسلمين أن يقيموا الدولة الإسلامية، لأنّه لا وجود للإسلام وجوداً مؤثراً إلاّ بالدولة، ولأنّ بلادهم لا

تعتبر دار إسلام إلاّ إذا حكمتها دولة الإسلام.

وليست الدولة الإسلامية ــ مع هذا ــ من السهولة بحيث يستوزر المستوزرون ــ أفراداً كانوا أو حزباً ــ فيصبحون وزراء يتربعون في دَسْتِ الحكم. إن طريقها مفروشة بالأشواك، محفوفة بالمخاطر، مملوءة بالعقبات والمصاعب. وناهيك بالثقافة غير الإسلامية صعوبة، وبالتفكير السطحي عقبة، وبالحكومات الخاضعة للغرب خطورة.

إن الذين يسلكون طريق الدعوة الإسلامية لإيجاد الدولة الإسلامية، إنّما يعملون للوصول إلى الحكم ليجعلوه طريقة لاستئناف الحياة الإسلامية في البلاد الإسلامية، وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم، ولذلك تراهم لا يقبلون الحكم المجزأ مهما تنوعت وسائل الإغراء، ولا يقبلون الحكم الكامل إلاّ إذا تمكنوا به من تطبيق الإسلام تطبيقاً انقلابيا.

وبعد، فإن كتاب (الدولة الإسلامية) هذا لا يقصد به أن يؤرخ للدولة الإسلامية، وإنّما يقصد به أن يشاهد النّاس كيف أقام الرسول ﷺ الدولة الإسلامية، وكيف هدم الكافر المستعمر الدولة الإسلامية، وكيف يقيم المسلمون الدولة الإسلامية؛ ليعود للعالم النور الذي يضيء له طريق الهدى في حالك الظلمات.

بسم الله الرحمن الرحيم

نقطة الابتداء

حين بعث ﷺ دعا زوجه خديجة فآمنت به، ثمّ دعا ابن عمه علياً فآمن به، ودعا مولاه زيداً فآمن به، ودعا صديقه أبا بكر فآمن به، ثمّ صار يدعو النّاس، فآمن به من آمن وكفر به من كفر. ولما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه لمن وثق به، ودعا إلى الله وإلى رسوله. وكان أبو بكر رجلاً مَأْلَفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان رجال قومه يأتون إليه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فأسلم على يده عثمان بن عفان، والزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا، ثمّ أسلم أبو عبيدة واسمه عامر بن الجراح، وأبو سلمة واسمه عبد الله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وغيرهم، ثمّ دخل النّاس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث النّاس به. وكان ﷺ يطوف على النّاس في أول أمره في منازلهم، ويقول إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وكان يدعو النّاس للإسلام في مكة جهراً امتثالاً لأمر الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، وكان يتصل بالناس يعرض عليهم دينه ويكتلهم حوله على أساس هذا الدين سراً، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب

واستخفوْا بصلاتهم من قومهم. وكان الرسول ﷺ يرسل لمن يدخل الإسلام جديداً من يعلمه القرآن ممن أسلموا من قبل وفقهوا في الدين، فقد أرسل خَبّابَ بنَ الأَرَتّ يعلم فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيداً القرآن، وحين فاجأهم عمر بن الخطاب كانوا في بيت سعيد يقرئهم خباب القرآن، وأسلم عمر على يد هذه الـحَلْقَة. و لم يكتف الرسول بذلك بل اتخذ له داراً يعلم فيها المسلمين الإسلام ويجعلها مركزاً لهذه الكتلة المؤمنة، ومدرسة لهذه الدعوة الجديدة، تلك الدار هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، فقد كان يجمع فيها المسلمين يقرئهم القرآن، ويبينه لهم، ويأمرهم باستظهاره وفهمه، وكلما أسلم شخص ضمه إلى دار الأرقم. ومكث ثلاث سنين وهو يثقف هؤلاء المسلمين، ويصلى بهم ويتهجد ليلاً فيتهجدون، فيبعث فيهم الروحانية بالصلاة والتلاوة، ويثير فيهم الفكر بالتأمل في آيات الله والتدبر في مخلوقاته، ويثقف عقولهم بمعاني القرآن وألفاظه، ومفاهيم الإسلام وأفكاره، ويأخذهم بالصبر على الأذى، ويروضهم على الطاعة والانقياد، حتى خلصوا لله العلي القدير. وظل النبي مستخفياً هو والمسلمون في دار الأرقم بن أبي الأرقم حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

تكتُّل الصحـابة

وكان عليه الصلاة والسلام في أول أمره يدعو من آنس فيه الاستعداد لقبول هذه الدعوة بغض النظر عن سنه ومكانته، وبغض النظر عن جنسه وأصله. ولم يكن يختار النّاس الذين يدعوهم إلى الإسلام اختياراً، بل كان يدعو جميع النّاس، ويتحرى استعدادهم للقبول، وقد أسلم كثيرون. وكان يحرص على أن يثقف جميع الذين يعتنقون الإسلام بأحكام الدين ويحفظهم القرآن. فتكتل هؤلاء وحملوا هم الدعوة، (وقد بلغ عددهم منذ بعثة الرسول ﷺ حتى أمر بـإظهار أمره نيفاً وأربعين شخصاً) ما بين رجل وامرأة من مختلف البيئات والأعمار، أكثرهم من صغار الشباب، وكان فيهم الضعيف والقوي والغني والفقير. وقد آمن به ﷺ ولازمه ودأب على الدعوة معه كل من: (١) علي بن أبي طالب وكان عمره ثماني سنوات (٢) والزبير بن العوام وعمره ثماني سنوات (٣) وطلحة بن عبيد الله وكان ابن إحدى عشرة سنة (٤) والأرقم بن أبي الأرقم وهو ابن اثنتي عشرة سنة (٥) وعبد الله بن مسعود وهو ابن أربع عشرة سنة (٦) وسعيد بن زيد وهو دون العشرين (٧) وسعد بن أبي وقاص وهو ابن سبع عشرة سنة (٨) ومسعود بن ربيعة وهو ابن سبع عشرة سنة (٩) وجعفر بن أبي طالب وهو ابن ثماني عشرة سنة (١٠) وصهيب الرومي وهو دون العشرين (١١) وزيد بن حارثة وهو في حدود العشرين (١٢) وعثمان بن عفان في حدود العشرين (١٣) وطليب بن عمير وهو في حدود العشرين (١٤) وخباب بن الأرت

وهو في حدود العشرين (١٥) وعامر بن فهيرة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة (١٦) ومصعب بن عمير وهو ابن أربع وعشرين سنة (١٧) والمقداد بن الأسود وهو ابن أربع وعشرين سنة (١٨) وعبد الله بن جحش وهو ابن خمس وعشرين سنة (١٩) وعمر بن الخطاب وهو ابن ست وعشرين سنة (٢٠) وأبو عبيدة بن الجراح وهو ابن سبع وعشرين سنة (٢١) وعتبة بن غزوان وهو ابن سبع وعشرين سنة (٢٢) وأبو حذيفة بن عتبة في حدود الثلاثين (٢٣) وبلال بن رباح في حدود الثلاثين (٢٤) وعياش بن ربيعة وهو في حدود الثلاثين (٢٥) وعامر بن ربيعة وهو في حدود الثلاثين (٢٦) ونعيم بن عبد الله وهو في حدود الثلاثين (٢٧) وعثمان (٢٨) وعبد الله (٢٩) وقدامة (٣٠) والسائب أبناء مظعون بن حبيب، وكان عمر عثمان في حدود الثلاثين، وعبد الله سبع عشرة سنة وقدامة تسع عشرة سنة، والسائب في حدود العشرين، (٣١) وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي وعمره في حدود الثلاثين (٣٢) وعبد الرحمن بن عوف في حدود الثلاثين (٣٣) وعمار بن ياسر فيما بين الثلاثين والأربعين (٣٤) وأبو بكر الصديق وهو ابن سبع وثلاثين سنة (٣٥) وحمزة بن عبد المطلب وعمره اثنتان وأربعون سنة (٣٦) وعبيدة بن الحارث وعمره خمسون سنة. كما آمن عدد من النساء. ولما نضج هؤلاء الصحابة في ثقافتهم، وتكونت عقليتهم عقلية إسلامية وأصبحت نفسيتهم نفسية إسلامية في مدّة ثلاث سنوات اطمأن الرسول ﷺ عليهم، وأيقن بنضجهم في عقولهم، وبسموهم في نفسياتهم ورأى إدراكهم لصلتهم بالله بارزة آثاره في أعمالهم، فارتاحت نفسه لذلك كثيراً، إذ صارت كتلة المسلمين قوية قادرة على مجابهة المجتمع كله فأظهرها حين أمره الله.

انطلاق الدعوة

كان أمر الدعوة الإسلامية ظاهراً من أول يوم بعث به ﷺ، وكان النّاس في مكة يعرفون أن محمداً يدعو لدين جديد، ويعرفون أنه أسلم معه كثيرون، ويعرفون أن محمداً يكتل أصحابه ويسهر عليهم، ويعرفون أن المسلمين يستخفون عن النّاس في تكتلهم وفي اعتناقهم الدين الجديد، وكانت هذه المعرفة تشعر أن النّاس كانوا يحسون بالدعوة الجديدة، ويحسون بوجود مؤمنين بها، وإن كانوا لا يعرفون أين يجتمعون ومن هم هؤلاء الذين يجتمعون من المؤمنين، ولذلك لم يكن إعلان الرسول ﷺ للإسلام شيئاً جديداً على كفار مكة، وإنما كان الشيء الجديد ظهور هذه الكتلة المؤمنة للناس. فقد أسلم حمزة بن عبد المطلب ثمّ أسلم عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام فاشتد ساعد المسلمين ونزل على الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾، فصدع ﷺ بأمر الله، وأظهر أمر التكتل علناً للناس جميعاً، وإن كان قد بقى بعض المسلمين مستخفين، ومنهم من بقي مستخفياً حتى فتح مكة. وكان أسلوب إظهار الرسول ﷺ لأمر هذا التكتل أنه خرج في أصحابه في صفين اثنين كان على رأس أحدهما حمزة بن عبد المطلب، وعلى رأس الصف الثاني عمر بن الخطاب، وذهب بهم الرسول ﷺ إلى الكعبة في نظام دقيق لم تعهده العرب من قبل فطاف بهم الكعبة، وانتقل

الرسول ﷺ بذلك في أصحابه من دوْر الاستخفاء إلى دوْر الإعلان، ومن دور الاتصال بمن يأنس فيهم الاستعداد إلى دور مخاطبة النّاس جميعاً، فبدأ الاصطدام بين الإيمان والكفر في المجتمع وبدأ الاحتكاك بين الأفكار الصحيحة والأفكار الفاسدة، وبدأت المرحلة الثانية وهي مرحلة التفاعل والكفاح. وبدأ الكفّار يقاومون الدعوة ويؤذون الرسول ﷺ وأصحابه بجميع أنواع الأذى. وهذه الفترة فترة التفاعل والكفاح هي أشد ما عرف روعة في العصور جميعها، فقد كان منـزل الرسول ﷺ يرجم، وكانت أم جميل زوجة أبي لهب تلقي النجس أمام بيته، فكان يكتفي بأن يزيله، وكان أبو جهل يلقي عليه رحم الشاة مذبوحة ضحية للأصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته، فلا يزيده ذلك كلّه إلاّ صبراً وإمعاناً في الدعوة، وكان المسلمون يهدَّدون ويؤذَوْن، فقد وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، حتى ألقى أحدهم عبده الحبشي بلالاً على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لا لشيء إلاّ لأنه أصر على الإسلام، ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر كلمة أحد أحد محتملاً هذا العذاب في سبيل ربه. وعذبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها، وكان المسلمون بالجملة يُضرَبون وتوجه إليهم أشد صور المهانة فكانوا يصبرون على كل ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى.

مقاومة الدعوة

حين بعث ﷺ بالإسلام تحدث النّاس عنه وعن دعوته، وكانت قريش أقلهم حديثاً؛ لأنّهم لم يُعنوْا به أول أمره وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء، وأن النّاس عائدون إلى دين آبائهم وأجدادهم، ولذلك لم ينفروا منه ولم ينكروا عليه، وكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم يقولون هذا ابن عبد المطلب يكلّم من السماء، واستمر على ذلك. إلاّ انهم بعد أن مضت مدّة قصيرة على دعوته وبدأوا يحسون بخطورة هذه الدعوة أجمعوا على خلافه وعلى عداوته ومحاربته، وقد رأوا باديَ الرأي أن يحاربوه بالحط من شأنه وبتكذيبه فيما يزعم من نبوته، ثمّ تقدموا إليه يسألونه عن معجزاته التي يثبت بها رسالته، ويقولون ما بال محمد لا يحيل الصفا والمروة ذهباً، ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطاً من السماء، ولم لا يبدو لهم جبريل الذي يطول حديث محمد عنه، ولم لا يحيي الموتى، ولا يُسيّر الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها، ولم لا يفجر ينبوعاً أعذب من ماء زمزم وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء، ولم لا يوحي إليه ربه أثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل. وهكذا صاروا يهاجمون الرسول ودعوته بأسلوب تهكمي لاذع، وطال بهم اللجاج، ولكن ذلك لم يثنه ﷺ عن دعوته بل استمر يدعو النّاس إلى دين الله ويذكر الأصنام ويعيبها ويطعن فيها ويسفه عقول عبدتها وحلوم مقدسيها، فعظم الأمر عليهم فاستعملوا جميع الوسائل لإرجاعه عن دعوته فلم يفلحوا، وكان

من أهم الوسائل التي اتخذوها لمقاومة هذه الدعوة وسائل ثلاث:

١ ــ التعذيب.

٢ ــ الدعاوة الداخلية والخارجية.

٣ ــ المقاطعة.

أما التعذيب فقد كان يقع على النبي صلوات الله وسلامه عليه رغم اعتصامه بقومه، وعلى أتباعه المسلمين جميعاً، وقد تفننوا في إيقاع الأذى واستعملوا جميع صنوفه، وقد عُذب آل ياسر جميعهم تعذيباً شديداً ليتركوا دينهم فما زادهم ذلك إلاّ ثباتاً وإيماناً، وقد مرّ بهم الرسول وهم يعذبون فقال لهم: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة إني لا أملك لكم من الله شيئاً**». فما كان من سمية زوجة ياسر إلاّ أن قالت حين قال لهم إن موعدكم الجنة: «إني أراها ظاهرة يا رسول الله» وهكذا استمرت قريش في تعذيب النبي وأصحابه.

ولما رأت قريش أن ذلك لم يفدها لجأت إلى سلاح آخر هو سلاح الدعاوة ضد الإسلام وضد المسلمين في كل مكان، في مكة في الداخل، وفي الحبشة في الخارج، واستعملت الدعاوة بكل نواحيها وبكل ما تنطوي عليه من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج إشاعات، واستعملت الدعاوة ضد العقيدة الإسلامية نفسها، وضد صاحب العقيدة، واتهامه فيها واتهامها لذاتها، وأخذوا يكذبون على الرسول، وأخذوا يهيئون كل كلام يريدون الدعاوة به ضد محمد في مكة وفي خارج مكة، وخاصة الدعاوة في موسم الحج، وقد بلغ من اهتمام قريش بالدعاوة ضد الرسول أن اجتمع نفر من

قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون ماذا عسى أن يقولوا في شأن محمد للعرب القادمين إلى مكة في موسم الحج، فاقترح بعضهم أن يقولوا عنه إنه كاهن، فرد الوليد هذا الرأي بأن ما يقوله محمد ليس بزمزمة الكاهن ولا بهمهمته ولا بسجعه. واقترح بعضهم الآخر أن يزعموا أن محمداً مجنون، فرد الوليد هذا الرأي أيضاً لأنّه لا تظهر على محمد أية ظاهرة تدل على جنونه، ورأى آخرون أن يتهموا محمداً بالسحر فرد الوليد ذلك بأن محمداً لا ينفث في العقد ولا يأتي من عمل السحرة شيئاً.

وبعد جدال ومناقشات اتفقوا على اتهام محمد ﷺ بسحر البيان وانفضوا، ثمّ انطلقوا بين وفود الحج من العرب يحذرونهم الاستماع إلى محمد ﷺ لأنّه ساحر البيان وما يقوله سحر يفرق فيه بين المرء وأخيه وأمه وأبيه، وزوجه وعشيرته، ويخشى على من يستمع إليه أن يسحره فيفرق بينه وبين أهله. ولكن هذه الدعاوة لم تنفع، ولم تحل بين النّاس وبين دعوة الإسلام. فذهبوا إلى النضر بن الحارث وحملوه على الدعاوة ضد الرسول ﷺ، فأخذ النضر كلّما جلس الرسول ﷺ في مجلس يدعو إلى دين الله، خَلَفَهُ في مجلسه، وصار يقص حديث فارس ودينها، ويقول: بماذا يكون محمد احسن حديثاً مني. أليس يتلو من أساطير الأولين ما أتلو؟ وكانت قريش تأخذ هذه الأحاديث وتذيعها بين النّاس، كما كانت تذيع أن ما يقوله محمد إنّما يعلمه إياه غلام نصراني اسمه جبر، وأنه ليس من عند الله، وروجت لهذه الشائعة كثيراً حتى ردّ الله عليهم فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾. وهكذا استمرت دعاوة قريش داخل

الجزيرة. ولم تكْتفِ بذلك بل إنّها حين سمعت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة أرسلت رسولين لها لينشرا دعاوة ضد المسلمين عند النجاشي حتى يخرجهم من بلاده. وكان الرسولان هما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة. فقد وصلا إلى الحبشة وقدّما لبطارقة النجاشي هدايا كي يساعدوهما على ردّ المسلمين إلى مكة، ثمّ اجتمعا إلى النجاشي وقالا له: «أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم». فطلب النجاشي أن يسمع من المسلمين ما يقولون في ذلك، وبعث في طلبهم فلما جاءوا سألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فأجابه جعفر بن أبي طالب، مبيناً حالهم أيام الجاهلية وما كانوا عليه من صفات، ثمّ بيّن ما جاء به الإسلام من هداية، وما صارت إليه حالهم بعد إسلامهم، ثم بيّن تعذيب قريش لهم (فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك) فقال النجاشي لجعفر: هل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء تقرؤه علي. قال جعفر نعم. وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فلما سمع البطارقة هذا القول، قالوا: هذه

كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح. وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثمّ التفت إلى رسوليْ قريش وقال لهما: انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما. غير أن الرسولين انصرفا من مجلس النجاشي وأخذا يفكران بطريقة أخرى، حتى إذا كان اليوم الثاني عاد عمرو بن العاص إلى النجاشي وقال له: إن المسلمين ليقولون في عيسى بن مريم قولاً فظيعاً فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم واستخبرهم، فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، يقول: عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشي عوداً وخط به على الأرض وقال لجعفر: ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط، وصرف الرسولين القرشيين فرجعا بخفيْ حُنين.

وهكذا أخفقت جميع أساليب الدعاوة وكانت قوة الحق الذي يدعو إليه الرسول عليه السلام في الصورة الواضحة التي تتجلى على لسانه تعلو على جميع الدعاوات، وكان نور الإسلام حين يشرق يبدد جميع الإشاعات والدعاوات. فلجأت قريش إلى السلاح الثالث وهو سلاح المقاطعة، واتفقوا جميعهم على مقاطعة الرسول ﷺ وأقاربه وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة فلا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم. وعلقوا صحيفة هذا العقد في جوف الكعبة، توكيداً لها وتسجيلاً، واعتقدوا أن هذه السياسة سياسة المقاطعة ستكون أفعل أثراً من التعذيب والدعاوة. وأقاموا على هذا الحصار ثلاث سنين، وكانوا ينتظرون أن يترك بنو هاشم وبنو عبد المطلب محمداً

ﷺ، وأن يترك المسلمون إسلامهم، فيصبح محمد ﷺ وحيداً، وهو إما أن يرجع عن دعوته، وإما أن لا يبقى لدعوته أي خطر على قريش ولا على ديانتها، إلاّ أن ذلك لم يزد الرسول ﷺ إلاّ اعتصاماً بحبل الله وتمسكاً بدين الله، وحماسة في سبيل الدعوة إلى الله، ولم يزد الذين آمنوا معه إلا صلابة وقوة، ولم يحل دون انتشار الدعوة إلى الإسلام في مكة وفي خارج مكة، وبلغ خبر حصار قريش لمحمد العرب خارج مكة فذاع أمر الدعوة بين القبائل، وصار ذكر الإسلام يفشو في الجزيرة. وتتحدث به الركبان. إلاّ أن المقاطعة استمرت والتجويع ظل سارياً، وظلت الصحيفة التي تعاقدت قريش فيها على المقاطعة نافذة. واحتمى الرسول ﷺ وأهله في الشِّعْب بظاهر مكة، يعانون آلام الجوع والحرمان وألوان الفاقة والعوز. ولا يجدون في كثير من الأحيان ما يسدون به رمقهم، كما أنه لم يكن يتاح لهم أن يختلطوا بالناس ويتحدثوا إليهم، إلاّ في الأشهر الحرم حيث كان ينزل الرسول ﷺ إلى الكعبة، يدعو العرب إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم عذابه وعقابه، ثمّ يرجع إلى الشِّعْب. وكان ذلك يثير عطف العرب عليهم فكان منهم من يقبل على دعوته، ومنهم من كان يرسل لهم الطعام والشراب خلسة، وكان هشام بن عمرو يأتي بالبعير ــ وقد حمله الطعام والبر ــ ويسير به في جوف الليل حتى يصل إلى الشعب، وهناك يخلع خطامه، ثمّ يضربه على جنبه، حتى يذهب إلى الشعب، فيأخذه المسلمون ويقتاتون بحمله، ويذبحونه ويأكلون لحمه، وظلوا على هذه الحال مدّة ثلاث سنوات متتابعة، حتى ضاقت عليهم الدنيا إلى أن أرسل الله الفرج وفك الحصار. وذلك أن خمسة من شباب قريش هم زهير بن أبي أمية، وهشام بن عمرو، والمطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود اجتمعوا وتذاكروا بأمر

الصحيفة وأمر المقاطعة، وتذمروا منها، وأظهروا سخطهم عنها لبعضهم، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام بأمر يؤدي إلى نقض الصحيفة وتمزيقها، وفي اليوم التالي ذهبوا إلى الكعبة فجاء زهير وطاف بالبيت سبعاً ثمّ نادى في النّاس: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به: كذبت والله لا تشق، فتصايح من جوانب البيت زمعة وأبو البختري والمطعم وهشام وكلهم يكذبون أبا جهل، ويؤيدون زهيراً. فأدرك أبو جهل أن الأمر قضى بليل، وأن القوم قد اتفقوا عليه، وأن مخالفتهم قد تثير شراً فأوجس في نفسه خيفة وتراجع، وقام المطعم ليشق الصحيفة، فوجد الأرضة قد أكلتها إلاّ فاتحتها (باسمك اللهم) وبذلك أتيح للرسول ﷺ وأصحابه أن يعودوا من الشِّعْب إلى مكة، وأن يفك عنهم الحصار، فعادوا واستمر ﷺ على دعوته، حتى ازداد عدد المسلمين وهكذا أخفقت وسائل قريش في التعذيب والدعاوة والمقاطعة، ولم تستطع أن تفتن المسلمين عن دينهم، ولا أن ترجع الرسول عن دعوته، حتى أظهرها الله تعالى رغم كل الصعاب والعقبات.

تفاعل الدعوة

كان اصطدام قريش بالدعوة الإسلامية أمراً طبيعياً؛ لأنه ﷺ حمل الدعوة واظهر الكتلة التي تحمل معه الدعوة سافرة متحدية، وفوق ذلك فقد كانت هذه الدعوة بذاتها تتضمن كفاح قريش والمجتمع في مكة لأنها كانت تدعو لتوحيد الله وعبادته وحده، وإلى ترك عبادة الأصنام والإقلاع عن النظام الفاسد الذي يعيشون عليه، فاصطدمت بقريش اصطداماً كلياً، وهل يمكن أن لا يصطدم الرسول ﷺ بقريش وهو يسفه أحلامهم ويحقر آلهتهم ويندد بحياتهم الرخيصة، وينعي عليهم وسائل عيشهم الظالمة. ينزل عليه القرآن فيهاجمهم ويقول لهم بصراحة: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾، ثمّ يهاجم الربا الذي يعيشون عليه مهاجمة عنيفة من أصوله قال تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، ويتوعد الذين يطففون الكيل والميزان قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ وبهذا أخذوا يقفون في وجهه، ويؤذونه هو وأصحابه بالتعذيب تارة، وبالمقاطعة أخرى، وبالدعاوة ضده وضد دينه. غير أنه ظل يهاجمهم، واستمر على كفاح الآراء الخاطئة، وهدم العقائد الفاسدة، والمجاهدة في سبيل نشر الدعوة. وكان يدعو للإسلام بكل صراحة، لا يكني، ولا يلوح، ولا يلين، ولا يستكين، ولا يحابي، ولا يداهن، رغم ما لاقاه من قريش من صنوف الأذى. ورغم ما يصيبه من

مشقات. ومع أنه فرد أعزل لا معين له ولا نصير، ولا عدة معه ولا سلاح، فإنه جاء سافراً متحدياً، يدعو لدين الله بقوة وإيمان، لا يتطرق إليه أي ضعف عن احتمال تكاليف الدعوة، والقيام بالأعباء الجسام من أجلها، فكان لذلك كله الأثر في التغلب على الصعوبات التي كانت تضعها قريش في وجهه لتحول بينه وبين النّاس. وقد استطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى النّاس ويبلغهم، فاقبلوا على دين الله، وأخذت قوة الحق تعلو على الباطل، وأخذ نور الإسلام يزداد كل يوم انتشاراً بين العرب، فأسلم الكثيرون من عباد الأصنام، ومن النصارى، بل أخذ زعماء قريش يسمعون للقرآن وتهفو قلوبهم له.

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً فهبت إليه قريش تحذره محمداً وأن قوله كالسحر يفرق بين المرء وأهله، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة، وأن الخير في ألا يكلمه ولا يستمع إليه. وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبة وكان رسول الله ﷺ هناك فسمع بعض قوله فإذا هو كلام حسن فقال في نفسه: (وا ثُكْلَ أُمّي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحَسَن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته) واتبع الرسولَ ﷺ إلى بيته وأظهره على أمره وما دار بنفسه، فعرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فأسلم وشهد شهادة الحق، ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام.

وقدم على الرسول ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره، فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له، فاستجابوا وآمنوا به

وصدقوه، مما غاظ قريشاً حتى سبّوهم وقالوا لهم: (خيبكم الله من رَكْبٍ بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال) ولم تثن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة النبي، ولم ترده عن الإسلام، بل زادتهم بالله إيماناً على إيمانهم. وبذلك ازداد أمر النبي ظهوراً وازداد شوق النّاس لسماع القرآن. حتى إنّ أشد قريش خصومة بدأوا يسائلون أنفسهم: أحقاً أنه يدعو إلى الدين القيم، وأن ما يعدهم وينذرهم هو الصحيح؟ وحملهم هذا التساؤل على التسلل لسماع القرآن. خرج أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل عمرو بن هشام، والأخنس بن شريق، ليلة ليستمعوا إلى محمد ﷺ وهو في بيته فأخذ كل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه، وكان محمد ﷺ يقوم الليل إلاّ قليلاً يرتل القرآن ترتيلاً وهم يسمعون آيات الله فتأسر قلوبهم ونفوسهم، ويظلون ينصتون حتى الفجر فتفرقوا عائدين إلى منازلهم، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمداً عليكم، فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأنّ رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى محمد ﷺ يتلو كتاب ربه، وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة، فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد ﷺ من ضعف تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم، فأقلعوا عن الذهاب لسماع محمد ﷺ ولكن ما سمعوه في الليالي الثلاث ترك في نفوسهم أثراً جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأي فيما سمعوا، وكلهم تضطرب نفسه، ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه فيضعف

قومه ويتابعوا محمداً ﷺ معه. وهكذا سرت الدعوة في كل مكان رغم ما تضعه قريش في وجهها من عقبات، فساء ذلك قريشاً واشتد خوفها من انتشار الدعوة بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة، فزادت من أذى أصحابه، وأخذت تزيد في إيذائه، وكثرت مساءاتهم نحوه حتى ضاق بهم ذرعاً. فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة ويرجو إسلامهم، لكنهم ردوه بشر جواب، وأغروا به غلمانهم وسفهاءهم يسبونه ويضربونه بالحجارة حتى أدميت قدماه، ففر منهم ورجع حتى جلس إلى بستان عنب لعتبة وشيبة ابني ربيعة يفكر في أمره وأمر الدعوة، فهو لا يستطيع أن يدخل مكة إلاّ في حماية أحد زعماء مكة المشركين، وهو لا يستطيع أن يذهب إلى الطائف بعد ما لاقى من الأذى. ولا يبقى مكانه لأن البستان لرجلين مشركين، واشتد الكرب عليه فرفع رأسه إلى السماء يشكو إلى الله في اشد حالة من الألم، وأعظم حال من الثقة بالله وطلب رضاه، وأخذ يدعو بهذا الدعاء «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنـزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك**». ثمّ عاد إلى مكة في حماية المطعم بن عدي، وعرفت قريش ماذا حصل لمحمد ﷺ في الطائف فازدادت أذى له وشددت النكير عليه، وأخذت تمنع النّاس من الاستماع إليه، فانصرف عنه أهل مكة من المشركين وأعرضوا عن الاستماع إليه، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة لدين الله، وجعل يعرض نفسه

في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه. غير أن عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبا لهب لم يكن يدعه بل كان يتبعه أينما ذهب ويحرض النّاس ألا يستمعوا له، فأثّر ذلك فيهم وانصرفوا عن سماعه، فصار الرسول ﷺ يغشى القبائل في منازلهم، ويعرض نفسه عليهم، فأتى كندة في منازلهم، وأتى كلباً في منازلهم، وأتى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة، فلم يسمع له منهم أحد وردوه جميعاً رداً غير جميل، بل رده بنو حنيفة رداً قبيحاً. أما بنو عامر فطمعوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده، فلما قال لهم: إن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء لووا عنه وجوههم وردوه كما رده غيرهم. وهكذا أعرضت مكة عن الإسلام وأعرض أهل الطائف عن رسول الله ﷺ وردت القبائل دعوة الرسول ﷺ. ورأت القبائل التي تجيء حاجّة إلى مكة ما صار إليه محمد ﷺ من عزلة، وما أحاطته قريش من عداوة، تجعل كل نصير له عدواً لها وعوناً عليها، فازدادت إعراضاً عنه، وزاد ذلك الرسول ﷺ عزلة عن النّاس، وصارت الدعوة صعبة في مكة وما حولها وظهر المجتمع المكي في صلابة الكفر والعناد، مما يجعل الأمل ضعيفاً فيه.

دوْران من أدوار الـدعـوة

سار الرسول ﷺ في مكة في دورين متتاليين: أولهما دور التعليم والتثقيف والإعداد الفكري والروحي، وثانيهما دور نشر الدعوة والكفاح، فالدور الأول دور فهم الأفكار وتجسيدها في أشخاص وتكتلهم حولها، والدور الثاني دور نقل هذه الأفكار إلى قوة دافعة في المجتمع تدفعه لأنّ يطبقها في معترك الحياة. لأنّ الأفكار تبقى مجرد معلومات ما دامت لم تطبق، ولا فرق بين أن تكون هذه المعلومات في الكتب أو في الأدمغة فهي مخزونة في مكان، ولذلك لا قيمة للأفكار إذا لم تنتقل إلى تطبيق لها في الحياة. والأفكار لكي تطبق لا بدّ أن تمر بدور تحويلها من فكر إلى قوة دافعة في النّاس، فتؤمن بها الجماهير، وتفهمها، وتحملها، وتكافح في سبيل تطبيقها، وحينئذٍ يصبح تطبيقها أمراً حتمياً ونتيجة طبيعية. وهكذا سار الرسول ﷺ بالدعوة في مكة في هذين الدورين، أما الدور الأول فهو دور دعوة النّاس للإسلام، وتثقيفهم بأفكاره وتلقينهم أحكامه، وتكتيل من يستطيع تكتيلهم على أساس العقيدة الإسلامية، وهذا الدور هو دور التكتل السري في الدعوة. وذلك أن الرسول ﷺ كان لا يفتر عن الدعوة ويدأب على تثقيف من يدخلون في الإسلام بالأفكار، ويجمعهم في دار الأرقم، ويرسل من يثقفهم كتلة في حلقات، فيجتمع المسلمون في بيوتهم سراً وفي شعاب الجبال سراً، وفي دار الأرقم سراً ويتكتلون، ويزداد كل يوم إيمانهم وتزداد كل يوم صلاتهم ببعضهم، ويزداد كل يوم إدراكهم لحقيقة المهمة

التي يحملونها، فيستعدون للتضحية في سبيلها حتى غرست الدعوة في نفوسهم، وسرى الإسلام فيهم سريان الدم في أجسامهم، فأصبحوا إسلاماً يمشي في الطريق. وبذلك لم تستطع الدعوة أن تبقى حبيسة في نفوسهم رغم استخفائهم ورغم سِرِّية تكتلهم والحرص على إخفاء تجمعهم، فأخذوا يتحدثون إلى من يثقون بهم، وإلى من يأنسون منهم استعداداً لقبول الدعوة، وبهذا أحس النّـاس بدعوتهم، وأحسوا بوجودهم، فاجتازت بذلك الدعوة نقطة الابتداء، وصار لا بد لها أن تنطلق، ووجدت المحاولات لانطلاقها ومخاطبة النّاس جميعاً بها، وبذلك انتهى الدور الأول وهو دور التكتل السري والتثقيف الذي يبني هذا التكتل، وصار لا بد من الانتقال إلى الدور الثاني وهو دور التفاعل والكفاح بـإفهام النّاس الإسلام، فيتجاوبون معه ويقبلون عليه فيختلط بنفوسهم، أو يردونه ويحملون عليه فيصطدمون بأفكاره، ويحصل من هذا الاصطدام أن يهزم الكفر والفساد ويستقر الإيمان والصلاح، وينتصر الفكر الصحيح؛ لأنّ العقول مهما تكن مكابرة لا يمكن أن تغلق أمام الفكر الصحيح، ولا تستطيع أن ترفضه، وإن كانت تهرب منه حتى لا يؤثر فيها. وهكذا بدأ دور التفاعل وبدأ به الكفاح بين فكر وفكر، بين مسلمين وكافرين، بدأ ذلك من الكتلة الحزبية حين خرج الرسول ﷺ ومعه أصحابه في ترتيب لم تعهده العرب من قبل، وفي كتلة واحدة، فطاف بالكعبة وأعلن أمره. ومنذ ذلك الحين صار الرسول ﷺ ينشر الدعوة بين النّاس كافة جهاراً نهاراً سافراً متحدياً.

وصارت الآيات تنـزل على الرسول ﷺ في الدعوة إلى التوحيد، وفي إنكار الوثنية والشرك، والحملة عليهما، والنعي على تقليد الآباء والأجداد من غير نظر، وصارت تنـزل في الحملة على المعاملات الفاسدة، فتهاجم الربا،

وتهاجم التجارة الفاسدة، والغش في الكيل والميزان، وصار الرسول يتحدث إلى النّاس في الإسلام جماعات، فيجمع قومه على طعام في بيته ويحدثهم جماعة، ويطلب إليهم أن يسلموا وأن يؤازروه فيرفضوا شر رفض، ثمّ يجمع أهل مكة على الصفا ويحدثهم، فيثور زعماء قريش ويرده أبو لهب شرّ ردّ، وتزداد الخصومة بين قريش والنبي محمد ﷺ كما تزداد بين غير قريش من العرب وبينه ﷺ وهكذا تَجْمَعُ الدعوة إلى التثقيف المركز بالحلقات في البيوت وبين الشعاب وفي دار الأرقم تثقيفاً جماعياً، وتنتقل من دعوة من يؤنس فيه الاستعداد إلى دعوة النّاس جميعاً، فيكون لهذه الدعوة الجماعية والتثقيف الجماعي أثر في قريش؛ إذ ازداد حقدها وأحست بالخطر يقترب منها، وبدأت تتخذ الخطوات الجدية للمقاومة، بعد أن كانت لا تأبه لمحمد ولا لدعوته، فازداد الأذى والاضطهاد على النبي ﷺ وعلى أصحابه. ولكن هذه الدعوة الجماعية كان لها أثر في الدعوة نفسها، فقد أسمعت النّاس جميعاً كلمة الإسلام، وانتشرت الدعوة إلى دين الله بين أهل مكة جميعاً، فلم يكن يوم إلاّ أسلم فيه بعضهم لله وجهه، فآمن به كل بائس وكل ضعيف وكل محروم، وجميع من لا تلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، وآمن به من تجار مكة وأشرافها وزعمائها من عرفت نفوسهم الطهر والنـزاهة والصدق وارتفعوا عن اللجاج والمكابرة، هؤلاء أسلموا وجوههم لله بمجرد أن أدركوا صحة الدعوة وصدق الداعي، وانتشر الإسلام بمكة ودخل النّاس في الإسلام رجالاً ونساء. فكان للدعوة الجماعية أثر نَقَلَها إلى أفق أوسع، وإن كان نَقَلَ حَمَلَتها إلى المشقة والعذاب وتحمل صنوف الأذى. وكان يزيد النار اشتعالاً في نفوس زعماء قريش مهاجمةُ الرسول للظلم والقسوة والاستعباد الذي كان يسود مكة، وكشفه لأحوال الكفّار ولأعمالهم. وبدأت بين الرسول ومعه أصحابه وبين كفار قريش مرحلة من أشق المراحل،

ودور من أعنف الأدوار. ولئن كان الانتقال من دور الثقافة إلى دور التفاعل هو من أدق الأدوار لأنّه يحتاج إلى حكمة وصبر ودقة في التصرف فإن دور التفاعل هو من أشق الأدوار لأنّه يحتاج إلى صراحة وتحد دون أن يحسب للنتائج والأوضاع أي حساب، فتحصل فيه فتنة الكفّار للمسلمين عن دينهم، وفيه يظهر الإيمان وتظهر قوة الاحتمال، ويظهر ما في النفس من صدق اللقاء، وهكذا سار الرسول ﷺ في هذا الدور وهو والصحابة يتحملون ما تنوء به الجبال الشامخات من ظلم وإرهاق وعسف وعنت، فكان منهم من هاجر إلى الحبشة فراراً بدينه، ومنهم من مات تحت التعذيب ومنهم من احتمل أقسى صنوف الأذى، واستمروا على ذلك مدّة طويلة كانت كافية لأنّ يتأثر مجتمع مكة بنور الإسلام وتبدد فيه الظلمات. ولئن مكث الرسول ﷺ ثلاث سنوات في دار الأرقم وانتهى من الدور الأول دور التكتل السري والتثقيف خلال هذه السنوات الثلاث، فقد مضى على الرسول ﷺ ثماني سنوات أخرى وهو يكافح (وتظهر المعجزات للناس) ومع ذلك فلم تخفَّ وطأة قريش عن تعذيب المسلمين و لم تخفَّ حماستهم في محاربة الإسلام. نعم كان من جراء احتكاك المسلمين بقريش أن سمعت الجزيرة كلها بالإسلام، وسارت أجواء الدعوة في جميع أنحاء الجزيرة، نقلها إليهم الحجاج وتحدثوا بها، لكن هؤلاء العرب كانوا يقفون موقف المتفرج، و لم يتقدموا خطوة نحو الإيمان، بل كانوا يسعون لعدم إغضاب قريش، ويبتعدون عن الرسول ﷺ حتى لا يثير ذلك غضب قريش. فاشتد ذلك على الرسول وعلى أصحابه وظهر أن الانتقال للدور الثالث دور تطبيق الإسلام لا بد منه، ولكن قسوة المجتمع في مكة لا تدل على إمكانية ذلك التطبيق، وازدياد الأذى على المسلمين لا يمكنهم من التفرغ للدعوة بل يحول بينهم وبينها، وإعراض النّاس عن الدعوة يزيدهم ألماً وحزناً.

توسيع مجال الدعوة

زادت مساءات قريش للرسول ﷺ وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعاً، ولم يبق رجاء في نصرة القبائل إياه بعد أن ردته ثقيف من الطائف بشر جواب، وبعد أن ردته كندة وكلب وبنو عامر وبنو حنيفة لما عرض نفسه عليهم في موسم الحج، ولم يبق مطمع في أن يهتدي إلى الإسلام من قريش أحد، ورأت غير قريش من القبائل التي تجاور مكة والتي تجيء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجة إليها ما صار محمد ﷺ إليه من عزله، وما أحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصير له عدواً لها وعوناً عليها، فازدادت إعراضاً عنه. ورأى ﷺ رسالة ربه تقف في دائرة من اتبعه إلى يومئذٍ، وتطاولت الأيام والرسول ﷺ يزداد بين قومه عزلة، وقريش تزداد عليه حقداً، والناس يزدادون عنه إعرضاً، إلاّ أنه ﷺ بالرغم من كل ذلك ظل هو وأصحابه من حوله أشد ما يكون ثقة بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كله، وظل يدعو النّاس كلّما أتيح له ذلك، فإذا جاء موسم الحج واجتمع النّاس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة بادأ القبائل فدعاها إلى الإسلام غير آبه بأن تبدي هذه القبائل رغبة عن دعوته والإعراض عنه أو ترده رداً غير جميل. ويتحرش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه النّاس رسالة ربه وينالونه بالسوء، فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه، وطمأنينتها إلى غده. إن الله قد بعثه بالإسلام فهو لا ريب ناصره ومؤيده ومظهر دينه. وأخذ ينتظر فرج الله وهو يومئذ في ألم من وقوف دعوته، وفي شدة وضيق من قريش، ولم

يطل به الانتظار حتى بدت تباشير الفوز آتية من المدينة، ذلك أن نفراً من الخزرج خرجوا إلى مكة في موسم الحج فلقيهم الرسول ﷺ فكلمهم وسألهم عن شأنهم، ودعاهم إلى الله، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: والله إنّه لَلنبيُّ الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه وأجابوا دعوة الرسول وأسلموا وقالوا له: «إنا تركنا قومنا (أي الأوس والخزرج) ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك». وعاد هؤلاء النفر إلى المدينة فذكروا لقومهم إسلامهم، فألفوا قلوباً منشرحة ونفوساً متلهفة للدين الجديد، فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلاّ فيها ذكر محمد ﷺ.

بـيـعـة العقبة الأولى

فلما استدار العام وجاء موسم الحج أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة فالتقوا هم والنبي ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى: بايعوه على **أن لا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزني ولا يقتل أولاده ولا يأتي ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف فإن وَفّى في ذلك فله الجنة وان غشي من ذلك شيئاً فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر.** وبعد أن أتموا البيعة وانقضى موسم الحج عادوا إلى المدينة.

الـدعـوة في المدينـة

قال ابن اسحق: فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين فكان يُسمَّى المقرئ بالمدينة: مصعب. وكان منـزله على أسعد بن زُرارة. وكان يأتي الناسَ في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها إلاّ دوراً من أوس الله وهي خطمة ووائل وواقف، وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم فكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمّع بهم، فأذن له وكتب إليه: (أما بعد فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم... فإذا مال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله بركعتين، واخطب فيهم) فجمّع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة وهم اثنا عشر رجلاً، وما ذبح لهم يومئذٍ إلاّ شاة، فهو أول من جمّع في الإسلام جُمعة. واستمر مصعب يطوف بالمدينة على النّاس ويدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم إياه. وذات يوم خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ــ وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة ــ فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر أي بستاناً من بساتينهم، وكان على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم. وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به

قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثمّ أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق اللّهَ فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال فوقف عليهما متشتماً، فقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا. اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا ــ فيما يذكر عنهما ــ والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثمّ قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثمّ تشهد شهادة الحق ثمّ تصلي ركعتين. قال فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثمّ قام فركع ركعتين. ثمّ قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ. ثمّ أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بني حارثه قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك انهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال

فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثمّ قال والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثمّ خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنّما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً ثمّ قال لأسعد بن زرارة يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره، وقد قال أسعد لمصعب: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فقال له مصعب: أَوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت، ثمّ ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثمّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا تغتسل فتطّهر وتطهر ثوبيك ثمّ تشهد شهادة الحق ثمّ تصلي ركعتين. قال فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين، ثمّ أخذ حربته فاقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلاّ مسلماً ومسلمة، ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو النّاس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون. وأقام مصعب بالمدينة مدّة سنة بين الأوس والخزرج، يعلمهم دينهم، ويرى مغتبطاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق، وكان رضي الله عنه

يطرق الأبواب على النّاس سعياً للاتصال بهم ليبلغهم دعوة الله، وكان يجوب الحقول متصلاً بالمزارعين في أعمالهم يدعوهم للإسلام، وكان يواجه الأسياد يدعوهم لدين الله، وكان يقوم بحركات مقصودة كما فعل مع أسعد بن زرارة في اتخاذ الوسائل للوصول إلى النّاس حتى يقوم بـإسماعهم صوت الحق حتى استطاع في سنة واحدة أن يقلب الأفكار في المدينة من وثنية خرقة، ومن مشاعر خاطئة (إلى توحيد وإيمان، وإلى مشاعر إسلامية) تسخط على الشرك وتنفر من تطفيف الكيل والميزان. وهكذا كان نشاط مصعب، وكان نشاط الذين أسلموا معه أن تحولت المدينة في سنة واحدة من حال الشرك إلى حال الإسلام.

بـيـعـة العقبة الثـانية

كانت بيعة العقبة الأولى خيراً وبركة، فإن الذين أسلموا على قلة عددهم، كفاهم شخص واحد من أصحاب الرسول هو مصعب لأن يغير بهم المدينة، ويقلب الأفكار والمشاعر الموجودة في مجتمعهم، ومع أن الذين أسلموا في مكة كانوا كثيرين إلاّ أن جماهير النّاس كانوا منفصلين عنهم، إذ لم تؤمن الجماعات، و لم يتأثر المجتمع بالأفكار والمشاعر الإسلامية، بخلاف المدينة فقد دخلت في الإسلام فيها جماهير النّاس، وتأثر المجتمع فيها بالإسلام، وتأثرت أفكاره، وتأثرت مشاعره، وذلك يدل دلالة واضحة على أن إيمان الأفراد منفصلين عن المجتمع، منفصلين عن جماهير النّاس لا يحدث أثراً في المجتمع، ولا في الجماهير، مهما تكن قوة هؤلاء الأفراد. وأن العلاقات القائمة بين النّاس إذا تأثرت بتأثير الأفكار والمشاعر حدث التحول والانقلاب مهما يكن قليلاً عدد الحاملين للدعوة. ويدل على أن المجتمع حين يكون جامداً على الكفر كمجتمع مكة يكون أكثر صعوبة من المجتمع الذي لم تتحكم فيه الآراء الفاسدة كمجتمع المدينة، وان كانت موجودة فيه هذه الآراء، ولذلك تأثر المجتمع في المدينة بالإسلام أكثر من مكة، فقد كان النّاس في المدينة يشعرون بخطأ الأفكار التي يحملونها وكانوا يبحثون عن أفكار أخرى وعن نظام آخر لحياتهم، في حين أن مجتمع مكة كان مرتاحاً إلى ما هو عليه، حريصاً على بقائه لا سيما رؤوس الكفر أمثال أبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان، ولذلك ما لبث مصعب في المدينة مدّة قصيرة

حتى وجد الإقبال على الدعوة، فأقام يدعو النّاس للإسلام ويثقفهم بأفكاره وأحكامه، فيلمس الاستجابة السريعة، ويشاهد إقبال النّاس على الإسلام وإقبالهم على تفهم أحكامه فيسر كثيراً، ويرى ازدياد عدد المسلمين، وازدياد الإسلام بالمدينة، فيغتبط لذلك ويزداد نشاطاً في التعليم وبث الدعوة، حتى إذا أتى موسم الحج عاد إلى مكة وقص على رسول الله ﷺ خبر المسلمين وقوتهم، وأنباء الإسلام وازدياد انتشاره، وصور له المجتمع بالمدينة بأنه اصبح لا يتحدث إلاّ عن الرسول، ولا شيء في أجوائه إلاّ الإسلام، وأن قوة المسلمين ومنعتهم هناك لها من التأثير ما جعل الإسلام هو الذي له الغلبة على كل شيء، وأنه سيحضر هذا العام بعض المسلمين، وهم أعظم إيماناً بالله، واستعداداً لحمل رسالة الله، والدفاع عن دين الله، فسر النبي ﷺ لأخبار مصعب كثيراً وأخذ يفكر في الأمر طويلاً، ويقارن بين مجتمع مكة ومجتمع المدينة. فإن مكة قد قضى يدعو فيها إلى الله اثني عشر عاماً متتالية، لم يأل جهداً بالدعوة، ولم يترك فرصة إلاّ بذل فيها كل ما يستطيع من جهد، وتحمل جميع صنوف الأذى، ومع ذلك فالمجتمع متحجر لا تجد الدعوة إليه سبيلاً، نظراً لما في قلوب أهل مكة من قسوة، وما في نفوسهم من غلظة، وما في عقولهم من جمود على القديم، وبذلك كان مجتمع مكة قاسياً ضعيف القابلية للدعوة، لما تغلغل في نفوس أهله من وثنية الشرك التي كانت مكة المركز الرئيسي لها. وأما مجتمع المدينة، فقد كان مرور سنة على إسلام نفر من الخزرج، ثمّ بيعة اثني عشر رجلاً، وجهود مصعب بن عمير مدّة سنة أخرى، كان ذلك كافياً لإيجاد الأجواء الإسلامية في المدينة ودخول النّاس في دين الله بهذه السرعة المدهشة، وإذا كانت مكة قد وقفت فيها رسالة الله عند حد الذين أسلموا، مع ما يلاقي فيها المسلمون

من أذى قريش ومساءاتها، فإن المدينة قد بدأت فيها رسالة الله تنتشر بهذه السرعة، ولا يجد المسلمون فيها من أذى اليهود ولا أذى المشركين شيئاً، وذلك مما يُمَكِّنُ للإسلام في النفوس، ويفتح الطريق أمام المسلمين، ولهذا فقد تبين لرسول الله أن المدينة أصلح من مكة للدعوة إلى الإسلام، وأن مجتمع المدينة فيه قابلية لأن يكون مُـنْـبَـثَقَ نور الإسلام أكثر من مكة. ولهذا فكر في أن يهاجر إليه، وأن يهاجر أصحابه إلى إخوانهم المسلمين، ليجدوا عندهم أمناً، وليسلموا من أذى قريش، حتى يتفرغوا للدعوة وينتقلوا بها إلى مرحلتها العملية، ألا وهي تطبيق الإسلام، وحمل رسالته، بقوة الدولة وسلطانها. وكان هذا هو السبب للهجرة إليها لا غيره.

ولا بد من لفت النظر إلى أن الرسول ﷺ لم يفكر بالهجرة من مكة لمجرد أن لاقى صعوبات أمام الدعوة، دون أن يصبر، وأن يحاول التغلب على هذه الصعوبات، فإنّه عليه السلام قد صبر عشر سنين في مكة، وهو لا يتحول فكره عنها، وكان يلاقي الأهوال في سبيل الدعوة هو وأتباعه، ولم تضعف مساءات قريش من نفسه شيئاً، وما أوهنت مقاومتهم له عزماً، بل زاده الإيمان بالدعوة التي جاء بها من ربه سمواً، وزاده اليقين بنصر الله صلابة وثباتاً، ولكنه ﷺ رأى بعد هذه التجارب ما عليه هذا المجتمع القاسي في مكة من ضحالة أفكار، وما فيه من غلظة أكباد، وما هو عليه من ضلالة، مما يضعف الأمل فيه، ويجعل استمرار التجربة في دعوته جهداً ضائعاً، ولذلك كان لا بد من التحول عن هذا المجتمع إلى غيره. ففكر في الهجرة من مكة، وكان هذا هو الذي حمله على التفكير بالهجرة إلى المدينة، وليس هو ما ناله وما نال أصحابه من أذى. نعم إن الرسول ﷺ أمر أصحابه بالهجرة

إلى الحبشة فراراً من الأذى؛ إذ يجوز للمؤمنين أن يهاجروا عن مواطن الفتنة فراراً بدينهم، لأنّه وإن كان الأذى يذكي الإيمان، والاضطهاد يشعل الإخلاص، والمقاومة ترهف العزائم، والإيمان يحمل صاحبه على الاستهانة بكل شيء، وعلى التضحية في سبيله بالمال والجاه والراحة والحياة، نعم إنه وإن كان الإيمان بالله يجعل المؤمن يقدم نفسه عن طيب خاطر في سبيل الله، ولكن استمرار الأذى، ومداومة التضحية، تجعل المؤمن مشغولاً بالصبر على الأذى، وببذل التضحيات، عن دقة التأمل التي تزيد أفق المؤمن سعة وإدراكه للحق قوة وعمقاً، ولذلك كان لا بد من هجرة المؤمنين عن مواطن الفتنة. غير أن هذا ينطبق على هجرة المسلمين إلى الحبشة. أما هجرتهم إلى المدينة فإنها كانت ليتمكنوا من الانتقال برسالتهم إلى وضع يجعلها حية في مجتمعهم الجديد، مندفعة في الكرة الأرضية لإعلاء كلمة الله. ومن هنا فكر الرسول ﷺ في أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، بعد أن دخلها الإسلام وانتشر فيها هذا الانتشار. وقبل أن يأمرهم بالهجرة إلى يثرب، وقبل أن يقرر هو الهجرة إليها، لا بد من أن يرى الحجاج من المدينة، ويرى المسلمين الذين قدموا للحج، ويرى مبلغ استعدادهم لحماية الدعوة، ومبلغ استعدادهم للتضحية في سبيل الإسلام، ويرى أكانوا يقدمون على بيعته بيعة حربية، بيعة قتال تكون الحجر الأساسي لإقامة الدولة الإسلامية. وانتظر قدوم الحجاج، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة للبعثة الموافق سنة ٦٢٢ ميلادية وكان الحجاج كثيرين بالفعل وكان بينهم خمسة وسبعون مسلماً: ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع، فاتصل بهم الرسول ﷺ سراً، وتحدث إليهم في بيعة ثانية لا تقف عند

حد الدعوة فحسب والصبر على الأذى، بل تتجاوز ذلك وتمتد إلى ما يكون به قوة يدفع بها المسلمون عن أنفسهم، بل تمتد إلى ما هو ابعد من ذلك أيضاً، إلى إيجاد النواة التي تكون حجر الزاوية، والدعامة الأولى في إقامة دولة الإسلام، التي تطبقه في المجتمع، وتحمله رسالة عالمية إلى النّاس كافة، وتحمل معه القوة التي تحميه، وتزيل من طريقه كل حاجز مادي يقف في سبيل نشره وتطبيقه. تحدث إليهم في ذلك، وعرف حسن استعدادهم فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جوف الليل، في أواسط أيام التشريق. وقال لهم: لا توقظوا نائماً، ولا تنتظروا غائباً. وفي يوم موعدهم المعين، وبعد مضي الثلث الأول من الليل، خرجوا من رحالهم يتسللون مستخفين، مخافة أن ينكشف أمرهم، وذهبوا للعقبة وتسلقوا الجبل جميعاً، وتسلقت معهم المرأتان، وأقاموا ينتظرون الرسول ﷺ، فأقبل ومعه عمه العباس، ولم يكن قد أسلم حينئذٍ، وإنّما جاء ليستوثق لابن أخيه. وكان أول من تكلم (فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه) فلما سمعوا كلام العباس قالوا له: سمعنا ما قلت. ثمّ قالوا: تكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فأجاب الرسول ﷺ بعد أن تلا القرآن، ورغب في الإسلام: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، فمد البراء لمبايعته على ذلك وقال: بايِعْنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقَة، ورثناها كابراً عن كابر. وقبل أن يتم البراء كلامه، اعترضه

أبو الهيثم بن التيهان قائلاً: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال ــ أي اليهود ــ حبالاً (عهوداً) وإنّا قاطعوها، فهل عسيت إنْ نحن فعلنا ذلك، ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم الرسول ﷺ وقال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**». وهمّ القوم بالبيعة، فاعترضهم العباس بن عبادة قائلاً: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من النّاس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. فأجاب القوم: إنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، ثمّ قالوا: فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك. فرد عليهم الرسول مطمئن النفس قائلاً: «**الجنة**».

ومدوا إليه أيديهم فبسط يده فبايعوه قائلين: «**بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا، ويسرنا، ومنشطنا، ومكرهنا وأَثَرَةٍ علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**»، فلما فرغوا قال النبي ﷺ: «**أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاء**»، فاختار القوم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فقال النبي لهؤلاء النقباء: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي**»، قالوا: نعم. ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم، ثمّ احتملوا رحالهم وعادوا إلى المدينة. وبعد ذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يهاجروا إلى المدينة، وأن يخرجوا متفرقين، وبدأ المسلمون

يهاجرون فرادى، أو نفراً قليلاً، وكانت قريش قد علمت بأمر البيعة، لذلك حاولت أن ترد من تستطيع رده إلى مكة. وكانت تحول بين المسلمين والهجرة، حتى كانت تحول بين الزوج والزوجة. إلاّ أن ذلك لم يؤثر في الهجرة، فتتابعت هجرة المسلمين إلى المدينة والرسول ﷺ مقيم في مكة، ولا يعرف أحد هل اعتزم أن يهاجر إلى المدينة، أم قرر الإقامة في مكة؟ ولكن الذي كان يظهر أنه يريد الهجرة إلى المدينة. فقد استأذنه أبو بكر أن يهاجر إلى المدينة فقال: «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً**». فعرف أبو بكر أنه يريد الهجرة. وكانت قريش تحسب لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة ألف حساب بعد أن كثر المسلمون هناك كثرة جعلتهم أصحاب اليد العليا في المدينة، وجعلتهم مع الذين يهاجرون من مكة قوة كبيرة، فإذا لحق بهم النبي وهم في هذه القوة، كان في ذلك الويل والدمار لهم. ولهذا فكروا في منع الرسول ﷺ من الهجرة إلى المدينة. وخافوا في نفس الوقت من بقائه في مكة أن يتعرضوا لأذى المسلمين في المدينة حين تشتد شوكتهم، بعد أن صاروا بهذه القوة، فيأتون إلى مكة ليدافعوا عن رسول الله ﷺ الذي آمنوا به. لذلك فكروا في قتله حتى لا يلحق بالمسلمين في المدينة وحتى لا يكون هنالك ما يسبب اشتباكهم مع أهل المدينة من أجل الإسلام ومن أجل محمد ﷺ. وقد جاء في كتب السيرة أنه قد ورد في حديث عائشة وأبي أمامة بن سهم: «**لما صدر السبعون من عنده ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له منعة أهل حرب ونجدة**». وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلنون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وأتعبوهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا للنبي ﷺ. فقال: «**قد أُريتُ دارَ هجرتكم سَبْخَة**». ثمّ مكث أياماً، ثمّ خرج مسروراً فقال: «**قد أخبرت بدار هجرتكم وهي**

يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها». فجعلوا يتجهزون ويترافقون ويتواصون ويخرجون ويخفون ذلك، وقد خرجوا أرسالاً أي أقواماً وفرقاً متقطعة، وأقام ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الخروج، وكان الصدّيق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة إلى المدينة بعد أن صار المسلمون يهاجرون إليها فيقول: «**لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً**»، فيطمع أبو بكر أن يكون هو. ولما رأت قريش هجرة الصحابة، وعرفوا أنه أجمع لحربهم، اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام، فأجمع رأيهم على قتله، وتفرقوا على ذلك. ثمّ أتى جبريلُ النبيَّ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت في بيته تلك الليلة وأذن الله عند ذلك له بالخروج.

وعلى ذلك فإن وجود القوة الإسلامية في المدينة واستعداد المدينة لتلقي الرسول ﷺ وإقامة الدولة الإسلامية فيها هو الذي حمل الرسول ﷺ على الهجرة، وهذا هو السبب المباشر للهجرة. ولهذا يخطئ كل من يظن بأن محمداً ﷺ قد هاجر من مكة خوفاً من قريش أن تقتله، وفراراً منها. فإنه ﷺ لم يكن يحسب للأذى أي حساب، ولم يكن للموت في نظره أي اعتبار في سبيل الدعوة إلى الإسلام، ولم تكن تشغله نفسه ولا حياته، وما كانت هجرته للمدينة إلاّ للدعوة الإسلامية، ولإقامة الدولة الإسلامية. وإنّما ائتمرت قريش بقتله مخافة هجرته إلى المدينة، واعتزازه بها، ولكنه عليه السلام انتصر عليها، وهاجر إلى المدينة رغم أنفها، ولم تستطع منعه رغم ائتمارها به. فكانت الهجرة الحد الفاصل في الإسلام بين دور الدعوة له، وبين إيجاده مجتمعاً ودولة تحكم به، وتطبقه، وتدعو له بالحجة والبرهان، وبالقوة التي تحمي هذه الدعوة من قوى الشر والطغيان.

قيام الدولة الإسلامية

وصل النبي ﷺ المدينة واستقبله عدد كبير من أهلها، من المسلمين والمشركين واليهود، وأحاط به المسلمون. وكان الجميع حريصين على استجلاء طلعته، وكان المسلمون حريصين على خدمته وراحته، حريصين على أن يقدموا نفوسهم في سبيله، وفي سبيل الدين الذي جاء به، وفي سبيل الدعوة الإسلامية. وكان كل منهم حريصاً على أن ينزل النبي عنده، لكنه عليه الصلاة والسلام ألقى بخِطام ناقته على غاربها إلى أن بركت على مِرْبَد سهل وسهيل ابني عمرو، فابتاعه وأقام عليه مسجده وأقام حوله مساكنه. وما كان بناء المسجد ولا بناء المساكن ليرهق أحداً، فقد كانت كلها من البساطة بحيث لا تحتاج إلى نفقة طائلة ولا إلى جهد كبير. كان المسجد فناء فسيحاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب، وسقف جزء منه بسعف النخل، وترك الجزء الآخر مكشوفاً، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون مسكناً، ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلاّ ساعة صلاة العشاء، إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها ولم تكن مساكن النبي ﷺ بأكثر من المسجد بناء سوى أنها كانت أكثر منه استنارة. وقد مكث ﷺ في بيت أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري أثناء بناء المسجد والمساكن حتى انتهى من بنائها، فانتقل إليها واستقر عليه الصلاة والسلام، وأخذ يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتحها، والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة واسعة من دور إلى دور، نقلتها من دور التثقيف ومن دور التفاعل إلى دور تطبيق

أحكام الإسلام على النّاس في علاقاتهم، نقلتها من دور الدعوة فحسب والصبر على الأذى في سبيلها، إلى دور الحكم والسلطان والقوة التي تحمي هذه الدعوة. فالرسول ﷺ منذ وصل المدينة أمر ببناء المسجد مكاناً للصلاة وللاجتماع وللتشاور ولإدارة شؤون المسلمين والقضاء بينهم، واتخذ أبا بكر وعمر وزيرين له، قال عليه الصلاة والسلام: «**وزيراي في الأرض أبو بكر وعمر**» والتف المسلمون حوله وصاروا يرجعون إليه، فكان يقوم بأعمال رئيس الدولة والقاضي، وقائد الجيش، وكان ﷺ يرعى شؤون المسلمين، ويفصل الخصومات بينهم. وأخذ يؤمّر على السرايا قواداً، ويرسل السرايا خارج المدينة. وبذلك أقام الدولة في المدينة من أول يوم أقام فيها، وأخذ يركز هذه الدولة ببناء المجتمع على أساس ثابت، وتهيئة القوة الكافية لحماية الدولة ونشر الدعوة. وبعد أن اطمأن لذلك كله بدأ يزيل الحواجز المادية التي تقف في سبيل نشر الإسلام.

بنـاء المجتمع

فطر الله في الإنسان غريزة البقاء وكان من مظاهرها تجمع الإنسان مع الإنسان، لذلك كان اجتماع النّاس مع بعضهم طبيعياً، وكان التجمع بينهم أمراً غريزياً، إلاّ أن مجرد اجتماع النّاس ببعضهم لا يجعل منهم مجتمعاً، وإنما يجعل منهم جماعة، ويبقون جماعة فقط إذا اقتصروا على مجرد الاجتماع، فإذا نشأت بينهم علاقات لجلب المصالح لهم، ودفع المفاسد عنهم، جعلت هذه العلاقات من هذه الجماعة مجتمعاً، غير أن هذه العلاقات لا تجعل منهم مجتمعاً واحداً إلاّ إذا توحدت نظرتهم إلى هذه العلاقات بتوحيد أفكارهم، وتوحد رضاهم عنها وسخطهم منها بتوحيد مشاعرهم، وتوحدت معالجاتهم لهذه العلاقات بتوحيد النظام الذي يعالجها، ولذلك كان لا بد من النظرة إلى الأفكار والمشاعر والأنظمة حين النظر للمجتمع؛ لأنها هي التي تجعله مجتمعاً معيناً له لون معين. وعلى هذا الأساس ننظر إلى المجتمع في المدينة حين قدمها الرسول ﷺ لنعرف ماهيته.

كانت تسكن المدينة حينئذٍ ثلاث جماعات: أولاها المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكانوا الكثرة الغالبة فيها. وثانيتها المشركون من سائر الأوس والخزرج الذين لم يسلموا، وكانوا قلة بين أهلها. وثالثتها اليهود وهم ثلاثة أقسام: قسم منهم في داخل المدينة، وقسمان خارجها. أما الذين في داخل المدينة فهم بنو قَيْنُقاع. وأما الذين خارجها فهم بنو النضير، وبنو قريظة. وقد كان اليهود قبل الإسلام مجتمعاً

منفصلاً عن المجتمع في المدينة فأفكارهم متباينة، ومشاعرهم متباينة، والمعالجات التي يحلون بها مشاكلهم متباينة؛ ولذلك لا يعتبر اليهود جزءاً من المجتمع في المدينة، وإن كانوا داخلها وعلى مقربة منها. وأما المشركون فقد كانوا قلة. وكانت الأجواء الإسلامية التي اكتسحت المدينة قد اجتاحتهم، ولذلك كان خضوعهم في علاقاتهم للأفكار الإسلامية وللمشاعر الإسلامية ولنظام الإسلام أمراً حتمياً، حتى ولو لم يعتنقوا الإسلام. وأما المهاجرون والأنصار فقد جمعتهم العقيدة الإسلامية وألف الإسلام بينهم، ولهذا كانت أفكارهم واحدة ومشاعرهم واحدة، فكان تنظيم علاقاتهم بالإسلام أمراً بديهياً، ولذلك بدأ الرسول ﷺ يقيم العلاقات بينهم على أساس العقيدة الإسلامية، ودعاهم ليتآخوا في الله أخوين أخوين، أخوة يكون لها الأثر الملموس في معاملاتهم وأموالهم وسائر شؤونهم، فآخى بين المسلمين، فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين، وآخى بين المهاجرين والأنصار، فكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين، وكان طلحة بن عبيد الله وأبو أيوب الأنصاري أخوين، وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين. وكان لهذه الأخوة أثر في الناحية المادية فقد أظهر الأنصار من الكرم لإخوانهم المهاجرين ما يزيد هذه الأُخُوّة قوة وتوكيداً، فقد أعطوهم الأموال والأرزاق، وشاركوهم في حاجات الدنيا، وقد اتجه التجار للتجارة، والزراع للزراعة، وكل إلى عمله. أما التجار فقد أخذوا يشتغلون بالتجارة، فقد بدأ عبد الرحمن بن عوف يبيع الزبدة والجبن، وصنع كثير غير عبد الرحمن صنيعه، وأثروا من تجارتهم؛ إذ كانوا على دراية في شؤون التجارة. أما غير التجار ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلي بن

أبي طالب وغيرهم فقد عملت أسرهم بالزراعة في الأراضي التي منحهم إياها الأنصار. قال عليه الصلاة والسلام: «**من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه**». وصاروا جميعاً يعملون لكسب قوتهم. وكانت هنالك جماعة صغيرة لم يكن لديها مال و لم تجد عملاً تعمله، وليس لها مسكن تسكنه، وكانوا في حال من العوز والمتربة، و لم يكن هؤلاء من المهاجرين من قريش ولا من الأنصار، وإنما كانوا عرباً آخرين وفدوا على المدينة وأسلموا، فعني بهم الرسول ﷺ وأفرد لهم صُفَّة المسجد (القسم المسقوف منه) يبيتون بها ويأوون إليها، ولذلك سموا أهل الصُّفّة، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً. وبذلك انتهى الرسول ﷺ من تركيز المسلمين جميعاً على حال مستقرة، ومن تركيز العلاقات القائمة بينهم على أساس متين. وبهذا أقام الرسول ﷺ المجتمع في المدينة على أساس ثابت وقف في وجه الكفر، وصمد لدسائس اليهود والمنافقين، وظل وحدة واحدة، فاطمأن الرسول ﷺ إلى هذا المجتمع وإلى هذه الوحدة. أما المشركون فقد خضعوا للحكم الإسلامي ثمّ تلاشى وجودهم. ولذلك لم يكن لهم أثر في تكوين المجتمع. وأما اليهود فإنهم مجتمع آخر قبل الإسلام. وبعد الإسلام ازداد التباين بين مجتمعهم وبين المجتمع الإسلامي، وبينهم وبين المسلمين، وكان لا بد من وضع العلاقات بينهم وبين المسلمين على أساس معين، ولذلك حدد الرسول ﷺ موقف المسلمين منهم، وحدد لهم ما يجب أن يكون عليه وضعهم في علاقاتهم مع المسلمين. فقد كتب ﷺ بين المهاجرين والأنصار كتاباً ذكر فيه اليهود واشترط عليهم شروطاً، فكان الكتاب منهاجاً حددت فيه علاقات قبائل اليهود مع المسلمين بعد أن حددت علاقات المسلمين ببعضهم وبمن تبعهم. وقد افتتح الكتاب بقوله:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون النّاس**»، ثمّ ذكر ما يجب أن تكون عليه العلاقات بين المؤمنين. وذكر اليهود عَرَضاً أثناء الحديث عن علاقات المؤمنين فقال: «**ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون النّاس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وان سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء وعدل بينهم**»، وليس المقصود من اليهود المذكورين هنا في هذا النص هم قبائل اليهود المجاورة، بل المراد كل من أراد أن يكون من رعية الدولة الإسلامية تابعاً لها يكون له النصر وتكون له المساواة في المعاملة مع المسلمين؛ إذ يكون حينئذٍ ذمياً. وأما قبائل اليهود الذين شملهم الكتاب فقد ذكروا باسم القبائل العربية التي كانوا متحالفين معها في القسم الأخير من الكتاب، بعد أن انتهى الحديث عن علاقات المؤمنين، فقد ذكر يهود بني عوف ويهود بني النجار إلى آخر ما ذكر، وحدد وضعهم في علاقاتهم بالدولة الإسلامية فيما ذكره من شروط. وقد جاء في نصوص الكتاب ما يدل صراحة على أن العلاقة بين اليهود وبين المسلمين وضعت على أساس الاحتكام إلى الإسلام، وعلى أساس جعلها خاضعة لسلطان الإسلام، وعلى أساس تقيد اليهود بما تستلزمه مصلحة الدولة الإسلامية. فقد جاء في نصوص الكتاب عدة نقاط تدل على ذلك منها:

١ ــ وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمد ﷺ.

٢ ــ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٣ ــ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

٤ ــ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

وهكذا حدد كتاب الرسول ﷺ وضع القبائل المجاورة للمدينة من اليهود فشرط عليهم ألا يخرجوا من المدينة إلا بإذن الرسول ﷺ أي بإذن الدولة، وأنه يحرم عليهم انتهاك حرمة المدينة بحرب أو نصرة على حرب، وأنه يحرم عليهم أن يجيروا قريشاً ولا من نصر قريشاً، وأن أي خلاف بينهم على ما ورد في الكتاب يحكم فيه رسول الله ﷺ. وقد وافق على ما في هذا الكتاب ووقعه من اليهود من ذكروا فيه وهم يهود بني عوف، ويهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ولم يشترك في توقيع هذه الصحيفة أو هذا الكتاب من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع. إلا أنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبي صحفاً مثل هذه الصحيفة، وخضعوا لنفس الشروط المذكورة في هذه الصحيفة.

وبتوقيع هذه الصحف ركز الرسول ﷺ العلاقات في الدولة الإسلامية الناشئة على وضع ثابت الأساس، وركز العلاقات بين هذه الدولة وبين القبائل اليهودية المجاورة على أسس واضحة يكون الإسلام فيها الحكم، فاطمأن الرسول ﷺ إلى بناء المجتمع الإسلامي وأمن إلى حد ما غدر جيرانه اليهود ومحاربتهم، وبدأ يعمل لإزالة الحواجز المادية من طريق الدعوة الإسلامية بالتهيئة للقتال.

تهيئة أجـواء القتـال

بعد أن اطمأن النبي ﷺ إلى بناء المجتمع، وبعد أن عقد المعاهدات مع جيرانه اليهود، بدأ يهيئ أجواء الجهاد في المدينة؛ لأن مهمة الدولة الإسلامية هي تطبيق الإسلام كاملاً في جميع البلاد التي تحكمها، وحمل الدعوة الإسلامية خارج حدودها. وحمل الدولة الإسلامية الدعوة إلى الإسلام ليس معناه التبشير بها على طريقة المبشرين، بل هو دعوة النّاس للإسلام، وتثقيفهم بأفكاره وأحكامه، وإزالة كل حاجز مادي يقف حائلاً دون هذه الدعوة بقوة مادية قادرة على إزالته.

وقد كانت قريش حاجزاً مادياً حال دون الدعوة إلى الإسلام، فكان لا بد من إعداد القوة لإزالة هذا الحاجز المادي الذي يحول دون هذه الدعوة، فبدأ يعد القوة والجيش لحمل الدعوة خارج المدينة، وقام في أول الأمر بتنظيمات تعتبر حركات مقصودة، فأرسل خلال أربعة أشهر ثلاث سرايا من المهاجرين يتحدى بها قريشاً، ويرهب بها المنافقين واليهود من سكان المدينة ومن حولها، فقد بعث ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار، فلقي أبا جهل بن هشام على شاطئ البحر من ناحية العيص في ثلاثمائة راكب، وتأهب حمزة لقتاله لولا أن حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني فانصرفوا عن بعضهم ورجع حمزة دون قتال. وبعث الرسول ﷺ عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين دون الأنصار، فلقي عكرمة بن أبي جهل على رأس جمع من

قريش يزيد على مائتين في وادي رابغ، ورمى سعد بن أبي وقاص العدو بسهم ولكن لم يحصل قتال وانسحب الفريقان. ثمّ بعث سعد بن أبي وقاص بعشرين راكباً من المهاجرين نحو مكة، ثمّ رجعوا دون قتال. وبهذه السرايا وجدت في المدينة أجواء القتال ووجدت عند قريش نفسها أجواء الحرب مما بعث فيها الرعب، وجعلها تحسب لرسول الله ﷺ حساباً لم تكن لتحسبه من قبل، ولم تكن تدركه لولا هذه السرايا. ثمّ إنّ النبي ﷺ لم يكتف بذلك، بل خرج بنفسه للقتال. فقد خرج على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة، واستعمل عليها سعد بن عبادة، وسار إلى الأبواء حتى بلغ وَدّان، يريد قريشاً وبني ضَمْرَة. فلم يلتق قريشاً، ووادعته فيها بنو ضمرة. وإنّه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بُواط يريد قافلة يقودها أمية بن خلف، عدتها ألفان وخمسمائة بعير، يحميها مائة محارب، فلم يدركها إذ اتخذت طريقاً غير طريق القوافل (المعبّد) وأنه بعد ثلاثة أشهر من عودته من بُواط من ناحية رَضْوى استعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وخرج في أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العشيرة من بطن ينبع، فأقام بها جُمادى الأولى ولياليَ من جُمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان، ففاتته، وكسب من رحلته هذه أن وادع بني مُدْلِج وحلفاءهم من بني ضمرة. وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشرة ليال حتى أغار كرز بن جابر الفهري من المتصلين بمكة وبقريش على إبل المدينة وأغنامها، فخرج النبي ﷺ في طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثه، وتابع مسيره حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه، وهذه هي بدر الأولى.

وهكذا بدأ ﷺ بجيوشه يتحدى قريشاً ويتجول في الجزيرة يقوم بالغزوات. ومع أنه ﷺ لم يلق حرباً في هذه الغزوات، إلا أنه وصل فيها إلى نتائج عظيمة هيأت لبدء الحروب الكبيرة. فقد هيأ ﷺ بهذه الغزوات الجيش الذي يلقى به العدو؛ إذ نقلت هذه الغزوات المسلمين إلى الاستعداد للقتال. وألقى الرعب بسبب هذه الغزوات في نفوس اليهود والمنافقين في المدينة وما حولها، مما يمنعهم أن تحدثهم نفسهم بالشغب عليه. وكسر نفسية قريش بتحديه إياها. وقوى هيبة المسلمين في نفوس أعدائهم، وأخذ الطرق على قوافل قريش في رحلتها إلى الشام، بعقد المعاهدات والموادعات مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر، مثل بني ضَمْرة وبني مُدْلِج وغيرهم.

بـدء القتـال

استقر ﷺ في المدينة، فأخذ يطبق الإسلام، وصار الوحي ينزل بالتشريع. فأقام صرح الدولة الإسلامية، وبناء المجتمع الإسلامي، على دعائم الإسلام وأنظمته. وآخى بين المسلمين، وحينئذٍ أصبح الإسلام ــ حكماً وشريعة ــ حياً في مجتمع يحتضنه ويحمل دعوته، وازداد المسلمون عدداً وشوكة وقوة ومنعة، وأقبل النّاس على الإسلام فرادى وجماعات، من المشركين واليهود. وبعد أن اطمأن عليه السلام إلى الإسلام، وإلى الدعوة له في المدينة، فكر في الدعوة إلى الإسلام خارج المدينة في جزيرة العرب، ولكنه كان يعلم أن قريشاً تقف حاجزاً منيعاً دون هذه الدعوة وهي حاجز مادي في طريق الإسلام، لم تنفع فيه الدعوة بالحجة والبرهان، وإذن لا بد من قوى مادية لإزالة هذه الحواجز المادية، وأنه عليه الصلاة والسلام إذا كان لم يستطع إزالة هذا الحاجز المادي يوم كان في مكة، لعدم وجود دولة إسلامية تحمل القوة المادية الكافية لدحض تلك القوة، فإنه ــ وقد أسس دولة إسلامية ــ يستطيع أن يعمل لإزالة هذا الحاجز المادي بالقوى المادية، بعد أن تيسرت له هذه القوى. ولذلك فما عليه إلاّ أن يعد هذه القوة، وأن يعد أجواء الحرب، وأن يبدأ سياسة جديدة للدعوة، بعد أن تهيأت أسباب هذه السياسة الجدية ووسائلها.

ولهذا بدأ سراياه ومناوشاته الأولى، التي كان يرسل بعضها، ويذهب مع بعضها الآخر، ليتحدى قريشاً، ويفهمها قوته. وكانت آخر هذه السرايا

سرية عبد الله بن جحش التي كانت مقدمة لغزوة بدر. وحديث هذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث في رجب من السنة الثانية للهجرة، عبد الله بن جحش ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً، وأمره ألاّ ينظر فيه إلاّ بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فإذا فيه «**إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنـزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم**». وأعلم أصحابه بالأمر، وبأنه لا يستكره أحداً منهم، فساروا معه حتى نزلوا نخلة، لم يتخلف منهم أحد سوى سعد بن أبي وقاص الزهري، وعتبة بن غزوان؛ فإنهما قد ضل لهما بعير فذهبا يطلبانه فأسرتهما قريش، وأقام عبد الله بن جحش في نخلة يترصد قريشاً وأثناء مقامه مرت بهم عير لقريش، تحمل تجارة، وكان ذلك في آخر رجب وهو من الأشهر الحرم، فتشاور عبد الله وأصحابه ماذا يصنع بهم، و لم يؤمروا من قبل النبي بشيء، وقال بعضهم لبعض (والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام) وترددوا في قتالهم ولكنهم جزموا أخيراً، فرمى أحد المسلمين رئيس القافلة عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسر المسلمون رجلين من قريش، وأخذوا العير ورجعوا حتى قدموا المدينة، فلما رآهم النبي قال لهم: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

هذه خلاصة سرية عبد الله الذي أرسله الرسول ﷺ ليرصد أخبار قريش، ولكنه قاتلها، وقتل منها، وأسر من رجالها، وأخذ أموالها وفعل ذلك في الشهر الحرام. فماذا يكون موقف الإسلام من عمله هذا؟ فكر رسول الله

ﷺ في ذلك وتوقف عن أخذ الأسيرين والمال، منتظراً حكم الله في ذلك، منتظراً آيات الله تنـزل في هذا الأمر. وانتهزت قريش الفرصة واتخذت من هذا العمل وسيلة للدعاوة ضد محمد ﷺ بين العرب، ونادت في كل مكان، أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وكانت بينهم وبين المسلمين في مكة مجادلات حول ذلك، يهاجمون المسلمين في هذا العمل، ويهاجمون نبيهم وأصحابه، فرد مسلمو مكة بأن إخوانهم المسلمين إنما فعلوا ذلك في شعبان وليس في رجب، ولكن هذا الجواب لم يكن كافياً ليقف في وجه الدعاوة، ودخلت اليهود في هذه الدعاوة، وصارت تشنع على ما فعله عبد الله بن جحش، واشتد الحال على المسلمين من هذه الدعاوة ضدهم، والرسول عليه السلام ساكت ينتظر الوحي وينتظر حكم الله في هذا العمل، وإذ ذاك نزل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ ولما نزلت هذه الآية، سري عن المسلمين، وأخذ النبي العير والأسيرين. وكان في هذه الآيات ردّ مفحم على دعاوة قريش؛ فالقرآن الكريم يجيب قريشاً عن تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام بأنه إثم كبير، ولكن الصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، والقتل فيه. وما فعلته قريش وتفعله من فتنة المسلمين عن دينهم، بالوعد والوعيد، والإغراء والتعذيب، أكبر من القتل والقتال في الشهر الحرام، وفي غير الشهر الحرام. وإنّ قريشاً هذه التي تحاول الإرجاف والدعاوة ضد المسلمين، لقتالهم في الشهر الحرام، لا يزالون

يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. وإذن فقتال المسلمين لقريش في الشهر الحرام ليس فيه شيء ضدهم؛ لأن قريشاً التي ترتكب هذه الكبائر من الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، والصد عن سبيل الله، والكفر بالله، وإخراج أهل المسجد الحرام منه، وفتنة المسلمين عن دينهم، إن قريشاً هذه، جديرة أن تقاتل في الشهر الحرام، وفي غير الشهر الحرام. وإذن فقتال عبد الله بن جحش في الشهر الحرام ليس فيه ما يضيره، ولا ما يضير المسلمين.

وبهذا كانت سرية عبد الله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، وسياسة الدعوة إلى الإسلام، فيها رمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي رئيس القافلة فقتله، فكان أول دم أراقه المسلمون في سبيل الله.

وقد ظل القتال في الأشهر الحرم ممنوعاً إلى أن نزلت آيات القتال التي تأمر بالقتال في كل زمان ومكان، فنسخ منع القتال في الأشهر الحرم بعموم آيات القتال.

الحيـاة في المدينة

للإسلام طريقة معينة في الحياة تنتج عن مجموع مفاهيمه عن الحياة، وهذه هي الحضارة الإسلامية وهي غير حضارات الدنيا، وتتناقض مع غيرها من الحضارات، وتحمل طريقة الإسلام في الحياة بثلاثة أمور: أحدها إن الأساس الذي بنيت عليه هو العقيدة الإسلامية. وثانيها إن مقياس الأعمال في الحياة هو أوامر الله ونواهيه، وبعبارة أخرى، إن تصوير الحياة في نظرها هو الحلال والحرام، وثالثها أن معنى السعادة في نظرها هو نوال رضوان الله. وبعبارة أخرى هو الطمأنينة الدائمة، وهي لا تحصل إلاّ بنوال رضوان الله. هذه هي طريقة الإسلام في الحياة، وهذه هي الحياة التي يأنس فيها المسلمون ويسعون إليها ويسيرون في منهجها. ولأجل أن يتمكنوا من هذه الحياة لا بد أن تكون لهم دولة تطبق الإسلام وتنفذ أحكامه، والمسلمون حين انتقلوا للمدينة بدأوا يعيشون على طراز معين من الحياة، أساسها العقيدة الإسلامية. وبدأت الآيات الكريمة تنزل مبينة حكم الله في المعاملات والعقوبات، وتنـزل فيما لم ينـزل بعد من العبادات. فقد فرضت الزكاة، وفرض الصيام في السنة الثانية من الهجرة (وشرع الأذان) وصار أهل المدينة جميعاً يسمعون كل يوم خمس مرات دعوة النّاس للصلاة، مرتلة ترتيلاً حسناً بصوت رطب جميل، يوجهها بلال بن رباح مع كل ريح إلى كل النواحي، فيلبي المسلمون النداء للصلاة. وما أن مكث الرسول في المدينة سبعة عشر شهراً حتى تحولت القبلة إلى الكعبة. وهكذا صارت تنـزل آيات الأحكام

تترى في العبادات والمطعومات، والأخلاق، والمعاملات، والعقوبات، فنـزلت آيات تحريم الخمر، ولحم الخنـزير، كما نزلت آيات الحدود، والجنايات، والبيع، وتحريم الربا، وغير ذلك، وتتابع نزول آيات الأحكام تعالج مشاكل الحياة، والرسول ﷺ يفصلها ويبينها، ويقضي مصالح النّاس، ويفصل خصوماتهم، ويدبر شؤونهم، ويدير أمورهم، ويعالج مشاكلهم، بأقواله في التحدث إليهم، وبأفعاله التي يقوم بها، وبسكوته عما يقع أمامه من أعمال، لأنّ قوله وفعله وسكوته شريعة، لأنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى. وسارت الحياة في المدينة في طريقتها وحسب وجهة نظر معينة، هي وجهة نظر الإسلام، ووجد المجتمع الإسلامي المتميز في كل شيء الذي تسوده الأفكار الإسلامية، والمشاعر الإسلامية، وتطبق فيه أنظمة الإسلام على النّاس في معاملاتهم وسائر علاقاتهم، وقد طاب الرسول ﷺ نفساً بما وصلت إليه الدعوة، وسكن المسلمون إلى دينهم، وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين، ويقيمونها فرادى، لا يخافون أذىً، ولا يخشون فتنة، وطفقوا يعالجون أمورهم بأحكام الله، ويرجعون فيما لم يعرفوه إلى رسول الله. ولا يقومون بعمل صغير أو كبير إلاّ حسب أوامر الله، وينتهون عن كل ما نهى الله، وشعروا بالسعادة، فصارت نفوسهم مطمئنة. وكان الكثير منهم يلازمون رسول الله ﷺ ليتعلموا أحكام الله، ويحفظوا آيات الله ويتلقوا عنه القرآن، ويتثقفوا على يديه، وأخذ الإسلام يزداد انتشاراً، والمسلمون يزدادون كل يوم قوة ومنعة.

جـدال اليهـود والنصـارى

أصبح غير المسلمين يشعرون بقوة المسلمين، ويشعرون بأن هذه القوة هي قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية في سبيل الإسلام، وذاقت الأذى بسببه ألواناً، وكانت لا تنتظر عند الصباح مساء ولا عند المساء صباحاً، وها هي ذي اليوم تستمتع برؤية الدين يعلن أمره، وتنفذ أحكامه، وتعلو كلمته، وتستمتع بالسعادة. غير أن أعداء الإسلام ساءهم ذلك، وظهرت آثار هذا على جيرانهم اليهود، فقد بدأت مخاوفهم وأخذوا يفكرون من جديد في موقفهم من محمد وأصحابه بعد أن رأوا ازدياد المسلمين في المدينة شوكة وقوة، وازدياد إقبال النّاس على الإسلام، وزادهم غيظاً إقبال بعض اليهود على الإسلام، وخافوا أن يمتد الإسلام إلى صفوفهم، وأن يفشو في جماهيرهم. ولذلك بدأوا يهاجمون الإسلام، عقائده وأحكامه، وبدأت حرب جدل بين المسلمين واليهود أشد لدداً وأكبر مكراً من حرب الجدل التي كانت بينهم وبين قريش بمكة، وفي هذه الحرب الفكرية كانت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين سلاحاً بيد اليهود يهاجمون به محمداً ﷺ ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار، فقد دسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه، ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى، ثمّ ما يلبث بعد حين أن يبدي من الشكوك والريب، ويلقي على محمد ﷺ من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم به، وبرسالة الحق التي يدعو إليها.

وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقاً أيضاً ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين. وبلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حداً كان يصل أحياناً إلى الاعتداء بالأيدي مع ما كان بينهم من عهد، ويكفي لتصوير تعنت اليهود وشدة خصومتهم في الجدل أنهم أخرجوا أبا بكر عن حلمه وهدوئه، مع ما كان عليه من دماثة الخلق، وطول الأناة، ولين الطباع. فقد رُوي أنه تحدث إلى يهودي يدعى فنحاص يدعوه إلى الإسلام فرد فنحاص بقوله: (والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنياً ما استقرضَنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، وينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا). وفنحاص يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾، لكن أبا بكر لم يطق على هذا الجواب صبراً، فغضب وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: (والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله). وهكذا اشتد الجدل بين المسلمين واليهود وأخذ أدواراً متعددة. وفي هذا الوقت وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكباً، ولعل هذا الوفد إنّما جاء إلى المدينة حين علم بما بين المسلمين واليهود من خلاف طمعاً في أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ العداوة، وبذلك تنتشر النصرانية ويزول الدين القديم والدين الجديد اللذان يزاحمان النصرانية على زعمهم، وقد اتصل هذا الوفد بالنبي ﷺ، وباليهود، وكان النبي ينظر إليهم وإلى اليهود بأنهم أهل كتاب فيدعوهم جميعاً للإسلام، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـًٔا

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. ويسأله اليهود والنصارى عمن يؤمن بهم من الرسل، فيتلو عليهم قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾، فلا يجدون ما يقولونه له وتدفع الحجة نفوسهم ويظهر الحق، لكنهم لم يؤمنوا حرصاً على مكانتهم، حتى إن بعضهم صرح بذلك. فقد روي أن أبا حارثة وكان من وفد نجران، وكان أكثر نصارى نجران علماً ومعرفة قد أدلى إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد ﷺ، فلما سأله رفيقه فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ كان جوابه: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلاّ خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى. مما يدل على أن عدم إيمانهم كان مكابرة وتعنتاً. ثمّ إن الرسول ﷺ دعا النصارى إلى المباهلة وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، فتشاوروا ثمّ أعلنوا أنهم رأوا ألا يباهلوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم، ولكنهم طلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من أموالهم، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ليقضي بينهم بالإسلام فيما اختلفوا فيه.

وهكذا قضت قوة الدعوة الإسلامية، وقوة الفكر الإسلامي، والحجة البالغة التي ظهرت على جميع المجادلات الكلامية التي أثارها

اليهـود والمنافقـون والنصـارى، واختفت تلك الأفكار غير الإسلامية جميعـها، ولم يبق إلاّ الإسلام يناقش في فهم أحكامه، وفي الدعوة إليه، فتركز الإسـلام ونشر لواؤه من ناحية الفكر ومن ناحية الحكم. إلاّ أن نفـوس المنافقـين واليهود ظلت منطـوية على كراهية المسـلمين، وظلت تحـمل الحقـد عليهم والبغـض لهم، غير أن تركـز سـلطـان الإسـلام في المدينة، وتركـز المجـتمـع فيها طـغى على كل شيء. وكان للـسـرايا المتلاحقة وللقوة التي ظهرت أثر في إسكات هذه النفوس المريضة، فعلت كلمة الله واضطر خصوم الإسلام في المدينة وما حولها لأنّ يلزموا جانب الصمت ويخضعوا لسلطان المسلمين.

غـزوة بـدر

خرج النبي عليه الصلاة السلام في أصحابه من المدينة لثمانٍ خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس، واستعمل على المدينة أبا لبابة، وكانوا ثلاثمائة وخمسة رجال معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً. وانطلقوا يريدون قافلة أبي سفيان، وظلوا سائرين يتنطسون أخبار القافلة حتى أتوا وادياً يقال له ذَفِران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم. وحينئذٍ تغير وجه الأمر، وأصبح الموضوع لقاء قريش أو عدم لقائهم، وليس موضوع قافلة أبي سفيان. فاستشار الرسول ﷺ المسلمين وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش، فأدلى أبو أبكر وعمر برأيهما، ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: (يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه). وسكت المسلمون. فقال الرسول ﷺ: «**أشيروا علي أيها النّاس**». وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، وكان يتخوف أن لا يكون الأنصار يرون عليهم نصره إلاّ ممن دهمه بالمدينة من عدوه. فلما أحس الأنصار أنه يريدهم، وكان سعد بن معاذ صاحب رايته، التفت إلى رسول

الله ﷺ وقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: «**أجل**». قال سعد: (فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله) و لم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجهه ﷺ بالمسرة، وقال: «**سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**»، وارتحلوا جميعاً، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر عرفوا أن عير قريش قريبة منهم، فبعث الرسول علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من الصحابة إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، وعادوا ومعهم غلامان عرف منهما ما يدل على أن عدد قريش بين التسعمائة والألف، وأن أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعه، فعرف أنه أمام قوم يزيدون عليه في العدد ثلاثة أضعاف، وأنه ينتظر معركة حامية الوطيس. فأخبر المسلمين بأن مكة ألقت إليهم أفلاذ كبدها، ولا بد أن يوطدوا أنفسهم على الشدة. وأجمع المسلمون أن يثبتوا للعدو، وأقاموا بماء بدر وبنوا حوضاً وملأوه ماء، عطلوا ما وراءه من الآبار ليشربوا هم ولا يشرب عدوهم، وبنوا للرسول ﷺ عريشاً يقيم فيه. وأما قريش فنزلت منازل القتال في مواجهة المسلمين. ثمّ بدأت مناوشات القتال، فقد اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوه، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط على ظهره تشخب رجله دماً، ثمّ اتبعه حمزة بضربة

أخرى قضت عليه في الحوض، فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، فلم يمهل حمزة شيبة ولا أمهل علي الوليد أن قتلاهما ثمّ أعانا عبيدة وقد ثَبَتَ له عتبة، ثمّ تزاحف النّاس والتقى الجمعان صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وقام الرسول على رأس المسلمين يعدل صفوفهم ويحرضهم على القتال، فازداد المسلمون قوة بتحريض الرسول ﷺ إياهم ووقوفه بينهم، فاندفع المسلمون وثار النقع، وامتلأ الجو وحمي وطيس المعركة، وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون: أحد، أحد، ووقف الرسول وسط المعمعة وأخذ حفنة من الحصباء ورمى بها قريشاً وقال: «**شاهت الوجوه**»، وقال لأصحابه: «**شدوا**»، وشد المسلمون إلى أن انجلت المعركة عن نصر المسلمين، وفرت قريش وقتل منها من قتل وأسر من أسر، وكان نصراً مؤزراً للمسلمين وعادوا إلى المدينة وقد ازدادت قوتهم.

إجـلاء بني قَـيْـنُـقـاع

كان اليهود قد بدأ تذمرهم قبل بدر، فلما انتصر المسلمون في بدر ازداد تذمرهم وازداد حقدهم، وصاروا يأتمرون بالمسلمين ويتغامزون عليهم، ونقضوا عهدهم مع المسلمين حينئذٍ، فاشتد عليهم المسلمون وصاروا يضربونهم كلّما بدرت منهم بادرة. فتخوف اليهود من بطش المسلمين، ولكنهم بدل أن يرتدعوا ازدادوا أذى، ومن أذاهم أنه قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية، وجلست إلى صائغ منهم بها، فجاء يهودي من خلفها في سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فهاجموهم ووقع النـزاع بين المسلمين واليهود. وقد طلب الرسول ﷺ من اليهود أن يكفوا الأذى فاظهروا التنمر. فخرج الرسول ﷺ مع المسلمين وحاصروا بني قينقاع محاصرة شديدة، وقرر الرسول ﷺ بعد مشورة كبار المسلمين قتلهم جميعا، فقام إليه عبد الله بن أُبيّ بن سَلول، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً. فقال: يا محمّد أحسِنْ في مواليّ، فأبطأ عليه النبي، فكرر الطلب فأعرض النبي عنه فألح إلحاحاً شديداً، فرأى النبي أن يسدي إليه هذه اليد حتى يصبح مديناً لإحسانه ورحمته، فأجاب طلبه وقرر عدم قتل بني قينقاع، على أن يجلوا عن المدينة جزاء لهم على صنيعهم، فأذعنوا وجلوا عن المدينة صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات الشام.

القضـاء على الاضطـرابـات الـداخلية

دخل المسلمون في الحرب مع قريش، واشتبكوا معهم في أول معركة وهي معركة بدر، فانتصر بها المسلمون انتصاراً مؤزراً، وكان من أثر هذا النصر زلزلة قريش زلزلة كبرى أطارت صوابها، وتطهير المدينة من وساوس اليهود وفتنتها، وإجلاء بعضهم ومهادنة بعضهم الآخر، وازدياد قوة المسلمين ومنعتهم. إلاّ أن قريشاً لم يهدأ لها بال، فمنذ بدر وهي تعد العدة لغزو المسلمين والانتقام منهم، وليكون لها يوم بيوم بدر، فكانت موقعة أحد، وانتصرت فيها قريش بسبب مخالفة الرماة لأوامر القيادة. وانكسر فيها المسلمون. وعادت قريش ممتلئة النفس غبطة وسروراً بما زال عنها من عار بدر، ورجع المسلمون إلى المدينة مهزومين، وكانت تظهر عليهم آثار الهزيمة، رغم مطاردتهم للعدو بعد المعركة حتى حمراء الأسد. وكان من جراء انكسار المسلمين، أن تنكر لهم الكثير ممن في المدينة، كما تنكرت لهم بعض قبائل العرب. فإن اليهود والمنافقين في المدينة كانوا بعد بدر وشدة المسلمين معهم قد خضعوا لسلطان المسلمين ودانوا لهم، وكذلك كانت قبائل العرب خارج المدينة، قد داخل نفوسها الرعب من قوة المسلمين، ولكن كل ذلك تغير بعد أحد، فالعرب الذين يقطنون خارج المدينة صاروا يفكرون في معارضة محمد ومناوأته، واليهود في المدينة والمنافقون أيضاً صاروا يتحرشون بالمسلمين ويناوئونهم، لذلك كله حرص رسول الله ﷺ على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار القبائل العربية خارجها، على ما يمكنه من استعادة مكانة

المسلمين وهيبتهم في النفوس، وأخذ يعمل جاهداً لإزالة آثار هذه الهزيمة، بالبطش في كل من تحدثه نفسه باستصغار المسلمين، أو النيل منهم.

فقد بلغه بعد شهر من أحد، أن بني أسد يريدون مهاجمة المدينة، ليغنموا من غنم المسلمين التي ترعى حول المدينة، فأراد أن يهاجمهم في عقر دارهم قبل أن يهاجموه، ولذلك دعا إليه أبا سلمة بن عبد الأسد، وعقد له لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين، فيهم من خيرة أبطال المسلمين عدد كبير، وكان من بينهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير، وغيرهم وأمرهم بأن يسيروا ليلاً، وأن يستخفوا نهاراً، وأن يسلكوا الطريق غير المطروق، حتى لا يطلع أحد على خبرهم، ليفاجئوا العدو على غرة منه، وسار أبو سلمة حتى جاء بني أسد، وأحاط بهم في عماية الصبح، وحمل عليهم وحض رجاله على الجهاد فأوقعوا بهم حتى هزموهم وانتصروا عليهم وأخذوا أموالهم غنائم ورجعوا إلى المدينة ظافرين، وقد أعادوا إلى النفوس هيبة المسلمين وسطوتهم.

ثمّ بلغ الرسولَ ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلي مقيم بعرنة أو نخلة يجمع النّاس ليغزو المدينة، فدعا إليه عبد الله بن أنيس وبعثه يتجسس حتى يقف على جلية الخبر، فسار عبد الله والتقى بخالد، فسأله من الرجل؟ فقال عبد الله: أنا رجل من العرب سمع بجمعك لمحمد فجاءك لذلك، فلم يخف خالد أنه يجمع الجموع ليغزو المدينة، فما كان من عبد الله إلاّ أن اغتنم فرصة عزلته عن النّاس، فاستدرجه في السير حتى إذا مكنته الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله، وعاد إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ الخبر. وبقتله هدأت بنو لحيان من هذيل، وأمن الرسول ﷺ شر غزوه وجمعه العرب لقتاله.

وهكذا عالج القبائل العربية خارج المدينة. إلاّ أن هذه المعالجة وإن كانت أفادت في منع العرب من مهاجمة المدينة، إلاّ أنها لم تقض على استهانة العرب بسلطان المسلمين بعد أحد، فقد وفد على الرسول ﷺ رهط من قبيلة تجاور هذيلاً، وقالوا له إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين ويقرؤونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام، فبعث معهم ستة من أصحابه، وساروا معهم حتى بلغوا ماء لهذيل بناحية تدعى الرجيع، فغدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً، وفوجيء المسلمون الستة بالرجال في أيديهم السيوف يغشونهم، فأخذ المسلمون سيوفهم، فقاتلوا حتى قتل ثلاثة منهم واستسلم ثلاثة فأخذتهم هذيل أسرى، وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها، وبينما هم في الطريق اغتنم أحد الثلاثة وهو عبد الله بن طارق فرصة غفلة القوم، وانتزع يده من غل الأسر وأخذ سيفه ليقاتل، ولكنهم لم يمكنوه بل قتلوه، وأخذوا الأسيرين وباعوهما من أهل مكة. أما أحدهما وهو زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، فلما قدم زيد ليقتل سأله أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنّي جالس في أهلي. فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيت من النّاس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثمّ قتل زيد. وأما الثاني وهو خبيب فقد حبس حتى خرجوا به ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، فسمحوا له حتى صلى ركعتين وأتمهما وأحسنهما، ثمّ أقبل عليهم وقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنّما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، فرفعوه على خشبة. فلما أوثقوه إليها نظر إليهم بعين مغضبة

وصاح (اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً) فارتجفوا من صيحته ثمّ قتلوه. فحزن الرسول ﷺ على هؤلاء الستة، وحزن المسلمون عليهم، وزاد في حزنهم استهانة هذيل بالمسلمين واستخفافهم بشأنهم، ففكر عليه السلام بهذا الأمر كثيراً، وأثناء تفكيره بذلك قدم عليه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، فعرض الرسول ﷺ عليه الإسلام فلم يقبل ولكنه لم يظهر عداوة للإسلام وقال للرسول: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، ولكن الرسول خاف على أصحابه من أهل نجد أن يغدروا بهم كما غدرت هذيل، فلم يجب طلب أبي براء. لكن أبا براء أقنعه حين أجار الذين يذهبون للدعوة، وقال للرسول ﷺ: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا النّاس إلى أمرك، وكان أبو براء رجلاً مسموع الكلمة، لا يخاف على من يجيره أن يغدر به أحد. فبعث حينئذٍ رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً من خيار المسلمين، وساروا حتى نزلوا ببئر معونة، ومن هناك بعثوا إلى عامر بن الطفيل بكتاب مع رسول منهم، فلم ينظر عامر في الكتاب، بل قتل الرسول واستصرخ عليهم بني عامر كي يقتلوا المسلمين، فأبوا عليه ذلك، ووفوا بذمتهم، وبجوار أبي براء، ولكن عامراً استصرخ عليهم قبائل أخرى، وأحاط بالمسلمين وهم في رحالهم، فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، ولم ينج منهم سوى رجلين اثنين، فحزن رسول الله ﷺ والمسلمون على هؤلاء الشهداء، وتأثروا لذلك أشد التأثر. ففكر رسول الله ﷺ بذلك وبالطريقة التي يعالج بها هؤلاء العرب لإعادة هيبة المسلمين في نفوسهم، ولكنه وقد رأى أن هذه الأعمال أثرت في داخل المدينة، رأى

أن يعالج الأحوال الداخلية أولاً، ثمّ بعد أن يطمئن إلى معالجتها يعالج شؤون العرب والأمور الخارجية. أما ما حصل في الداخل فإن المنافقين واليهود قد أضعفت أحد، وحوادث الرجيع، وبئر معونة، هيبة المسلمين في نفوسهم، وصاروا يتربصون بالرسول ﷺ الدوائر، وكشف الرسول ﷺ نياتهم باستدراجهم حتى ظهرت مؤامرتهم ضده، فبعث محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «**اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، فقد أجلتكم عشراً فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه**». وكاد بنو النضير يخرجون لولا أن حرضهم عبد الله بن أبي على البقاء، وشجعهم حيي بن أخطب على أن يبقوا في حصونهم. وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فقاتلهم الرسول ﷺ حتى ضيق عليهم، فسألوه أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا. فصالحهم الرسول ﷺ على أن يخرجوا منها، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاؤوا من طعام وشراب، ليس لهم غيره. فخرجوا وتركوا وراءهم جميع ما يملكون من أراض ونخيل وغلال وسلاح غنائم للمسلمين، وزعها رسول الله ﷺ على المهاجرين، فقط ولم يعط الأنصار شيئاً سوى رجلين اثنين هما أبو دجانة وسهل بن حنيف؛ لأنهما كان فقيرين كالمهاجرين.

وبإجلاء بني النضير وتأديبهم حسم الرسول أمر السياسة الداخلية، وعادت هيبة المسلمين. فالتفت إلى السياسة الخارجية، فكان أن تحدى قريشاً في غزوة بدر الآخرة، فلم تجرؤ على مقابلته. وذلك حين استدار العام منذ أحد، ذكر الرسول ﷺ قولة أبي سفيان (يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل)

وذكر ضرورة مقابلة أبي سفيان فجهز المسلمين، واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن سلول، وسار بالمسلمين حتى نزلوا بدراً ينتظرون قريشاً، مستعدين لقتالها، وخرجت قريش مع أبي سفيان من مكة في أكثر من ألفي رجل، ولكنه ما لبث أن رجع ورجع النّاس معه، وأقام الرسول ﷺ في بدر ثمانية أيام متتابعة، ينتظر قريشاً، فلم تأت وبلغه نبأ رجوعها، فعاد بالمسلمين بعد أن ربحوا في تجارتهم أثناء إقامتهم في بدر، وعادوا منصورين وان لم يقاتلوا، ثمّ حمل الرسول ﷺ على غطفان بنجد، ففروا من وجهه وتركوا أموالهم ونساءهم فغنمها المسلمون وعادوا للمدينة، ثمّ خرج إلى دومة الجندل على الحدود ما بين الحجاز والشام ليؤدب القبائل التي كانت تغير على القوافل، ولكنها لم تقابله وأخذها الفزع وولت من وجهه، وتركت أموالها فأخذها المسلمون وعادوا ظافرين.

وبهذه الغزوات الخارجية، والتأديبات الداخلية في المدينة، استطاع الرسول ﷺ أن يعيد هيبة الدولة الإسلامية إلى نفوس العرب واليهود، وأن يمحو آثار هزيمة أحد محواً تاماً.

غـزوة الأحـزاب

كان للغزوات والتأديبات التي قام بها رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد أثر كبير في نشر هيبة المسلمين، وفي تركيز الدولة الإسلامية، فقد اتسع بها نفوذ المسلمين، وعظم سلطانهم، وخافتهم شبه الجزيرة، وصار العرب حين يسمعون باسم الرسول ﷺ يغزوهم يأخذهم الفزع ويولون مدبرين، كما حصل في غطفان، ودومة الجندل. وصارت قريش تجبن عن لقاء المسلمين كما حصل في بدر الآخرة، وهذا كله جعل المسلمين يركنون إلى شيء من الطمأنينة إلى الحياة في المدينة، ويأخذون في تنظيم عيشهم على ضوء الوضع الجديد الذي صار للمهاجرين بعد غنائم بني النضير، وتوزيع الأراضي والنخيل والمساكن والأثاث عليهم، غير أن هذا لم يجعلهم يركنون إلى الحياة ركوناً يصرفهم عن مواصلة الجهاد، لأن الجهاد فرض إلى قيام الساعة، وإنّما صاروا في حال من العيش أحسن من قبل، وفي حالة من الاستقرار أكثر أماناً من قبل، وكان الرسول ﷺ على طمأنينته حذراً دائماً غدرة العدو، باثاً دائماً عيونه وأرصاده في أنحاء شبه الجزيرة، ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأتمرون به ما يمهد له فرصة الأهبة لملاقاة العدو وهو على علم بخططه وأساليبه، وعلى استعداد لمواجهته، لا سيما وأعداء المسلمين أصبحوا كثيرين في الجزيرة، بعد أن أصبح له سلطان مرهوب الجانب من جميع العرب، وبعد أن أجلى يهود بني قينقاع ويهود بني النضير عن المدينة، وضرب قبائل العرب كغطفان وهذيل وغيرها ضربات قاصمة، ولذلك ظل الرسول ﷺ حذراً يتتبع أخبار العرب إلى أن بلغه تجمع قريش وبعض القبائل لغزو

المدينة، فأخذ يستعد للقائهم. ذلك أن بني النضير بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، اختمرت في نفوسهم فكرة تأليب العرب على الرسول ﷺ، ليأخذوا بالثأر منه، وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر من يهود بني النضير، ومن بينهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق ومعهم من بني وائل هوذة بن قيس وأبو عمار حتى قدموا على قريش مكة، فسأل أهلها حييا عن قومه فقال تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه، وسألوه عن قريظة فقال: أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم. وترددت قريش أتقدم أم تحجم فليس بينها وبين محمد خلاف إلاّ على الدعوة التي يدعو إلى الله. أليس من الممكن أن يكون على حق؟ ولذلك قالت قريش لليهود: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وكان اليهود أهل توحيد وكانوا يعلمون أن دين محمد هو الحق، ولكن حرصهم على تأليب العرب جعلهم يتورطون في هذا الخطأ الفاحش، وهذه السبة الأبدية، أن يصرحوا بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد، ولكنهم فعلوها ويفعلون أمثالها. وبعد أن اطمأنوا إلى اقتناع قريش برأيهم خرجوا إلى غطفان من قيس عيلان وإلى بني مرة وإلى بني فزارة وإلى أشجع وإلى سليم وإلى بني سعد وإلى أسد وإلى كل من لهم عند المسلمين ثأر، وما زالوا بهم يحرضونهم على الأخذ بثأرهم، ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد، ويحمدون لهم وثنيتهم، ويعدونهم النصر. وهكذا استطاعوا أن يؤلبوا العرب على حرب الرسول ﷺ. فاجتمع عدد من قبائل العرب وخرجوا مع قريش لغزو المدينة.

خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان في أربعة آلاف مجند، وثلاثمائة جواد، وخمسمائة وألف ممتط بعيره. وخرجت غطفان، وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة في رجال كثيرين، وألف بعير. وخرجت أشجع في أربعمائة محارب، وعلى رأسها مسعر بن رخيلة، وخرجت مرة في أربعمائة محارب، يتزعمها الحارث بن عوف، وجاءت سليم وأصحاب بئر معونة في سبعمائة رجل، واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنو سعد وبنو أسد فصاروا في عشرة آلاف أو نحوها، وساروا جميعاً تحت إمرة أبي سفيان قاصدين المدينة. ولما اتصل نبأ هذه الجموع بالرسول ﷺ قرر التحصن بالمدينة، وأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة والتحصن بداخلها، فحفر الخندق، وعمل فيه النبي ﷺ بيديه، فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد، فتم حفر الخندق في ستة أيام، وحصنت جدران المنازل التي تواجه العدو، وأخليت المساكن التي ظلت وراء الخندق، وجيء بالنساء والأطفال إلى المنازل التي حصنت، وخرج الرسول ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعل ظهره إلى هضبة سلع، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه، وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء.

وأقبلت قريش وأحزابها، وهي ترجو أن تلقى محمداً بأحد فلم تجده عنده، فجاوزته إلى المدينة ففاجأها الخندق، فدهشت لأنّها لا تعرف هذا النوع من وسائل الدفاع، وعسكرت قريش والأحزاب خارج المدينة وراء الخندق. وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام الخندق طويلاً دون أن يستطيعوا اقتحام الخندق، وكان الوقت شتاء، والرياح عاصفة، والبرد قارساً، فأخذ يدب إليهم الوهن وأخذوا يفضلون أن يعودوا أدراجهم.

وكان حيي بن أخطب قد لاحظ ذلك عليهم، فتحدث إليهم أنه يقنع بني قريظة بنقض عهد موادعتهم محمداً والمسلمين، وبالانضمام إليهم، وأن قريظة متى فعلت ذلك انقطع المدد عن المسلمين، وفتحت الطريق لدخول المدينة، فسرت قريش وغطفان بذلك، وسارع حيي إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة، فلما أحس به كعب أغلق دونه باب حصنه، غير أن حيياً ما زال به حتى فتح له باب الحصن فقال له (ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على قادتها وسادتها... قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. وتردد كعب، وذكر وفاء محمد وصدقه لعهده، وخشي مغبة ما يدعوه إليه. لكن حيياً ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد، ويصف له قوة الأحزاب، حتى لان كعب وقبل ما طلب حيي، ونقض عهده مع محمد والمسلمين، وانضمت قريظة إلى الأحزاب دون أن يخبر الرسول ﷺ بذلك. فاتصل هذا النبأ بالرسول عليه السلام وبأصحابه فاهتزوا له، وخافوا مغبته، فبعث الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ليقفوا على جلية الأمر، وأوصاهم إذا كانت قريظة قد نقضت العهد أن يكتموا ذلك، حتى لا يفت في أعضاد النّاس، وأن يكتفوا بالإشارة إليه والتعريض به. فلما أتى هؤلاء الرسل أَلَفْوا قريظة على أخبث ما بلغهم عنهم، فلما حاولوا ردهم إلى عهدهم طلب كعب إليهم أن يردوا إخوانهم يهود بني النضير إلى ديارهم، وأراد سعد بن معاذ، وكان حليف قريظة، أن يقنعها فصاروا يقعون في محمد عليه السلام، ويقول كعب من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فرجع الرسل وأخبروا بما رأوا فاشتد

الخوف. وأخذت الأحزاب تعد نفسها للقتال. أما قريظة فإنها استمهلت الأحزاب عشرة أيام تعد فيها عدتها، على أن تقاتل الأحزاب المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال، وذلك ما فعلوا، فقد ألفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبي فأتت كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي، وأتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب، ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق، وبلغ الفزع بالمسلمين مبلغاً عظيماً، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، واشتد ساعد الأحزاب، وظهرت قوتهم، وارتفعت نفوسهم، فهاجموا الخندق واقتحموه، فقد اندفع بعض فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، ورأوا مكاناً ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته؛ وجالت بين سلع والخندق. فخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين، فأخذوا عليهم الثغرة التي اقتحمت منها خيلهم، وتقدم عمرو بن عبد وُدّ ينادي من يبارز. ولما دعاه علي بن أبي طالب إلى النـزال قال في صلف: لِمَ يا ابن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك. قال علي عليه السلام: لكني والله أحب أن أقتلك، فتنازلا فقتله علي وفرت خيل الأحزاب منهزمة حتى اقتحمت الخندق من جديد مولية الأدبار لا تلوي على شيء. لكن ذلك لم يوهن من نفوس الأحزاب، بل أعظمت نيرانها مبالغة في تخويف المسلمين، وبدأ المتحمسون من قريظة ينـزلون من حصونهم إلى منازل المدينة القريبة منهم، يريدون إرهاب أهلها. فاشتد الكرب وعظم الهول وعم الفزع، وكان الرسول ﷺ على أعظم الثقة بنصر الله له، فجاء نُعَيْمُ بن مسعود وكان قد أسلم، وعرض على رسول الله ﷺ أن يقوم بما يثبط الكفّار، وذهب بأمر الرسول إلى بني قريظة وكانوا لا يعرفون أنه أسلم، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فذكرهم بما بينه وبينهم من

مودة، ثمّ ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد، وقريش وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلاً فترتحلا فتخليا ما بينهم وبين محمد فينكل بهم، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رُهُناً يكونون بأيديهم، حتى لا تتنحى قريش وغطفان عنهم، واقتنعت قريظة بما قال. ثمّ إنه ذهب إلى قريش فأسرّ لهم أن قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد، وأنهم عاملون لاسترضائه وكسب مودته بأن يقدموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم، ولذلك نصح لهم إن بعثت إليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً. وصنع نعيم مع غطفان ما صنع مع قريش، ودبت الشبهة في نفوس العرب من اليهود، فأرسل أبو سفيان إلى كعب يخبره: أن طالت إقامتنا وحصارنا لهذا الرجل، وقد رأيت أن تعمدوا إليه في الغداة ونحن من ورائكم، فأجاب كعب أن غداً السبت وإنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت، فغضب أبو سفيان وصدق حديث نعيم، وأعاد الرسول إلى قريظة يقول لهم: اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت فإنّه لا بد من قتال محمد غداً، وإن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأنّ من حلفكم، ولنبدأنّ بكم قبل محمد، فلما سمعت قريظة كلام أبي سفيان كررت أنّها لا تتعدى السبت، ثمّ أشاروا إلى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم. فلما سمع ذلك أبو سفيان لم يبق لديه في كلام نعيم ريبة. وبات يفكر ماذا يصنع، وتحدث إلى غطفان فإذا هي تتردد في الإقدام على قتال محمد. فلما كان الليل أرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً، ورعداً قاصفاً، ومطراً غزيراً، فاقتلعت الخيام، وكفأت القدور، وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخيل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبروا إليهم ويوقعوا فيهم، فقام طليحة فنادى أن محمداً قد بدأكم بشر فالنجاة النجاة. وقال أبو سفيان يا

معشر قريش ارتحلوا فإني مرتحل، فاستخف القوم ما استطاعوا حمله وفروا، وتبعتهم غطفان والأحزاب، وأصبح الصبح ولم يبق منهم أحد، فلما رأى الرسول ﷺ ذلك انصرف راجعاً إلى منازل المدينة والمسلمون معه وكفى الله المؤمنين القتال.

غير أن الرسول ﷺ وقد استراح من قريش وكفاه الله قتالها، رأى أنه لا بد أن ينهي أمر بني قريظة امتثالاً لأمر ربه سبحانه، وقد نقضوا عهدهم معه وتآمروا على القضاء على المسلمين، لذلك أمر عليه السلام مؤذناً فأذن في النّاس: «**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلاّ ببني قريظة**»، وقدم علياً برايته إليها، وخف المسلمون للقتال فرحين مسرورين وراء علي رضي الله عنه حتى أتوا بني قريظة وحاصروهم حصاراً شديداً ظل مدّة خمس وعشرين ليلة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ وفاوضوه ثمّ نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فنفذ الحكم وقضي على هذه القبيلة وطهرت المدينة منها.

وبهزيمة الأحزاب انتهت آخر محاولة جدية قامت بها قريش لمواجهة الرسول ﷺ وحربه، وبالقضاء على بني قريظة قضي على القبائل اليهودية الثلاث التي كانت حول المدينة وعاهدته ونقضت عهودها؛ فاستتب الأمر بذلك للرسول ﷺ وللمسلمين في المدينة وما حولها استتباباً جعل العرب تخافهم وترهب جانبهم.

معاهدة الحُدَيْبِيَة

بعد أن انقضت ست سنوات على هجرته ﷺ من مكة وبعد أن اطمأن إلى جيشه، وإلى المجتمع الإسلامي. وبعد أن أصبحت دولة المسلمين مرهوبة الجانب عند جميع العرب، فكر في خطوة أخرى يخطوها في سبيل الدعوة وفي سبيل تقوية الدولة الإسلامية، وإضعاف أعدائه. وقد بلغه أن مواطأة كانت بين أهل خيبر ومكة على غزو المسلمين. فرسم خطة يصل بها إلى موادعة مع أهل مكة ينتج عنها أن يخلى بينه وبين العرب لتسهيل نشر الدعوة في الجزيرة، وأن يعزل بها خيبر عن قريش. ورأى أن هذه الخطة إنّما هي زيارة بيت الله الحرام ملتزماً بها خطة السلم حتى يصل إلى مقصوده، ورأى أن عدم محاربة العرب في الأشهر الحرم تسهل له هذه الخطة، وكان يعلم أن قريشاً قد تفككت وحدتها، وصار يساورها الخوف من المسلمين، وأنّها تحسب له ألف حساب، فأراد أن يذهب إلى البيت الحرام حاجاً. وأنه إذا منعته قريش، كان هذا المنع وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية في العرب ومن وسائل الدعاوة ضد قريش. ولهذا أذّن الرسول ﷺ بالحج في شهر ذي القعدة الحرام، وأرسل إلى القبائل العربية من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك معه في الخروج إلى بيت الله، آمنين غير مقاتلين، وكان يقصد من ذلك أن يعلم العرب أنه خرج حاجاً ولم يخرج غازياً، وأنه اشرك معه العرب من غير المسلمين وهم ليسوا على دينه؛ لأنّه لا يريد قتالاً. وذلك ليكسب الرأي العام معه فيما لو منعته قريش من الحج.

وقد قرر خطة السلم؛ ولذلك لم يأذن للمسلمين أن يحملوا سلاحاً إلاّ السيوف في أغمادها، وأعلمهم أنه خارج للحج لا للقتال. وغادر الرسول عليه السلام المدينة ومعه ألف وأربعمائة رجل، وهو يتقدم النّاس على ناقته القصواء، وقد ساق معه سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة ليعلم النّاس أنه لا يريد قتالاً، وإنّما خرج زائراً لبيت الله الحرام. ولما جاوز المدينة وقطع مسافة ستة أميال أو سبعة أميال وصلوا إلى ذي الحليفة، ولبوا بالعمرة هناك. وساروا نحو مكة فبلغ خبرهم قريشاً بأنهم قدموا للحج لا للقتال، فخافت أن يكون ذلك حيلة احتالها محمد ﷺ لدخول مكة على أهلها، وحسبت لهذا الأمر ألف حساب، وقررت أن تحول بين محمد ﷺ ودخول مكة مهما كلفها ذلك من تضحيات، فجهزت جيشاً للقاء المسلمين وصدهم عن مكة، إذ عقدوا لخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، على جيش كبير كان فيه من الفرسان فقط مائتا فارس، وخرج جيش المشركين من مكة، وتقدم نحو القادمين إلى الحج ليمنعهم، ووصل إلى ذي طوى وعسكر هناك. وقد بلغ محمداً ﷺ ما فعلته قريش، وأنهم جهزوا له جيشاً لمنعه من الحج. ولما وصل عليه السلام إلى قرية عسفان على بعد مرحلتين من مكة لقيه رجل من بني كعب فسأله النبي ﷺ عن أخبار قريش فقال له: (هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل وقد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم ــ وهو مكان يبعد عن معسكر المسلمين لعسفان بثمانية أميال ــ فلما سمع الرسول ﷺ ذلك قال: «**يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام**

وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة». يعني سيظل يجاهد حتى ينتصر أو يموت. وهنا وقف عليه الصلاة والسلام يفكر في الأمر ويعيد النظر في الخطة التي اختطها، لقد قرر خطة السلم ولم يهيئ للقتال، ولكن قريشاً أرسلت إليه جيشاً لتقاتله، وهو لا يريد قتالاً، ولكن أيرجع أم يغير خطة السلم إلى خطة قتال. إنه يعلم أن المسلمين في إيمانهم قادرون على مواجهة خصمهم، ودخول معركة مع عدوهم إن لم يكن من الحرب بد، ولكنه لم يحضر لحرب ولم يقرر القتال، وإنه إنّما جاء ليحج، وجاء مسالماً، ولو فرض ومنع من الحج، وكان مقدراً هذا المنع، فإنه يريده منعاً سلمياً أيضاً لا منعاً حربياً، ولا دخولاً حربياً. إن خطة السلم هذه التي اختطها يريد بها إيجاد رأي عام عند العرب كافة عن الدعوة الإسلامية وسُمُوِّها، وايجاد رأي عام عند قريش، وفي مكة كذلك، عن سمو هذه الدعوة، وإيجاد رأي عام عند العرب وعند قريش وفي مكة عن خطأ قريش وضلالها، وفجورها، وعدوانها. إنه يريد هذا الرأي العام لايجاد أجواء الدعوة، لأنّ هذه الأجواء من أكبر العوامل المساعدة للدعوة على الانتشار، وعلى النصر، ولذلك قرر خطة السلم، ولم يقرر الحرب، فإذا هو حارب فقد خالف هذه الخطة، وفوت عليه هذه الناحية التي خرج من أجلها. لذلك فكر كثيراً فيما يصنع، وكان في تفكيره أبعد نظراً وأكثر حنكة، وأدق سياسة، من تفكير أي انسان. لذلك قرر مواصلة خطة السلم، حتى لا يفوت عليه قصده الذي خرج من أجله، وحتى لا تنعكس خطته، فيكون لقريش عند العرب حجة عليه، ويكون الرأي العام لقريش بدل أن يكون له، ولهذا نادى في النّاس: «**من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها**». فخرج بهم رجل

يدلهم على الطريق، فساروا في طريق وعرة بين شعاب الجبال، في دروب ضيقة ينتقلون بها في مشقة أية مشقة، حتى قطعوها بعد جهود متعبة، وخرجوا إلى سهل انتهوا منه إلى أسفل مكة، في مكان يسمى الحديبية، وعسكروا هناك. فلما رآهم جيش خالد وعكرمة، فزعوا وكروا راجعين إلى مكة ليدافعوا عنها، وداخلهم الرعب والفزع من تجاوز المسلمين جيشهم واقتحامهم حدود مكة. ورابط جيش المشركين داخل مكة، ورابط جيش النبي ﷺ ومن معه في الحديبية. ووقف المعسكران مقابل بعضهما، قريش داخل مكة والمسلمون في الحديبية وكل يفكر في الخطة التي يسلكها تجاه الآخر، وكان بعض المسلمين يفكر في أن قريشاً لا يمكن أن تمكنهم من الحج، وهي تعد لهم عدة الحرب، فلا سبيل إلاّ أن يحاربوها لينتصروا عليها، ويحجوا، وبذلك يقضون على قريش القضاء الأخير. وفكرت قريش في أن تعد لحرب المسلمين كل عدة تقدر عليها وتحارب المسلمين حتى تردهم ولو أدى ذلك إلى فنائها كلها، لكن قريشاً كانت تحسب للمسلمين ألف حساب. فلبثت تنتظر ما سيفعل المسلمون. أما رسول الله ﷺ فقد ظل على خطته التي اختطها، منذ أن أحرم بالعمرة في المدينة، وهي خطة السلم، حتى يصل للغرض الذي جاء من أجله، فظل معسكراً في الحديبية، منتظراً أن يرى ما ستفعل قريش، وكان يعلم أنّها ترتجف خوفاً منه، وأنّها سترسل له لتفاوضه في شأن مجيئه للحج، وآثر التريث حتى ترسل رسلها، وبالفعل أرسلت قريش بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة وفد مفاوضة، ليسألوا الرسول ﷺ ما الذي جاء به، وما لبثوا بعد مفاوضة قصيرة، حتى اقتنعوا بأن المسلمين لم يأتوا يريدون حرباً، وإنما أتوا زائرين للبيت، معظمين لحرماته، فعادوا لإقناع قريش بذلك، وحاولوا إقناعها، حتى اتهمتهم قريش

بمالأتهم لمحمد ﷺ، و لم تثق بكلامهم، فأرسلت وفداً آخر برئاسة مكرز بن حفص فكان كالوفد الأول. ثمّ أرسلت الحليس بن علقمة سيد الأحابيش لمفاوضة محمد ﷺ، وكانت تعتمد عليه وعلى قومه في صد محمد ﷺ، وقصدت إثارته على المسلمين، إذا رجع و لم تنجح مفاوضته، فيزداد حقده، ويشتد في الدفاع عن مكة، غير أن النبي ﷺ حين علم بخروجه أمر بالهدي أن تطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلاً محسوساً على أن نية المسلمين الحج، وليس الحرب. فخرج الحليس، ولما أقبل على معسكر المسلمين، رأى الإبل في عرض الوادي ورأى مناظر المسلمين وهديهم مناظر معتمرين لا محاربين، تظهر في معسكرهم أجواء العبادة، فتأثر لهذه المناظر، وأيقن بأن هؤلاء النّاس يبغون العبادة لا القتال. وما لبث أن اقتنع بوجهة نظر المسلمين وانقلب إلى مكة قبل أن يلقى الرسول ﷺ، وأخبر قريشاً وطلب إليها أن تسمح للمسلمين بالحج، وغضب عليها واشتد في غضبه، وهددهم بأنه إذا لم يخلوا بين محمد والكعبة تركهم ونفر بالأحابيش عن مكة، ولكنهم استرضوه وطلبوا إليه أن يمهلهم حتى يفكروا في أمرهم، فسكت عنهم ثمّ إنّهم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي بعد أن أكدوا له أنهم يطمئنون إلى رأيه ويثقون به، فخرج إلى الرسول ﷺ، وأخذ يفاوضه أن يرجع عن مكة، واستعمل في مفاوضته جميع الأساليب، ولكنه لم ينجح في ذلك ورجع مقتنعاً بوجهة نظر الرسول ﷺ، وقال لقريش (يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فَرَوْا رأيكم) فزاد ذلك قريشاً عناداً وخصومة، وطالت المحادثات دون أن تصل إلى رأي. ففكر الرسول ﷺ في

أن يرسل هو وفداً للمفاوضة، فلعل رسل قريش تخاف منهـا، ولعـل رسـوله يقنعهم. فأرسل رسولاً إليهم هو خراش بن أمية الخزاعي، ولكنهم عقروا بـه جمل الرسـول وأرادوا قتلـه لـولا حمايـة الأحـابيش لـه. واشـتدت قـريش في خصـومتها، وكانـت ترسـل سـفهاءها في الليـل يرمـون معسـكر المسـلمون بالحجارة، فغضب لذلك المسلمون، وفكروا في قتال قريش، ولكـن الرسـول ﷺ كان يخفف من غضبهم ويهدئهم. وحدث أن خرج خمسون رجلاً مـن قريش إلى معسكر المسـلمين ليضـربوهم وليصـيبوا لهـم مـن أصـحابه أحـداً، فألقي القبض عليهم وأُحضروا إلى رسـول الله فعفـا عـنهم وخلـىّ سـبيلهم، فكان لهذا العمل الأثر الأكبر في مكة والدلالة القاطعة على صدق محمـد ﷺ فيما يقوله من أنه إنما جاء للحج لا للحرب، وَوُجد بذلك رأي عام في مكة في جانب الرسول ﷺ، حتى لو دخلها في ذلك الحين وحاولت قريش منعـه لكانت الدائرة عليها، وكان أهل مكة والعرب ضدها، ولهذا سكتت قـريش عن تحرشاتها وصارت تفكر في أمرها، وظهرت في أجوائها أمارات السـلم. فأراد الرسول ﷺ أن يرسل إليهـا مـن يفاوضـها مـن المسـلمين، وطلـب إلى عمر بن الخطاب أن يذهب فقال له: يا رسول الله إنـي أخـاف قريشـاً علـى نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقـد عرفـت قـريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بهـا مـني، عثمـان بن عفان. فدعا النبي ﷺ عثمان وأرسله إلى أبي سـفيان فـانطلق عثمـان إلى قريش وبلّغهم رسالته، فقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فأجـابهم: مـا كنـت لأفعـل حتـى يطـوف بـه رسـول الله ﷺ وفاوضـهم في مهمتـه، فرفضت قريش، وطال بينهم الحديث، واستمرت المفاوضات، وانتقلـت مـن قبل قـريش مـن الـرفض إلى وضـع خطـة مقابلـة توفـق بـين مطالـب قـريش

ومطالب المسلمين، وبحثوا معه في إيجاد علاقات بينهم وبين محمد ﷺ، وأَنِسوا بعثمان أن يجد لهم طريقاً يخلصون به من مأزقهم هذا، ومن استمرار العداوة مع محمد ﷺ. ولما طال مكث عثمان ولم تظهر له آثار في مكة سَرَتْ إشاعة بين المسلمين بأن قريشاً غدرت بعثمان وقتلته، واشتد القلق بالمسلمين، ودخل في رُوع النبي ﷺ أن قريشاً قتلت عثمان، وهاج المسلمون واضطربوا، ووضع كل منهم يده على قبضة سيفه، واستعدوا للحرب والقتال وحينئذٍ أعاد الرسول عليه السلام النظر في خطته التي اختطها وهي خطة السلم، ورأى أن الأمر يحتاج إلى إعادة النظر في تلك الخطة بعد أن غدرت قريش بعثمان في الشهر الحرام، وهو رسول مفاوضة، ولذلك قال: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**». ودعا أصحابه إليه ووقف تحت شجرة وطلب مبايعة أصحابه له، فبايعوه جميعاً على أن لا يفروا حتى الموت، وكانوا أشد ما يكونون حماسة، وقوة عزيمة، وصدق إيمان. ولما تَمّت البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان، كأنه حاضر معهم، وكانت هذه البيعة بيعة الرضوان، ونزل فيها قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾. وما أن تمت البيعة واستعد المسلمون لخوض المعارك والدخول في الحرب، حتى بلغهم أن عثمان لم يقتل. وما لبث أن عاد عثمان وأخبر الرسول ﷺ بما قالته قريش. وتجددت المفاوضات السلمية بين الرسول ﷺ وبين قريش، حتى أوفدت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول ﷺ مفاوضة أوسع من مسألة الحج والعمرة؛ ليفاوضه على صلح يعقد بينه وبينهم، على أن يكون أساس الصلح أن يرجع عن مكة هذا العام. وقَبِلَ الرسول ﷺ

مفاوضات الصلح على هذا الأساس، لأنّها حققت الغرض الذي يقصده من موضوع زيارة البيت، ولا يضيره أن يزور البيت هذا العام أو يزوره العام القادم. إنه يريد أن يعزل خيبر عن قريش وأن يخلي بينه وبين العرب لنشر الدعوة الإسلامية، ولذلك يرغب في وضع معاهدة بينه وبين قريش توقف القتال الناشب بينها وبينه والحرب المتلاحقة بينهما، أما موضوع الحج والعمرة فلا يؤثر أكان اليوم أو غداً. ودخل في مفاوضات مع سهيل بن عمرو، وجرت بينهما محادثات طويلة بشأن الهدنة وشروطها، وكانت تتعرض في كثير من الأحيان للانقطاع، لولا حكمة الرسول ﷺ وحنكته ودقة سياسته. وكان المسلمون حول رسول الله ﷺ يسمعون هذه المحادثات ويعتبرونها محادثات في شأن العمرة، في حين كان الرسول ﷺ يعتبرها محادثات لوقف القتال. ولذلك ضاق المسلمون بها ذرعاً، في حين أن رسول الله ﷺ استبشر بها وأدارها على الغاية التي يريدها بغض النظر عن التفاصيل الموقتة والفوائد المعجلة، حتى تم الاتفاق بين الفريقين على شروط معينة. غير أن هذه الشروط أثارت المسلمين وحركت غضبهم، وحاولوا إقناع رسول الله ﷺ برفضها وبالحرب والقتال، فقد ذهب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر وقال له: عَلامَ نعطي الدنية في ديننا، وحاول أن يجعله معه ليذهبا لإقناع رسول الله ﷺ بعدم الموافقة على هذه الشروط. ولكن أبا بكر حاول إقناعه أن يرضى بما رضيه رسول الله ﷺ فلم يقتنع. وذهب عمر إلى النبي ﷺ وتحدث إليه وهو مغيظ محنق، لكن حديثه هذا لم يغير من صبر النبي ﷺ ولا من عزمه، وقال لعمر: «**أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني**». ثمّ دعا علي بن أبي طالب وقال له: «**اكتب بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحيمِ**»، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. قال رسول الله

ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**»، ثمّ قال: «**اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو**»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال رسول الله ﷺ: «**اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو**»، ثمّ كتب المعاهدة بين الطرفين وهي تنص على البنود الآتية:

أ ــ أن تكون المعاهدة معاهدة هدنة يتهادن الفريقان فيما بينهما فلا يكون فيها حرب أو قتال.

ب ــ إن من أسلم من قريش وجاء محمداً بغير إذن وليه رده عليهم، ومن ارتد من المسلمين وجاء قريشاً لم يردوه عليه.

جـ ــ وإنه من أحب من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه.

د ــ أن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ولا سلاح غيرها.

هـ ــ أن تكون المعاهدة مؤقتة بأجل معين، وجعلت مدتها عشر سنين من تاريخ توقيعها.

ووقع الرسول ﷺ وسهيل المعاهدة في وسط هياج جيش المسلمين وغضبهم. وقام سهيل ورجع إلى مكة، وأقام رسول الله ﷺ مضطرباً مما رأى، مغيظاً محنقاً مما عليه المسلمون من الحماسة والشدة والرغبة في القتال؛ ودخل على زوجته أم سلمة ــ وكان قد

صحبها معه ـ، وأفضى إليها بما عليه النّاس. قالت له: يا رسول الله إن المسلمين لا يخالفونك، وإنّهم يتحمسون لدينهم وإيمانهم بالله وبرسالتك، فاحلق وتحلل تجد المسلمين اتبعوك، ثمّ سر بهم راجعاً إلى المدينة، فخرج الرسول ﷺ على المسلمين وحلق إيذاناً بالعمرة، وامتلأت نفسه بالسكينة والرضا. ولما رآه المسلمون ورأوا سكينته، تواثبوا ينحرون ويحلقون ويقصّرون. وعاد النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة. وبينما هم في الطريق نزلت على الرسول ﷺ سورة الفتح، فتلاها عليهم من أولها إلى آخرها، فأيقن الجميع أن هذه المعاهدة هي فتح مبين للمسلمين. ووصل المسلمون إلى المدينة. وأقام رسول الله ﷺ ينفذ خطته في القضاء على كيان خيبر، وفي نشر الدعوة خارج الجزيرة، وتثبيتها داخل الجزيرة، ويتفرغ في هذه الفترة من الهدنة مع قريش للقضاء على بعض الجيوب، وللاتصال الخارجي، فتم له ذلك بفضل هذه المعاهدة. وبهذا استطاع عليه السلام أن ينفذ خطته التي وضعها حين عزم على الحج تنفيذاً دقيقاً رغم ما اعترضها من صعاب، وما قام في وجهها من عقبات، ووصل إلى الأغراض السياسية التي أرادها، وكانت الحديبية فتحاً مبيناً لا ريب فيه، وكان من نتائجها:

١ ـ توصل الرسول ﷺ إلى إيجاد رأي عام مؤيد للدعوة الإسلامية عند العرب عامة، وفي مكة وبين قريش خاصّة، مما قوى هيبة المسلمين وأضعف هيبة قريش.

٢ ــ كشفت عن ثقة المسلمين بالرسول ﷺ، ودلت على قوة إيمان المسلمين وشدة إقدامهم على المخاطر، وأنّهم لا يخافون الموت.

٣ ــ علمت المسلمين أن المناورات السياسية هي من وسائل الدعوة الإسلامية.

٤ ــ جعلت المسلمين الذين ظلوا في مكة بين المشركين يشكلون جيباً داخل معسكر العدو.

٥ ــ بينت الطريقة في السياسة بأنها من جنس الفكرة، صدق ووفاء عهد. لكن الوسيلة، لا بد أن يتمثل فيها الدهاء، وهو إخفاء الوسائل والغايات الحقيقية عن العدو.

إرسال الرسل إلى الدول المجاورة

بعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى الدعوة الإسلامية في الحجاز كله، أخذ يعمل لحمل الدعوة إلى خارج الحجاز؛ لأنّ الإسلام دين النّاس كافة، ولأنّ الرسول عليه السلام أرسل للعالم كله، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾. ولذلك كان على الرسول ﷺ بعد أن اطمأن على تركيز الدولة والدعوة، أن يبدأ بالاتصال الخارجي بإبلاغ دعوته مع السفراء. والمراد بالاتصال الخارجي بالنسبة للرسول ﷺ إنما هو الاتصال بمن يكونون خارج حدود حكمه من الكفّار، فالرسول ﷺ حين كان سلطانه بالمدينة فقط كان الاتصال بقريش وغيرها ممن هو خارج المدينة وحدودها يعتبر اتصالاً خارجياً، وحين كان سلطان الرسول ﷺ في الحجاز كله يعتبر اتصاله خارج الحجاز اتصالاً خارجياً، وحين كان سلطانه شاملاً جزيرة العرب كلها كان اتصاله بمن هو خارج الجزيرة كالفرس والروم مثلاً يعتبر اتصالاً خارجياً، والرسول ﷺ بعد معاهدة الحديبية والقضاء على خيبر، صار الحجاز كله تحت سلطانه تقريباً، لأنّه لم يعد لقريش من القوة ما تستطيع به أن تقف في وجه الرسول ﷺ. فبعث الرسول ﷺ رسله إلى الخارج، ولم يبدأ بإرسال هؤلاء السفراء إلا بعد أن اطمأن إلى تركيز

السياسة الداخلية، وهيأ القوة الكافية لسند السياسة الخارجية، فإنه ﷺ بعد رجوعه من خيبر، خرج يوماً على أصحابه فقال: «**أيها النّاس إن الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم**»، فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله. قال: «**دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل**». وذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل، وكسرى، والمقوقس، والحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحميري ملك اليمن، وإلى نجاشي الحبشة وإلى ملكي عمان وإلى ملكي اليمامة وإلى ملك البحرين، يدعوهم إلى الإسلام فأجابه أصحابه إلى ما أراد. وصنع له خاتم من فضة نقش عليه «**محمد رسول الله**»، وبعث بكتبه مع الرسل يدعو هؤلاء إلى الإسلام، فقد دفع بكتاب هرقل إلى دحية بن خليفة الكلبي، وبكتاب كسرى إلى عبد الله بن حذافة السهمي، وبكتاب النجاشي إلى عمرو بن أمية الضمري، وبكتاب المقوقس إلى حاطب بن أبي بلتعة، وبكتاب ملكي عمان إلى عمرو بن العاص السهمي، وبكتاب ملكي اليمامة إلى سليط بن عمرو، وبكتاب ملك البحرين إلى العلاء بن الحضرمي، وبكتاب الحارث الغساني ملك تخوم الشام إلى شجاع بن وهب الأسدي، وبكتاب الحارث الحميري ملك اليمن إلى المهاجر بن أبي أمية المخزومي. وانطلق هؤلاء الرسل جميعاً كل إلى حيث أرسله النبي ﷺ، انطلقوا في وقت واحد، وبلغوا كتب النبي ﷺ إلى من أرسلت إليهم، ثمّ رجعوا. وقد ردّ أكثر الذين أرسلت إليهم الكتب رداً رقيقاً فيه لين، ومنهم من ردّ رداً سيئاً. أما أمراء العرب فقد رد ملكا عُمان على رسالة النبي ﷺ ردّاً سيئاً، ورد ملك اليمن ردّاً حسناً، وكذلك رد ملك البحرين وأسلم، ورد ملك اليمامة مظهراً

استعداده للإسلام إذا هو نصب حاكماً فلعنه النبي لمطامعه. وأما غير العرب فإن كسرى عاهل الفرس ما لبث حين تلي عليه كتاب الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام أن استشاط غضباً، وشق الكتاب، وكتب إلى باذان عامله على اليمن بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز، فلما بلغت النبي ﷺ مقالة كسرى، وما فعل بكتابه قال: «**مزق الله ملكه**»، ولما وصل كتاب كسرى إلى باذان عامله على اليمن بحث في الإسلام وأعلن اسلامه، وقد بقي عاملَ النبي ﷺ على اليمن، وهو غير ملك اليمن الحارث الحميري، وأما المقوقس عظيم القبط فقد ردّ رداً جميلاً، وأرسل هدية للنبي ﷺ. وأما النجاشي فكان رده جميلاً وقيل إنه أسلم. وأما هرقل فإنه لم يعبأ بهذا الداعي و لم يفكر في إرسال جيش و لم يقل شيئاً، ولما استأذنه الحارث الغساني في أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة هذا المدعي النبوة لم يجبه إلى طلبه، ودعا الحارث إليه لبيت المقدس، وكان من أثر هذه الكتب أن العرب قد بدأوا يدخلون في دين الله أفواجاً، ثمّ بدأت وفودهم تتتابع على الرسول ﷺ تعلن إسلامها. وأما غير العرب فقد بدأ الرسول ﷺ يهيئ القوة لجهادها.

غـزوة خيبر

لم يُقِم الرسول ﷺ بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلاّ خمس عشرة ليلة حتى أمر النّاس بالتجهيز لغزو خيبر، على ألا يغزو معه إلاّ من شهد الحديبية، وقد بلغه قبل مسيره إلى الحديبية أن يهود خيبر يأتمرون مع قريش على غزو المدينة والقضاء على المسلمين، وكانت هذه المؤامرة بينهم سرية، فأراد الرسول ﷺ أن يسلك خطة السلم مع قريش ليصل إلى موادعات بينه وبينها، ثمّ يتفرغ للقضاء على اليهود، فلما أتم خطة السلم كاملة في الحديبية، وعزل بها خيبر عن قريش، باشر بـإتمام باقي خطته بالقضاء على اليهود في خيبر، فأمر بتجهيز الجيش حال رجوعه من الحديبية، وسار في ألف وستمائة من المسلمين، ومعهم مائة فارس وكلهم واثق بنصر الله، وقطعوا مراحل الطريق ما بين خيبر والمدينة في ثلاثة أيام. لم تكد خيبر تحس بهم أثناءها، حتى باتوا أمام حصونهم وأصبح الصباح، وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا جيش المسلمين ولوا الأدبار يتصايحون: هذا محمد والجيش معه، وقال الرسول ﷺ حين سمع قولهم: «**الله أكبر، خَرِبَتْ خيبر. إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذَرين**». وكان اليهود يتوقعون أن يغزوهم الرسول ﷺ. ذلك أنهم حين بلغهم صلح الحديبية، وأن قريشاً عاهدت الرسول ﷺ، اعتبروا ذلك نكوصاً من قريش، فنصح بعضهم لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو يثرب، دون اعتماد على البطون العربية في

الغزو، ولا سيما بعد أن عاهدت قريش الرسول ﷺ. وأما آخرون فكانوا يرون أن يدخلوا في حلف مع الرسول ﷺ، لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم في نفوس المسلمين. وكانوا يتذاكرون بذلك، لأنّهم كانوا يحسون بالخطر يقترب منهم، وكانوا يعرفون أن الرسول ﷺ قد كشف أمر مواطأتهم مع قريش فلا بد أن يغزوهم، ولكنهم لم يكونوا يتوقعون أن يكون غزوه لهم بهذه السرعة، لذلك تحيروا لما فاجأهم الرسول ﷺ بجيشه، فاستعانوا بغطفان، وحاولوا أن يثبتوا أمام الرسول ﷺ، وتحصنوا بحصونهم، ولكن جيوش المسلمين كانت سريعة الضربة، فلم تنفع مقاومتهم، ودكت جميع حصونهم، حتى استولى عليهم اليأس فطلبوا الصلح من الرسول ﷺ على أن يحقن دماءهم، فقبل الرسول ﷺ منهم ذلك وأبقاهم في بلادهم، ولما كانت أرضهم وكرومهم قد آلت إليه بحكم الفتح أبقاهم عليها على أن يعملوا بها مقابل أن يكون لهم النصف، وله النصف، فقبلوا ذلك، ثمّ رجع الرسول ﷺ إلى المدينة وأقام بها حتى ذهب لعمرة القضاء.

وبالقضاء على سلطان خيبر السياسي وإخضاعهم لسلطان المسلمين أمن الرسول ﷺ ناحية الشمال إلى الشام، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية، وفتحت الطريق أمام الدعوة في داخل جزيرة العرب، كما فتحت الطريق أمامها في الخارج.

عُمْـرَة القضـاء

ما كاد عهد الحديبية يوقع بين الرسول ﷺ وقريش حتى دخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدها، واطمأنت العلاقات بين قريش ومحمد ﷺ، وأمن كل جانب صاحبه، واتجهت قريش إلى التوسع في تجارتها لتستعيد ما فقدته أيام اتصال الحرب بينها وبين المسلمين، واتجه الرسول إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً، وإلى تركيز الدولة في شبه الجزيرة العربية وتوفير أسباب الطمأنينة في هذه الدولة فقضى على كيان خيبر، وأرسل الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، واتصل بالخارج، وأخذ يركز الدولة ليجعلها تعم جميع أنحاء الجزيرة. وما أن استدار العام بعد الحديبية حتى نادى الرسول ﷺ في الناس كي يتجهزوا إلى عمرة القضاء بعد أن منعوا من قبل منها، وسار الركب في ألفين من المسلمين، وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلاّ سيفاً في قرابه، لكن الرسول ﷺ كان يخشى الغدر دائماً فجهز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة وبعثهم طليعة له على ألا يتخطوا حرم مكة، وذهب المسلمون فقضوا العمرة، ثم رجعوا إلى المدينة، وبرجوعهم بدأ أهل مكة يدخلون في الإسلام، فأسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة. وأسلم بـإسلام هؤلاء الكثيرون من أهل مكة، وبذلك قويت شوكة الإسلام بمكة، ودب الوهن في صفوف قريش.

غـزوة مـؤتـة

كان من أثر رد الملوك خارج جزيرة العرب أن الرسول ﷺ بعد أن رجع السفراء من تبليغ الدعوة هيأ الجيش للجهاد خارج جزيرة العرب، وأخذ يترقب أخبار الروم والفرس، وكان الروم ملاصقين في حدودهم لحدوده، ولذلك كان يتسقط أخبارهم، وكان يرى أن الدعوة الإسلامية ستنتشر انتشاراً كبيراً حال خروجها من جزيرة العرب لعلم الناس بها. ولذلك كان يرى أن بلاد الشام هي المنفذ الأول لهذه الدعوة. ولما أمن من جانب اليمن باذعان عامل كسرى عليها لدعوته، فكر في إرسال جيش إلى بلاد الشام لقتالهم، وفي شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، أي بعد عمرة القضاء ببضعه أشهر، جهز ثلاثة آلاف مقاتل من خيرة أبطال المسلمين، ووضع عليهم زيد بن حارثة قائداً لهم وقال: «**إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس**».

وخرج الجيش ومعه خالد بن الوليد، وكان قد أسلم بعد معاهدة الحديبية، وسار معهم الرسول ﷺ حتى ظاهر المدينة، وأوصاهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار، ودعا هو والمسلمون معه للجيش قائلين: «**صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين**». وسار الجيش ووضع أمراؤه الخطة بأن تكون حرباً خاطفة، بأن يأخذوا القوم من أهل الشام على غرة منهم كما

هي عادة النبي ﷺ في غزواته، فينتصرون ويرجعون. وساروا على هذه الخطة، ولكنهم لما بلغوا معان علموا أن مالك بن زافلة قد جمع لهم مائة ألف مقاتل من قبائل العرب، وأن هرقل جاء على رأس مائة ألف مقاتل، فراعهم هذا النبأ وأقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وفيما هم صانعون أمام هذا العدد الهائل من الجنود، وأمام هذه القوة الكبيرة، وكان الرأي السائد بينهم أن يكتبوا لرسول الله ﷺ يخبرونه بعدد العدو. فإمّا أن يمدهم بالرجال أو يأمرهم بما يرى، غير أن عبد الله بن رواحة قال لهم: (يا قوم والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة... وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة). وامتدت حماسة الإيمان إلى الجيش، ومضوا حتى وصلوا إلى قرية مشارف، فلقيتهم هناك جموع الروم فانحازوا عن مشارف إلى مؤتة، وتحصنوا بها، وهناك بدأت بينهم وبين الروم معركة من أشد المعارك رهبة، فيها الموت الأحمر يَفْغَرُ فاه، فإنها كانت بين ثلاثة آلاف فقط من المؤمنين الذين يطلبون الموت والشهادة. وبين مائة ألف أو مائتي ألف من الكافرين الذين جمعوا أنفسهم للقضاء على جيش المسلمين. وبدأت رحى الحرب بين الفريقين حامية الوطيس، فحمل زيد بن حارثة راية النبي ﷺ واندفع بها في صدر العدو، وهو يرى الموت أمامه ولكنه لا يخافه، لأنه استشهاد في سبيل الله؛ ولذلك تقدم بجرأة تفوق حد التصور، إذ أخذ يحارب حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو. فتناول الراية جعفر بن أبي طالب، وكان شاباً جميلاً شجاعاً لا يزال في الثالثة والثلاثين من عمره، فقاتل قتال المستميت، ولما رأى العدو قد أحاط بفرسه عقرها واندفع وسط القوم يضرب بسيفه، فهاجمه رجل من

الروم وضربه ضربة قطعته نصفين فقتل. فأخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم تقدم بها وهو على فرسه وتردد بعض التردد، ولكنه مضى وقاتل حتى قتل. فأخذ الراية ثابت بن أقرم، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ الراية وداور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم ووقف من العدو عند حد المناوشات البسيطة حتى أقبل الليل، وتحاجز الجيشان حتى الصباح. وأثناء الليل وضع خالد خطة محكمة ينسحب بموجبها دون قتال بعد أن رأى ضخامة عدد العدو وضآلة عدد جيشه، وبموجب هذه الخطة وزع عدداً غير قليل من الجيش في المؤخرة وأمرهم أن يحدثوا من الجلبة والضوضاء عند الصباح ما يوهمون به عدوهم أنهم مدد جاء الجيش من عند النبي ﷺ، ولما فعلوا ذلك ارتاع العدو وتقاعس عن مهاجمة المسلمين، وفرحوا لعدم مهاجمة خالد لهم، ثم ما لبث أن رجع جيش المسلمين إلى المدينة منسحباً من الميدان بموجب الخطة التي وضعها خالد، وبهذا رجعوا غير منصورين وغير مهزومين، ولكنهم أبلوا في الحرب بلاء حسناً.

لقد كان يعلم قواد هذه المعركة وجنودها الأبطال أن كلاً منهم مُقْدِمٌ على الموت. بل كان يرى الموت أمامه مقبلاً عليه، ولكنهم خاضوا المعارك وقتلوا، لأن الإسلام يأمر المسلم أن يقاتل في سبيله حتى يَقتُل ويُقتَل، وأن هذا القتال هو التجارة الرابحة لأنه الجهاد في سبيل الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم

بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ ولذلك قاتل هؤلاء رغم تحققهم من الموت، ولأن المسلم إنما يقاتل إذا كان لا بد من القتال، بغض النظر عما إذا كان الموت محققاً أو غير محقق، وأن الأمور لا تقاس في القتال والجهاد بعدد العدو وعدته، ولا بكثرته وقلته، وإنما تقاس بالنتائج التي تحصل منها بغض النظر عما تتطلبه من تضحيات، وما يرجى فيها من نجاح. فحرب المسلمين للروم في مؤتة كانت تفرض على المسلمين القتال، وكانت تفرض على قواد الجيش أن يخوضوا المعركة التي جاءوا من أجلها، ولو كان الموت الأحمر جاثماً أمامهم، فما ينبغي للمسلم أن يخاف الموت، وما ينبغي للمسلم أن يحسب الحساب لشيء في سبيل الله. وكان الرسول ﷺ يعلم أن إرسال هذا الجيش لدولة الروم يهاجمها به على حدودها مخاطرة أيما مخاطرة، ولكنها مخاطرة لا بد منها لإرهاب الروم حين يرون قتال المؤمنين واستماتتهم، مهما يكن عددهم قليلاً. وكانت مخاطرة لا بد منها ليرسم للمسلمين طريق الجهاد لنشر الإسلام وتطبيقه فيما يليهم من البلاد، وكانت مخاطرة ناجحة لأنها كانت طليعة لغزوة تبوك وضربة للروم أرهبتهم أن يواجهوا المسلمين بعدها، حتى كان فتح الشام.

فتح مكـة

ولما رجع المسلمون من مؤتة وقد قتل منهم خلق كثير، خيل لقريش أن المسلمين قد قضي عليهم، فحرضوا بني بكر على خزاعة وأمدوهم بالسلاح، فأغار بنو بكر على خزاعة وقتلوا منهم، ففرت خزاعة إلى مكة، وسارع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، وجعل يقص على الرسول ﷺ ما حدث لهم ويستنصره، فقال له رسول الله ﷺ: «**نصرت يا عمرو بن سالم**». ورأى الرسول ﷺ أن ما قامت به قريش من نقض العهد لا مقابل له إلا فتح مكة، أما قريش فقد خافوا من نقض العهد، فأوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد ويزيد في المدة، فذهب أبو سفيان، ولم يشأ أن يلقى الرسول ﷺ بل جعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فدخل عليها وأراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ، فطوته، فلما سألها أبوها أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها؟ كان جوابها: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس عليه، قال أبو سفيان: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، وخرج مغضباً ثم كلم محمداً ﷺ في العهد وإطالة مدته فلم يرد عليه شيئاً، فكلم أبا بكر ليكلم له النبي ﷺ فأبى. فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد وقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به. ودخل أبو سفيان على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة، فعرض عليه ما جاء فيه، واستشفعه إلى الرسول ﷺ، فأنبأه علي في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد

محمداً ﷺ عن أمر إذا هو اعتزمه، واستشفع أبو سفيان فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس وكان بعدُ صغيراً، فقالت: والله ما بلغ بنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ. واشتدت الأمور على أبي سفيان فرجع إلى مكة وقص على قومه ما لقيه في المدينة. أما الرسول ﷺ فقد أسرع وأمر الناس بالتجهز وسار بهم إلى مكة. وكان يرجو أن يبغت القوم في غرة منهم فلا يجدوا له دفعاً فيسلموا من غير أن تراق الدماء، وتحرك جيش المسلمين من المدينة إلى مكة، وبلغ الجيش مر الظهران على أربعة فراسخ من مكة، وقد كملت عدته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر، وكانت قريش تتحسب لغزو محمد ﷺ لهم وتتجادل فيما تصنع للقاء محمد. ثم إن أبا سفيان خرج يستطلع مبلغ الخطر الذي تحس به، فلقيه العباس ــ وكان قد أسلم ــ وقد ركب بغلة النبي ﷺ وذهب إلى مكة ليخبر قريشاً بأن يستأمنوا الرسول ﷺ؛ لأنه لا قبل لهم به، فلما لقي العباس أبا سفيان قال له: هذا رسول الله في الناس، واصَباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فقال أبو سفيان: فما الحيلة، فداك أبي وأمي؟ فأركبه العباس في عَجُز البغلة وسار به، فلما مر بنار عمر بن الخطاب رأى عمر بغلة النبي ﷺ وعرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يجيره، فأسرع إلى خيمة النبي ﷺ وطلب إليه أن يضرب عنقه، قال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته، وحصلت مناقشة عنيفة بين العباس وعمر. فقال النبي ﷺ: «**إذهب به يا عباس إلى رَحلك، فإذا أصبحتَ فأتني به**». فلما كان الصباح جيء بأبي سفيان فأسلم، وتوجه العباس إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال رسول الله ﷺ: «**نعم، من**

دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن». وأمر الرسول ﷺ أن يحبس أبو سفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة حتى تمر به جنود المسلمين فيراها فيحدث قومه عن بينة، ولكي لا يكون في إسراعه إليهم خيفة مقاومة أيّاً كان نوعها، واتخذ الرسول ﷺ لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذر، وبعد أن مرت القبائل بأبي سفيان انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتوقفت قريش عن المقاومة، وسار الرسول ﷺ ودخل مكة وظل متخذاً حذره، وأمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعاً أن لا تقاتل، وألا تسفك دماً، إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت اضطراراً، ودخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد، فقد لاقى بعض المقاومة وتغلب عليها، ونزل النبي ﷺ بأعلى مكة فأقام قليلاً ثم سار حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعاً، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة فوقف على بابها فتكاثر الناس فخطبهم قائلاً: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كلّ مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سَدَانة البيت، وسِقاية الحاجّ، أَلاَ وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغلّظة: مئة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب**». ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ ثم سألهم: «**يا معشر**

قريش ما ترون أني فاعل بكم»، قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**إذهبوا فأنتم الطلقاء**». وبهذه الكلمة صدر العفو عن قريش وعن أهل مكة. ودخل الرسول ﷺ الكعبة فرأى جدرانها صورت عليها الملائكة والنبيون، فأمر بتلك الصور فطمست، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها على الأرض ثم جعل يشير إلى الأصنام جميعاً بقضيب في يده وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ وكُبَّت الأصنام، وطُهّر البيت الحرام منها، وأقام بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شؤون مكة، ويفقه أهلها في الدين، وتم فتح مكة وقضي بفتحها على أساس المقاومة للدعوة الإسلامية، فتم بذلك النصر المبين، و لم تبق من المقاومة الداخلية إلا جيوب في حنين والطائف يسهل إنهاؤها.

غـزوة حُنَيْن

لما علمت هوازن بما تم للمسلمين من فتح مكة خشيت أن يغزوها المسلمون وأن يقتحموا عليها ديارها، ففكرت في أن تصد المسلمين وتهيأت لذلك. فجمع مالك بن عوف النّصْري هوازن وثقيف، وسار بها حتى نزلت وادي أوطاس، فبلغ المسلمين هذا النبأ بعد خمسة عشر يوماً من فتحهم مكة واستعدوا للقاء هوازن وثقيف. غير أن مالكاً لم يقم في وادي أوطاس بل أمر الناس أن ينحازوا إلى قمم حنين، وعند مضيق الوادي، ورتبهم هناك ترتيباً محكماً وأعطى أوامره بأنه إذا نزل المسلمون الوادي فليشدوا عليهم شدة رجل واحد، حتى تتضعضع صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضاً ويهزمون شر هزيمة. وأحكم هذه الخطة وانتظر مجيء المسلمين. وما هي إلا أيام حتى قدم جيش المسلمين. فقد سار رسول الله ﷺ في عشرة الآلاف الذين غزوا مكة وانضم إليهم ألفان ممن أسلم من قريش في مكة، وسار هذا الجيش الجرار والعدد الوفير من الناس للحرب، وبلغوا حنيناً مساء، وأقاموا بها حتى قبيل الفجر. وفي هذا الوقت المتأخر من الليل تحرك الجيش وركب الرسول ﷺ بغلته البيضاء في مؤخرة الجيش، وساروا منحدرين إلى الوادي، وما شعروا إلا والقبائل المعادية قد هاجمتهم. ذلك أن مالك بن عوف أمر رجاله بمهاجمة المسلمين، فشدوا شدة رجل واحد وأصلوْهم وابلاً من النبال، وما شعر المسلمون في عماية الفجر

إلا والسهام تتساقط عليهم من كل صوب، فدهشوا من هذه المفاجأة، وتحيروا فاختلط أمرهم واضطربوا، وعادوا منهزمين لا يلوون على شيء، وقد استولى عليهم الفزع وملك قلوبهم الرعب، وأخذ منهم الخوف من عدوهم كل مأخذ. وكانوا يمرون على الرسول ﷺ وهو في مؤخرة الجيش دون أن يقفوا أو يتريثوا، وظلوا منهزمين يتراجعون ولم يبق إلاّ رسول الله ﷺ ومعه العباس وأما باقي الجيش فقد انهزم لا يلوي على شيء، فوقف رسول الله ﷺ وقد أحاط به جماعة قليلة جداً من الأنصار والمهاجرين وأهل بيته، وجعل ينادي الناس وهم منهزمون قائلاً لهم: «**أين أيها الناس؟**»، ولكن الناس لم يكونوا يسمعون هذا النداء، ولم يكونوا يلتفتون إليه لما أصابهم من هول الفزع وخوف الموت، إذ كانت جموع هوازن وثقيف تطاردهم مطاردة شديدة، وتطعنهم كلما أدركتهم وترميهم بالنبال، وهم يولون الأدبار، ولذلك لم يسمعوا نداء الرسول ﷺ، ولم يستجيبوا له، فوقف الرسول ﷺ في هذه اللحظة الفاصلة أعظم موقف وأروعه، فقد كانت لحظة رهيبة وساعة من أحرج الساعات، فقد كان الجيش يفر كله، أصحابه ومن أسلموا حديثاً، لا فرق بينهم، يدعوهم ليرجعوا فلا يسمعون له قولاً. ويتحدث الذين أسلموا حديثاً أحاديث الشماتة بهزيمته، حتى يقول كلدة بن حنبل: (ألا بطل السحر اليوم). ويقول شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: (اليوم أدرك ثأري من محمد، اليوم أقتل محمداً). ويقول أبو سفيان: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر). وهؤلاء ومثلهم ممن كانوا يقولون هذا القول كانوا في جيش المسلمين ممن أسلموا في مكة وجاءوا يحاربون مع رسول الله ﷺ، ولكن الهزيمة أظهرت مكنون نفوسهم. ومقابل هؤلاء الذين

ظهرت نياتهم كان المخلصون من الصحابة يفرون، ولذلك لم يكن هنالك أي أمل في كسب المعركة. ومن أجل ذلك كان موقف الرسول ﷺ حرجاً، وكانت تلك الساعة من أحرج الساعات وأشدها. وفي هذه اللحظة الحرجة قرر الرسول ﷺ البقاء في ميدان المعركة، وتقدم إلى الميدان واندفع ببغلته البيضاء نحو العدو وكان معه عمه العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فأما أبو سفيان بن الحارث فقد أمسك بخِطام بغلته وحال دون تقدمها، وأما عمه العباس فقد نادى بصوته الجهوري بما أسمع الناس من كل فج. يدعوهم للرجوع فقال: (يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السّمُرَة). وكرر العباس النداء، حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه، وحتى سمعه المسلمون المنهزمون فتذكروا رسول الله ﷺ وتذكروا جهادهم، وسبق إلى تصورهم ما يترتب على هزيمتهم من تغلب المشركين وانتصار الشرك، وأدركوا ما في هذه الهزيمة من قضاء على الدين وعلى المسلمين فتصايحوا من كل صوب يلبون نداء العباس، ورجعوا إلى المعركة يخوضون غمارها ويصطلون بنارها في بسالة نادرة وشجاعة فائقة. وأخذوا يجتمعون حول رسول الله ﷺ، وأخذ عددهم يزداد، ودخلوا في المعركة وتناجزوا مع العدو، وحمي وطيس القتال، والرسول ﷺ يزداد طمأنينة وقد أخذ حفنة من الحصى وألقى بها في وجه العدو قائلاً: «**شاهت الوجوه**». واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله، واشتد القتال وأيقنت هوازن وثقيف أنهما معرضتان للفناء ففروا منهزمين لا يلوون على شيء تاركين وراءهم أموالهم ونساءهم غنيمة للمسلمين. ولاحقهم المسلمون وأسروا منهم عدداً كبيراً كما قتلوا عدداً ضخماً،

وطاردوهم حتى بلغوا وادي أوطاس، وهناك أوقعوا بهم قتلاً وهزموهم شر هزيمة، وفر قائدهم مالك بن عوف إلى الطائف واحتمى بها. وبهذا نصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة، وقد أحصوها يومئذٍ فكانت اثنين وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الشاء، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وقتل من المشركين خلق كثير، كما سُبي من ذراري هوازن ونسائها ستة آلاف نقلوا محروسين إلى وادي الجِعْرانة، وأما قتلى المسلمين فلم يحصَ عددهم. إلا أنهم كانوا كثيرين، فقد ذكرت كتب السيرة أن قبيلتين من المسلمين فنيتا، وأن النبي ﷺ صلّى عليهم. وقد ترك الرسول ﷺ هذه الغنائم وهؤلاء السبي في الجعرانة وحاصر الطائف حيث احتمى مالك بن عوف بعد هزيمته، وطبق الحصار عليها، لكن الطائف كانت لثقيف وكانت مدينة محصنة، وكان أهلها ذوي دراية بحرب الحصار، وذوي ثروة طائلة، وكانت ثقيف على دراية برمي النبال، فرمت المسلمين بالنبال، وقتلت منهم جماعة، ولم يكن من اليسير على المسلمين أن يقتحموا هذه الحصون، ولذلك عسكروا بعيدين عن حصون العدو، وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدوهم، وقد استعان النبي ﷺ ببني دوس لرماية الطائف بالمنجنيق، فجاءوه بعد أربعة أيام من حصاره ومعهم أدواتهم، وهاجم المسلمون مدينة الطائف ورموها

بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم، ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليحرقوه، غير أنهم ما شعروا إلا وقطع من الحديد المحمى بالنار تنـزل عليهم تحرق دباباتهم، ففروا. ذلك أن ثقيفاً قد أحموا قطعاً من الحديد حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، مما اضطر المسلمين أن يفروا فرمتهم ثقيف بالنبل وقتلت جماعة منهم، وبذلك أخفق المسلمون في دخول الطائف، فبدأوا يقطعون الكروم ويحرقونها حتى تسلم ثقيف، ولكنها لم تسلم. وكانت الأشهر الحرم قد بدأت إذ قد هل ذو القعدة، فرجع الرسول ﷺ عن الطائف إلى مكة، ونزلوا الجعرانة حيث تركوا غنائمهم وسبيهم. فجاءه مالك بن عوف بناء على وعد الرسول ﷺ إياه، أنه إن أتاه مسلماً رد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل، جاء مالك فأعلن إسلامه وأخذ ما وعده الرسول ﷺ به. فخاف الناس أن تنقص قسمتهم من الغنائم إن ظل الرسول ﷺ يعطي من يأتيه من هوازن فطلبوا أن تقسم الغنائم بينهم والحوا أن يأخذ كل فيأه، وتهامسوا فيما بينهم في أمر الغنائم حتى بلغ همسهم رسول الله ﷺ، فوقف إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها وقال: «**أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عاراً ونارا وشناراً يوم القيامة**». وأمر أن يرد كل واحد ما أخذه مما غنم حتى تقسم الغنائم بالعدل، ثم خمّس الغنيمة وفَصَلَ الخمسَ لنفسه ووزع الباقي على أصحابه، وأعطى من خمسه الذين كانوا إلى أيام أشدّ الناس عداوة له نصيباً على نصيبهم، فأعطى كل واحد من أبي سفيان، وابنه معاوية، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام

وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وحكيم بن حزام والعلاء بن جارية الثقفي وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس ومالك بن عوف النصري وصفوان بن أمية، مائة من الإبل زيادة على نصيبهم، تألفاً لقلوبهم. وأعطى من كان دون هؤلاء شأناً خمسين من الإبل زيادة على نصيبهم، وقضى لهؤلاء المؤلفة قلوبهم جميع حاجاتهم. وكان عليه الصلاة والسلام في توزيع المال يومئذٍ في غاية السماحة والكرم، وفي منتهى الحنكة والسياسة. ولكن بعض المسلمين لم يدركوا حكمته عليه السلام من هذا الكرم وهذا التوزيع للغنائم، فقد جعل عمله هذا الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض فيما صنع رسول الله ﷺ ويقول بعضهم لبعض "لقي والله رسول الله قومه" وأثر ذلك في نفوسهم، فما كان من سعد بن عبادة إلا أن بلّغ النبي ﷺ هذا القول، فقال له الرسول ﷺ: «**فأين أنت من ذلك يا سعد**». فقال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. وأيد قومه فيما يقولون: فقال له النبي ﷺ: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**»، فجمعهم سعد، فقال لهم الرسول ﷺ: «**يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم**»، فقالوا له: بلى. الله ورسوله أمن وأفضل. فقال الرسول ﷺ: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار**»، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله. لله ولرسوله المن والفضل. فقال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة**

والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». وما أن انتهى من كلامه حتى بكى الأنصار بكاءً شديداً حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم عادوا إلى رحالهم. وبعد ذلك خرج الرسول ﷺ من الجعرانة إلى مكة محرماً بالعمرة هو والجيش، وبعد أن قضى عمرته جعل على مكة عتاب بن أسيد والياً، وجعل معاذ بن جبل فيها يثقف الناس ويفقههم بالإسلام، وعاد هو والأنصار والمهاجرون إلى المدينة.

غـزوة تَبُــوك

اتصل برسول الله ﷺ نبأ من بلاد الروم بأنها تهيئ جيشاً لغزو بلاد العرب الشمالية غزواً ينسي الناس انسحاب المسلمين الماهر في مؤتة، اتصل هذا النبأ مجسماً أيما تجسيم، فقرر أن يواجه هذه القوة بنفسه، وهيأ خطة للقضاء عليها قضاءً يمحو في نفوس سادتها كل أمل في غزو المسلمين، أو التعرض لهم، وكان الوقت أواخر الصيف وأوائل الخريف، والقيظ قد اشتدت حرارته، والشُّقة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة شاقة، تحتاج إلى الـجَلَد وإلى المؤونة، وإلى الماء. وإذَنْ لا بد من مطالعة الناس بهذا الأمر وعدم كتمانه عنهم، ولا بد أن يعلمهم بصراحة أنه يعتزم السير إلى الروم لقتالهم، وهذا يخالف خطته ﷺ التي كان يرسمها في سابق غزواته، فإنه كان يخفي خطته، ويخفي الجهة التي يسير إليها، وكان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي يقصد إليها تضليلاً للعدو، حتى لا يفشو خبر مسيرته. أما هذه المرة فإنه أعلن من أول يوم أنه يريد أن يذهب لقتال الروم في حدود بلادهم، لذلك أرسل في القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ، كيما يعد أكبر جيش يمكن إعداده، وأرسل إلى أغنياء المسلمين يأمرهم بالإنفاق مما آتاهم الله من فضله، لتجهيز جيش كثير العدد والعدة، وأخذ يحرض المسلمين على الانضمام لهذا الجيش. فاستقبل المسلمون هذه الدعوة استقبالاً متبايناً؛ أما الذين أقبلوا على الإسلام بقلوب ممتلئة هدىً ونوراً فقد أقبلوا يلبون دعوة رسول الله ﷺ خفافاً مسرعين، ومنهم الفقير الذي لا يجد الدابة

يحمل نفسه عليها، ومنهم الغني يضع ماله بين يديه يقدمه في سبيل الله عن رضا واطمئنان، ويقدم نفسه بشوق طامعاً في الاستشهاد في سبيل الله، وأما الذين دخلوا في دين الله رغباً ورهباً، رغباً في مغانم الحرب ورهباً من قوة المسلمين، فقد تثاقلوا وبدأوا يلتمسون الأعذار وجعلوا يتهامسون فيما بينهم، ويهزأون بدعوة الرسول ﷺ إياهم لهذا الغزو النائي، في ذلك الجو المحرق. هؤلاء هم المنافقون. وقد كان يقول بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وقد قال الرسول ﷺ للجد بن قيس أحد بني سلمة: «**يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر**»، فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتّني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ. وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولم يقف المنافقون عند حد تباطئهم عن الخروج للقتال بل صاروا يحرضون الناس على التخلف عن القتال، فرأى الرسول ﷺ أن يأخذهم بالشدة، وأن يضرب على أيديهم بكل قسوة، فقد بلغه أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس، ويلقون في نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، فحرق عليهم بيت سويلم، ففر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم الباقون النار وفروا. فكان ذلك درساً لغيرهم لم يجرؤ أحد بعدها على مثل فعلهم. وقد كان للحزم والشدة اللذين سلكهما الرسول ﷺ أثر في تجهيز الجيش، حتى

اجتمع جيش عظيم بلغت عِدته ثلاثين ألفاً من المسلمين، وقد سمي هذا الجيش جيش العسرة، لأنه كلف في شدة القيظ لملاقاة عدو كبير، ولخوض معركة بعيدة عن المدينة، والنفقات الكبيرة التي كان يتطلبها تجهيز مثل هذا الجيش. وقد اجتمع هذا الجيش وقام أبو بكر يؤم الناس بالصلاة في انتظار عود الرسول ﷺ من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته، وقد استخلف الرسول ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، وأصدر ما رأى أن يصدر من الأوامر، ودبر ما ينبغي تدبيره من الأمور. ثم عاد إلى الجيش يتولى قيادته، وأمر فتحرك الجيش وثار النقع وصهلت الخيل واستعرض الجيش أمام أهل المدينة وارتقت النساء سقف البيوت يشهدن هذا الجحفل الجرار يتوجه مخترقاً الصحراء صوب الشام، مستهيناً في سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة. فحرك منظر الجيش وهو يتحرك صوب بلاد العدو يتقدمهم عشرة آلاف فارس حرك منظره بهذه القوة الهائلة بعض نفوس كانت تقاعست عن الانضمام إلى الجيش، فالتحقت بالجيش وانضمت إليه، وسار الجيش قاصداً تبوك، وكانت جيوش الروم معسكرة فيها تستعد لغزو المسلمين، فلما بلغها أمر جيش المسلمين وقوته، وكثرة عدده، وتذكرت حرب المسلمين في مؤتة، وما كانوا عليه من استبسال، ولم يكن جيشهم في هذا العدد الضخم وهذه العدة الهائلة، وزادهم خوفاً أن الرسول ﷺ كان على رأس الجيش، فخافوا من ذلك كثيراً فآثروا الانسحاب بجيوشهم إلى داخل بلاد الشام ليحتموا بحصونهم، وتركوا تبوك كما تركوا جميع حدود الشام من جهة الصحراء، وأمعنوا في انسحابهم إلى داخل البلاد. فلما عرف الرسول ﷺ أمر انسحاب الروم ونمي إليه ما أصابهم من خوف سار حتى وصل تبوك، واحتلها وعسكر

فيها، ولم ير محلاً لتتبع الروم داخل بلاد الشام في ذلك الوقت. فأقام في تبوك مدة تقرب من شهر يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه من أهل تلك المنطقة، ووجه رسالة إلى أمراء القبائل والبلدان التابعين للروم، فأرسل رسالة إلى يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، وإلى أهل جرباء، وأهل أذرح أن يذعنوا أو يغزوهم، فقبلوا الخضوع، وقدموا الطاعة، وصالحوا الرسول ﷺ، وأعطوه الجزية. ثم عاد إلى المدينة فوجد المنافقين قد استغلوا غياب الرسول ﷺ عن المدينة، وأخذوا ينفثون سمومهم، ويركزون قوتهم ليغدروا بالمسلمين، وكان قد بنى جماعة منهم مسجداً بذي أوان بينه وبين المدينة نحو ساعة، وإلى هذا المسجد كان يأوي المنافقون ويحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضِراراً وكفراً، وكانت هذه الجماعة التي بنت المسجد قد طلبت من الرسول ﷺ قبل غزوة تبوك أن يصلي في المسجد فاستمهلهم حتى يعود، فلما عاد وعرف أعمال المنافقين، وأوحي إليه أمر المسجد وحقيقة ما قصد إليه من إقامته، أمر بإحراق المسجد. واشتد على المنافقين. فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائصهم، فخافوا وانزووا ولم تقم لهم بعدها قائمة.

وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه جزيرة العرب كلها، وأمن الرسول ﷺ كل عادية عليها، وأقبلت وفود العرب على الرسول ﷺ تقدم الطاعة وتعلن لله الإسلام.

سيطرة الدولة الإسلامية على جزيرة العرب

بغزوة تبوك ركز النبي ﷺ الناحية الخارجية بتأمين حدود الدولة من جهة، وبـإلقاء الرعب في قلوب أعدائه من جهة أخرى، ووضع الخطة للمسلمين من بعده ليحملوا دعوة الإسلام للعالم خارج جزيرة العرب. وما أن انتهى من غزوة تبوك حتى كان جنوب الجزيرة من اليمن وحضرموت وعُمان قد أقبل على إعلان إسلامه ودخل في طاعة الدولة الإسلامية. وما أن جاءت السنة التاسعة حتى كانت الوفود المتتابعة تعلن إسلامها وإسلام قومها، وبذلك تمت سيطرة الدولة الإسلامية على جميع جزيرة العرب، وتم تأمين ثغورها من جهة الرومان، ولم يبق فيها إلا المشركون الذين لا يزالون على شركهم، والذين يستطيعون أن يحجوا إلى بيت الله الحرام ويعبدوا فيه الأصنام بسبب العهد الذي قطعه الرسول ﷺ للناس ألا يُصَدّ عن البيت أحد جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وإذا كانت الجزيرة كلها قدمت الطاعة لمحمد ﷺ وخضعت لأحكام الدولة الإسلامية فإنّه بقي فيها من يعبد غير الله من المشركين، فهل يتركون على حالهم، وهل يترك بيت الله الحرام يجتمع فيه الناس هذا الاجتماع المتناقض الذي يضم الثائرين على الوثنية والشرك من المسلمين، والمقيمين على الوثنية والشرك من المشركين. وهل يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين متناقضتين حول بيت الله، إحداهما تحطم فيها الأصنام والأخرى تعبد فيها الأصنام التي حطمت، وإذنْ لا بد أن يقضى على هذا الشرك في جميع أنحاء الجزيرة، ولا بد أن يحال بين المشركين

وبين هذا البيت. فنـزلت سورة براءة (التوبة) على النبي ﷺ بعد غزوة تبوك وبعد ذهاب أبي بكر على رأس الحج إلى مكة، فأوفد النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب كي يلحق بأبي بكر ويخطب الناس ويتلو عليهم سورة التوبة، فذهب علي، ولما اجتمع الناس بمنى وقف علي وإلى جانبه أبو هريرة، فنادى علي في الناس ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾... إلى أن وصل قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فلما أتم تلاوة هذه الآيات وقف هنيهة ثم صاح بالناس «**أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان. ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته**»، صاح علي بالناس بهذه الأوامر الأربعة، ثم أجّل الناسَ أربعة أشهر بعد ذلك اليوم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم. ومن يومئذ لم يحج مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، وبهذا تم أمر ربك في جزيرة العرب، بـإقامة كيان الدولة الناشئة على أساس العقيدة الإسلامية. وبنـزول سورة براءة، وبوضع حد للمشركين في جزيرة العرب، تم تكوين الدولة الإسلامية بالقضاء على كل فكر غير الإسلام، وكل كيان غير كيان الدولة، وبالاستعداد لحمل هذه الدعوة إلى العالم.

جهـاز الـدولة الإسـلامية

منذ وصل الرسول ﷺ المدينة حكم المسلمين ورعى شؤونهم وأدار أمورهم، وأوجد المجتمع الإسلامي، وعقد معاهدة مع اليهود، ثم مع بني ضمرة وبني مدلج، ثم مع قريش، ومع أهل أيلة وجرباء وأذرح، وأعطى الناس عهداً أن لا يمنع من البيت حاج، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وأرسل حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وسعد بن أبي وقاص في سرايا لمحاربة قريش، وأرسل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة لمحاربة الروم، وأرسل عبد الرحمن بن عوف لمحاربة دومة الجندل، وأرسل علي بن أبي طالب ثم بشير بن سعد إلى فدك، وأرسل أبا سلمة بن عبد الأسد إلى قطنا بنجد، وأرسل زيد بن حارثة إلى بني سليم ثم إلى جذام ثم إلى بني فزارة في وادي القرى ثم إلى مدين، وأرسل عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من أرض بني عذرة، وأرسل قادة آخرين إلى مناطق مختلفة، وقاد بنفسه الجيوش في غزوات عديدة خاض بها معارك طاحنة. وعين للمقاطعات ولاة، وللبلدان عمالاً، فولى عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها، وبعد أن أسلم باذان بن ساسان ولاه على اليمن، وولى معاذ بن جبل الخزرجي على الجند، وولى خالد بن سعيد بن العاص عاملاً على صنعاء، وزياد بن لبيد بن ثعلبة الأنصاري على حضرموت، وولى أبا موسى الأشعري على زبيد وعدن، وولى عمرو بن العاص على عمان، وولى المهاجر بن أبي أمية على صنعاء، وولى عدي بن حاتم على طيء، وولى

العلاء بن الحضرمي على البحرين. وكان أبو دجانة عاملاً للرسول ﷺ على المدينة، وكان ﷺ حين يولي الولاة يتخيرهم ممن يحسنون العمل فيما يتولونه، ويُشرِبون قلوب من ينـزلون عليهم الإيمان، وكان يسألهم عن الطريقة التي سيسيرون عليها في حكمهم، فقد روي عنه ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل الخزرجي حين بعثه إلى اليمن «**بم تحكم**»، قال بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد**»، قال بسنة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد**»، قال أجتهد رأيي. فقال: «**الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يحبّه الله ورسوله**». وروي عنه ﷺ أنه ولى أبان بن سعيد على البحرين وقال له: «**استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم**».

وكان ﷺ يرسل الولاة من أمثل من دخلوا في الإسلام، وكان يأمرهم بتلقين الذين أسلموا الدين، وأخذ الصدقات منهم، ويسند إلى الوالي في كثير من الأحيان جباية الأموال، ويأمره أن يبشر الناس بالخير، ويعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، ويوصيه أن يلين للناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم، وأن ينهاهم، إذا كان بين الناس هيج، عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقات. وأن من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن عنها. ومما قاله لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**إنّك تَقْدُمُ على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى، فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم، وترد على**

فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم، وَتَوَقَّ كرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». وكان ﷺ يرسل في بعض الأحيان رجلاً مخصوصاً للأموال، فقد كان يبعث كل عام عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر يخرص عليهم ثمرهم. وقد شكوا إلى الرسول ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فجللوا له حلياً من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك وخففْ عنا، وتجاوزْ في القسم. فقال عبد الله: (يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، وأما ما عرضتم من الرشوة فإنها السحت وإنا لا نأكلها)، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض. وكان ﷺ يكشف عن حال الولاة والعمال، ويسمع ما ينقل إليه من أخبارهم، وقد عزل العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين لأن وفد عبد قيس شكاه. وكان عليه الصلاة والسلام يستوفي الحساب على العمال ويحاسبهم على المستخرج والمصروف. وقد استعمل رجلاً على الصدقات (الزكاة) فلما رجع حاسبه فقال: (هذا لكم وهذا أهدي لي)، فقال النبي ﷺ: «**ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فننظر أيهدى إليه أم لا**»، وقال: «**من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول**»، وشكا أهل اليمن من تطويل معاذ في الصلاة فزجره وقال: «**من أم في الناس فليخفف**». وكان ﷺ يولي قضاة يقضون بين الناس فقد عين علي بن أبي طالب قاضياً على اليمن، وعين عبد الله بن نوفل قاضياً على المدينة، وأنفذ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري قاضيين إلى اليمن، وقال لهما: «**بم تحكمان**»، فقالا: إن لم نجد الحكم في الكتاب ولا السنة قسنا الأمر بالأمر، فما كان أقرب إلى الحق عملنا به. وقد أقرهما النبي ﷺ على ذلك، مما يدل

على أنه كان يتخير القضاة ويتثبت من طريقتهم في القضاء. ولم يكتف بتعيين القضاة بل كان يُعنى بالمظالم.

وكان ﷺ يدير مصالح الناس ويعين كُتاباً لإدارة هذه المصالح، وكانوا بمقام مديري الدوائر، فكان علي بن أبي طالب كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح، وكان المعيقيب على خاتمه، وكان معيقيب بن أبي فاطمة أيضاً كاتباً على الغنائم، وكان حذيفة بن اليمان يكتب خرص ثمار الحجاز، وكان الزبير بن العوام يكتب أموال الصدقات، وكان المغيرة بن شعبة يكتب المداينات والمعاملات، وكان شرحبيل بن حَسَنة يكتب التوقيعات إلى الملوك. وكان يعين لكل مصلحة من المصالح كاتباً أي مديراً مهما تعددت هذه المصالح.

وكان ﷺ كثير المشاورة لأصحابه، وما انفك عن استشارة أهل الرأي والبصيرة، ومن شهد لهم بالعقل والفضل، وأبانوا عن قوة وإيمان، وتفان في بث دعوة الإسلام، وكانوا سبعة عن الأنصار وسبعة عن المهاجرين، منهم حمزة، وأبو بكر، وجعفر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وسليمان، وعمار، وحذيفة، وأبو ذر، والمقداد، وبلال، وكان يستشير أيضاً غير هؤلاء، إلا أن هؤلاء كانوا أكثر من يرجع إليهم في الرأي، فكانوا بمثابة مجلس يرجع إليه في الشورى.

وكان ﷺ قد وضع على المسلمين وعلى غيرهم وعلى الأرَضين والثمار والماشية أموالاً، هي الزكاة، والعشر، والفيء، والخراج، والجزية، وكانت الأنفال والغنائم من الأموال التي لبيت المال، وكان يوزع الزكاة على الأصناف الثمانية الذين ذكروا في القرآن ولا يعطي غيرهم منها شيئاً، ولا يدير شؤون الدولة بشيء منها، وكانت إدارة شؤون الناس ينفق عليها

من الفيء والخراج والجزية والغنائم، وكانت تكفي لإدارة الدولة وتجهيز الجيش، و لم تكن الدولة تشعر أنها بحاجة إلى مال.

وهكذا أقام الرسول ﷺ جهاز الدولة الإسلامية بنفسه، وأتمه في حياته، فقد كان للدولة رئيس، وكان له معاونون، وولاة، وقضاة، وجيش، ومديرو دوائر، ومجلس يرجع إليه في الشورى. وهذا الجهاز في شكله وصلاحياته طريقة واجبة الاتباع، وهو إجمالاً ثابت بالتواتر. وقد كان ﷺ يقوم بأعمال رئيس الدولة منذ أن وصل المدينة حتى وفاته ﷺ، وكان أبو بكر وعمر معاونيْن له، وأجمع الصحابة من بعده على إقامة رئيس للدولة يكون خليفة للرسول ﷺ في رئاسة الدولة فقط، لا في الرسالة ولا في النبوة، لأنها ختمت به ﷺ. وهكذا أقام الرسول ﷺ جهاز الدولة كاملاً في حياته وترك شكل الحكم وجهاز الدولة معروفيْن وظاهريْن كل الظهور.

موقف اليهود من الدولة الإسلامية

لم يكن اليهود شيئاً يعتد به أمام الرسول ﷺ، وإنما كان الشيء الذي يعتد بمقاومته هم العرب بوجه عام، وقريش بوجه خاص، ولذلك عاهد الرسول ﷺ اليهود معاهدات تنص على خضوعهم له، وعلى وجوب ابتعادهم عن كل من يقف ضده، إلا أنهم وقد رأوا دولة الإسلام تنمو وسلطان المسلمين يمتد أخذوا يهاجمون المسلمين بالجدل والطعن، فلما كانت معركة بدر وكان النصر فيها للمسلمين شعر اليهود بالخطر عليهم فصاروا يطعنون بالمسلمين ويأتمرون بالرسول ﷺ وكانت أخبار اليهود تصل للرسول ﷺ وللمسلمين وصارت النفوس تمتلئ بالغل والضغينة وصار كل من اليهود والمسلمين يتربصون ببعضهم الدوائر، وقد ازدادت وقاحة اليهود فكان أبو عفك أحد يهود بني عمرو بن عوف يرسل الأشعار يطعن بها على محمد ﷺ وعلى المسلمين. وكانت عصماء بنت مروان تعيب الإسلام وتؤذي النبي ﷺ وتحرض عليه، وكان كعب بن الأشرف يشبب بنساء المسلمين، ويذهب إلى مكة ينشد الأشعار ويحرض على محمد ﷺ، فلم يطق المسلمون صبراً على ذلك فقتلوهم حتى ينـزجر اليهود، ولكنهم مع خوفهم زاد أذاهم، فطلب إليهم الرسول ﷺ أن يكفوا عن أذى المسلمين، وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش، فاستخفوا بوعيده وأجابوه: (لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) فلم يبق

بعد ذلك إلا مقاتلتهم، فخرج المسلمون وحاصروا بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد حتى لم يبق لهم إلا النـزول على حكم محمد ﷺ والتسليم بقضائه. ثم كان أن سمح لهم أن يجلوا عن المدينة فأجلوا عنها، حتى بلغوا وادي القرى فأقاموا هناك زمناً ومن هناك احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام، فضعفت بـإجلائهم شوكة اليهود وصاروا يظهرون الخضوع للمسلمين، إلا أن ذلك كان خوفاً من القوة والبطش. ولما حانت لهم الفرصة تحركوا ثانية، فانهم لما غُلب المسلمون بأحد تحركت الأحقاد في نفوسهم وائتمروا بالرسول ﷺ ليقتلوه وقد أحس الرسول ﷺ بنياتهم، فرأى أن يستدرجهم ليعرف نواياهم، فذهب هو وعشرة من كبار المسلمين، بينهم أبو بكر وعمر وعلي إلي بني النضير فأظهروا البِشْر والغبطة، ولكن الرسول ﷺ ما لبث أثناء تبسط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون، ويذهب أحدهم إلى ناحية، ويدخل أحدهم البيت الذي كان الرسول ﷺ مستنداً إلى جداره، إذ ذاك رابه أمرهم، وزاده ريبة ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به؛ لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره. وحينئذٍ أُسقط في يد اليهود واختلط عليهم الأمر وصاروا يحاولون استرضاء المسلمين، لكن أصحاب الرسول استبطؤوه فقاموا في طلبه فوجدوه قد ذهب إلى المسجد، فذهبوا إليه فذكر لهم ما رابه من أمر اليهود. وبعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يأمرهم أن يخرجوا من بلاده، وأجّلهم عشرة أيام ثم حاصرهم وأخرجهم فخرجوا ونزل منهم بخبير من نزل وسار آخرون إلى أذرعات بالشام. وبذلك تم تطهير المدينة من فتنة اليهود، ولم يبق إلا بنو قريظة،

فإنهم لم ينقضوا العهد فلم يتعرض لهم النبي ﷺ، ولكنهم حين رأوا ما حل ببني قينقاع وبني النضير أظهروا المودة، غير أن ذلك كان مؤقتاً حين رأوا البطش وخافوا من قوة المسلمين، حتى إذا سنحت لهم الفرصة ورأوا الأحزاب قد جاءت للقضاء على المسلمين سمع بنو قريظة كلام حيي بن أخطب، ونقضوا عهدهم، واستعدوا لاستئصال المسلمين، وأظهروا من الخبث والغدر ما يعد أخبث نقض للعهد، ولذلك بادأهم الرسول ﷺ بعد ذهاب الأحزاب فذهب إليهم هو والمسلمون وحاصرهم مدة خمس وعشرين ليلة، ولم يجرؤ اليهود أن يخرجوا طول مدة الحصار، ولما أيقنوا أن لن تغني عنهم حصونهم بعثوا للرسول ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا، وكان أبو لبابة من الأوس حلفائهم في الجاهلية، فلما رأوه قام إليه الرجال وأجهش النساء والصبيان بالبكاء حتى رق لهم. فقالوا له أترى يا أبا لبابة أن ننـزل على حكم محمد، قال نعم وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح، فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد عليهم آراء لم يقبلوها، فقال لهم: لم يبق إلاّ أن تنـزلوا على حكم محمد، فبعثوا إلى محمد ﷺ يعرضون عليه الخروج إلى أذرعات تاركين وراءهم ما يملكون، فأبى ذلك عليهم إلاّ أن ينـزلوا على الحكم، فاستشفعوا بالأوس فجاءوا يشفعون لهم، فقال الرسول ﷺ: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم**»؟ قالوا: بلى. قال رسول الله ﷺ: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**». فأخذ سعد المواثيق على الفريقين أن يسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به. فلما أعطوه المواثيق أمر بني قريظة أن ينـزلوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا، فحكم سعد فيهم أن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء، فلما سمع الرسول ﷺ هذا الحكم قال: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة**

أرقعة». ثم خرج إلى سوق المدينة فأمر فحفرت بها خنادق ثم جيء باليهود ارسالاً فضربت أعناقهم وفي هذه الخنادق دفنوا. وقسم النبي ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس وأبقى من الغنائم ما أرسل به سعد بن زيد الأنصاري إلى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادة في قوة المسلمين الحربية.

وبذلك قضى على بني قريظة، إلا أنه لم يقض على جميع اليهود. وكانت هناك خيبر وكانت أقوى قبائل اليهود ولم تكن قد دخلت مع الرسول ﷺ في حلف، وكانت قد تواطأت مع قريش على الرسول ﷺ قبل صلح الحديبية، وكان وجودها أيضاً شوكة في جانب الدولة، وما أن أتم الرسول ﷺ معاهدة الحديبية حتى استعد لأن يضرب خيبر ضربة قاضية، فأمر الناس بالتجهز لغزو خيبر، وانطلق المسلمون في ألف وستمائة رجل، ومعهم مائة فارس، كلهم واثق بنصر الله، وذهبوا إلى خيبر ووقفوا أمام حصون خيبر متأهبين كاملي العدة، وتشاور اليهود فيما بينهم، فأشار عليهم سلام بن مشكم فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصني الوطيح والسلالم، وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب حصن نطاة، ودخل سلام بن مشكم معهم يحرضهم على الحرب، والتقى الجمعان حول حصن نطاة حيث المقاتلة وأهل الحرب، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى قيل إن عدد الجرحى من المسلمين في هذا اليوم بلغ خمسين. وتوفي سلام بن مشكم، فتولى الحارث بن أبي زينب قيادة اليهود، وخرج من حصن ناعم حيث الذخائر يريد منازلة المسلمين فدحره بنو الخزرج واضطروه إلى الارتداد إلى الحصن على أعقابه، وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر، واليهود

يستميتون في الدفاع، وتتابعت الأيام فبعث الرسول ﷺ أبا بكر إلى حصن ناعم كي يفتحه فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن، وبعث عمر بن الخطاب في الغداة فكان حظه كحظ أبي بكر فقال رسول الله ﷺ: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرّار**»، فدعا إليه علي بن أبي طالب ثم قال له: «**خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك**»، ومضى علي بالراية فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فتترس به، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن، ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية الحصن. وبعد حصن ناعم فتح المسلمون الحصون واحداً واحداً حتى انتهوا إلى الوطيح والسلالم وكانا آخر حصنين منيعين، هنالك استولى اليأس على نفوس اليهود فطلبوا الصلح على أن يحقن محمد ﷺ دماءهم، فقبل الرسول ﷺ ذلك وأبقاهم على أرضهم التي آلت له بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم. وبذلك خضعت خيبر، ثم سمع اليهود من أهل فدك بخيبر فدب الرعب في قلوبهم فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال، وتجهز الرسول ﷺ للعودة إلى المدينة عن طريق وادي القرى، وفي طريقه قَبِل يهود تيماء الجزية من غير حرب ولا قتال، وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي ﷺ وانتهى كل ما كان لهم من سلطان، فصار الرسول ﷺ بمأمن في جزيرة العرب. واستقر سلطانه فاطمأن إلى الداخل كل الاطمئنان.

استمرار الدولة الإسلامية

توفي الرسول ﷺ فأجمع الصحابة على بيعة خليفة له في رئاسة الدولة، وظل المسلمون يقيمون رئيساً للدولة حتى سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م، وكانوا يسمونه الخليفة، أو أمير المؤمنين، أو الإمام أو السلطان، ولا يكون أي شخص خليفة إلا بالبيعة. وسارت الدولة الإسلامية طوال أيامها حتى آخر خليفة، أي حتى نهاية الدولة الإسلامية، في هذا السبيل، لا يكون الشخص خليفة إلا بالبيعة. وقد تنوع تطبيق البيعة. فبويع الخليفة مباشرة، وعهد إلى غيره من غير أقاربه، وعهد إلى ابنه أو أحد أقاربه، وعهد إلى أكثر من واحد من الموجودين من أهله، لكن هذا العهد لم يكن وحده الذي يجعله خليفة بل كان يأخذ البيعة حين يتولى الخلافة، ولا يوجد خليفة تولى رئاسة الدولة دون بيعة. وقد تنوع أخذ البيعة فأخذت من أهل الحل والعقد، وأخذت من الناس، وأخذت من شيخ الإسلام، وكان يساء أخذها أحياناً، ولكنها كانت بيعة، ولم تكن ولاية عهد يستحق بها الخلافة، وكان كل خليفة يعين معه معاونين أطلق عليهم في بعض العصور أنهم وزراء، أي معاونون، وكان الخليفة يعين الولاة، وقاضي القضاة، وقواد الجيش، ومن يتولون دوائر الدولة، وهكذا استمر شكل الحكم في جميع العصور، كما هو لم يتغير بالنسبة لوضعه أي شيء منه. فتكون الدولة الإسلامية قد استمر قيامها حتى هدمها الكافر المستعمر حين قضى على الدولة العثمانية وقسم العالم الإسلامي إلى دويلات.

لقد حصلت في الدولة الإسلامية عدة حوادث داخلية في مختلف العصور، و لم يكن حدوثها ناجماً عن دوافع غير إسلامية، وإنما كان عن فهم إسلامي للوضع الذي كان قائماً حين حدوثها، فقام هؤلاء الفاهمون للوضع القائم يعملون حسب فهمهم لتصحيحه تصحيحاً يتفق مع ما يفهمون، وكلهم مجتهد يفهم معالجة الوضع بطريقة غير الطريقة القائمة، وكلاهما فهم إسلامي ورأي إسلامي، ولهذا نجد الخلاف دائراً على شخص الخليفة، لا على مركز الخلافة، وعلى من يكون في الحكم، لا على شكل الحكم، والخلاف محصور في الفروع والتفاصيل لا في الأصول ولا في الخطوط العريضة، و لم يختلف أحد من المسلمين على الكتاب والسنة، وإنما اختلفوا في فهمهما، و لم يختلفوا في نصب خليفة، وإنما اختلفوا فيمن يكون خليفة، و لم يختلفوا في وجوب تطبيق الإسلام كله وحمله إلى العالم. وساروا كلهم على هذا الأساس ينفذون أحكام الله، ويدعون الناس إلى دين الله، نعم إن بعضهم أساء تطبيق بعض أحكام الإسلام عن سوء فهم، وبعضهم أساءه عن سوء قصد، ولكنهم جميعاً كانوا يطبقون الإسلام ليس غير، وكانوا جميعاً يقيمون علاقاتهم مع غيرهم من الدول والشعوب والأمم على أساس الإسلام وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم، ولذلك لم تحل الخلافات الداخلية دون امتداد الفتوحات، و لم تقف دون نشر الإسلام، وظلت الدولة الإسلامية تفتح البلدان لنشر الإسلام طوال أيامها حتى القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي، ففتحت فارس والهند والقفقاس إلى أن وصلت حدود الدولة الإسلامية إلى الصين وروسيا حتى ما وراء بحر قزوين شرقاً، وفتحت الشام شمالاً ومصر وشمالي إفريقيا وإسبانيا غرباً، كما فتحت الأناضول والبلقان وجنوب أوروبا وشرقها حتى شمال البحر الأسود

بما في ذلك القرم وجنوب أوكرانيا، وتقدمت جيوش الدولة حتى وصلت إلى أسوار فينا في النمسا. ولم تقعد عن الفتوحات وعن حمل الدعوة الإسلامية إلا حين بدأ يدب الوهن إليها، وظهر عليها سوء فهم الإسلام، وقد وصل ضعفها في فهم الإسلام حداً كبيراً أدى إلى اضطراب تطبيقها للإسلام، وإلى استعانتها في استعارة ما تعتقد أنه لا يخالفه من الأنظمة الأخرى فقضي عليها.

ولقد كان سير الدولة متمشياً مع قوتها الفكرية، وتوفر قوة الإبداع والاجتهاد فيها، فهي في القرن الأول امتدت فتوحاتها، وتوسع الاجتهاد فيها، وواجهت مشاكل جديدة في البلاد المفتوحة استنبطت لها حلولاً، وأدى تطبيق الأحكام الشرعية على المسائل الجديدة التي حدثت في فارس والعراق والشام ومصر وإسبانيا والهند والقفقاس وغيرها إلى أن يدخل أهل هذه البلاد جميعها في جملتهم في حظيرة الإسلام، مما يدل على صدق الاستنباط وقوة الإبداع والاجتهاد. إذ الإسلام مقطوع بصحته، وفهمه فهماً صحيحاً هو الذي يؤدي إلى رؤية الناس له مشرقاً في تطبيقه وفي تعليم أحكامه. وقد استمر هذا الإبداع والاجتهاد والاستنباط حتى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فأخذ الإبداع يضعف والاجتهاد يقل، فأدى ذلك إلى ضعف كيان الدولة، ثم كانت الحروب الصليبية فشغل المسلمون بها إلى أن انتهت بانتصار المسلمين، فجاء المماليك وحكموا وهم لا يُقَدِّرون الاجتهاد، ولا يُعنَوْن بالأفكار، فزاد الضعف الفكري واستتبعه الضعف السياسي. وزاد الطين بلة غزو التتار وطرحهم كتب الإسلام في دجلة وقضاؤهم على ثروة فكرية هائلة، فكان هذا الضعف الفكري الذي

أوقف الاجتهاد. واقتصر بحث المسائل المستجدة على إصدار الفتاوى، وتأويل النصوص، فهبط المستوى الفكري في الدولة، وأدى إلى هبوط المستوى السياسي. ثم جاء العثمانيون وتسلموا الحكم في الدولة الإسلامية، وشغلوا بالقوة العسكرية وبالفتوحات، ففتحوا استانبول والبلقان واندفعوا في أوروبا اندفاعاً قوياً جعلهم الدولة الأولى في العالم. ولكن المستوى الفكري لم يرتفع، لم تزد هذه القوة العسكرية عن وثبة ليس لها سند فكري، ما لبثت أن انحسرت قواها عن البلدان الإسلامية شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت. ولكنها كانت على أي حال تحمل الدعوة الإسلامية، وتنشر الإسلام، وقد دخل من أهل البلدان المفتوحة الملايين من الناس في الإسلام ولا يزالون مسلمين.

نعم لقد كان تعدد فهم الإسلام وعدم تبني الخليفة أحكاماً معينة في نظام الحكم مع أنه تبنى في الاقتصاد وغيره أحكاماً معينة، لقد كان لذلك أثر في تمكين بعض الحكام من الخلفاء والولاة من توجيه الحكم وجهة تؤثر في وحدة الدولة وفي قوتها، ولكن ذلك لم يؤثر في وجودها، فقد كانت الولاية العامة للولاة واعطاؤهم صلاحيات واسعة نيابة عن الخليفة سبباً في تحرك أحاسيس السيادة فيهم، فصاروا شبه مستقلين في الولاية، واكتفوا ببيعة الخليفة، والدعاء له على المنابر، وضرب النقد باسمه، وما شاكل ذلك من الأمور الشكلية. وبقي أمر الحكم في أيديهم، مما جعل هذه الولايات شبه دول مستقلة، مثل الحمدانيين والسلجوقيين وغيرهم. إلاّ أنّ الولاية العامة لم تؤثر في وحدة الدولة باعتبارها ولاية عامة، فقد كانت ولاية عمرو بن العاص في مصر ولاية عامة، وولاية معاوية بن أبي سفيان في الشام ولاية

عامة، ومع ذلك لم ينفرد الوالي عن الخليفة بشيء، وظلت وحدة الدولة محفوظة لقوة الخلفاء، ولكن لما ضعف الخلفاء وقبلوا من الولاة هذا الوضع، حصل هذا المظهر في الولايات، وهو مظهر الدولة في الولاية مع كونها ولاية تابعة وجزءاً من كيان الدولة. وبالرغم من كل ذلك فقد ظلت الدولة وحدة واحدة، فالخليفة هو الذي يعين الوالي ويعزله، ومهما بلغت قوة الوالي لم يكن يجرؤ على عدم الاعتراف بالخليفة ولم تكن الدولة الإسلامية في يوم من الأيام اتحاد ولايات، حتى في اشد عهود استقلال الولاة، وإنما كانت دولة واحدة لها خليفة واحد، هو وحده صاحب الصلاحية في كل ناحية من نواحي الدولة، في المركز، والولايات، والمدن، والقرى، والدساكر على السواء.

أما ما حصل من وجود خلافة في الأندلس، ونشوء دولة الفاطميين في مصر، فإن أمره يختلف عن موضوع الولاة. ذلك أن الأندلس قد استولى عليها الولاة واستقلوا بها ولم يبايع الوالي خليفة للمسلمين وإنما سمي فيما بعد بالخليفة لأهل تلك الولاية لا للمسلمين عامة، وظل خليفة المسلمين واحداً وظل الحكم له، وبقيت ولاية الأندلس ينظر إليها كولاية غير داخلة في حكم الخليفة كما كانت الحال في إيران أيام الدولة العثمانية، فلم يكن فيها خليفة ثان وإنما كانت ولاية غير داخلة في حكم الخليفة. وأما الدولة الفاطمية فقد أقامتها فرقة الإسماعيلية، وهي من الفرق الكافرة، فلا يعتد بفعلها، ولا تعتبر دولتهم دولة إسلامية أو خلافة إسلامية، ولا تعتبر إقامتها مع وجود الخلافة العباسية تعدداً للخلافة، لأنها ليست خلافة شرعية، وهي عبارة عن محاولة انقلابية قامت بها هذه الفرقة الباطنية لتغيير الدولة

الإسلامية إلى دولة تسير حسب أحكامهم الباطلة. وعليه فإن الدولة الإسلامية استمرت في الحكم دولة واحدة ووحدة واحدة، لم تتجزأ، ولم تكن دولاً، وإنما كانت محاولات للوصول إلى الحكم رغبة في تنفيذ فهم معين للإسلام في شؤون الحكم، ثم انتهت وظلت الخلافة واحدة وظلت الدولة الإسلامية وحدة واحدة. ومما يدل كذلك على وحدة الدولة الإسلامية رغم تعدد أوضاع الحكم أن المسلم كان ينتقل من بلد إلى بلد من مشارق الأرض إلى مغاربها، في البقاع التي يسود فيها الإسلام، ولم يكن يسأل عن بلده، ولا عن السماح له بالتجول؛ لأن بلاد الإسلام واحدة. وهكذا ظلت الدولة الإسلامية تجمع المسلمين في وحدة واحدة، وظلت دولة إسلامية. واستمرت هذه الدولة قوية مندفعة في مختلف العصور، حتى قضى عليها الكافر المستعمر بوصفها دولة إسلامية سنة ١٩٢٤ حين أزال الخلافة الإسلامية من الوجود على يد كمال أتاتورك.

السياسة الداخلية للدولة الإسلامية

السياسة الداخلية للدولة الإسلامية هي تنفيذ أحكام الإسلام في الداخل، وقد كانت الدولة الإسلامية تنفذ أحكام الإسلام في البلاد التي تخضع لسلطانها، فتنظم المعاملات، وتقيم الحدود، وتنفذ العقوبات، وتحرس الأخلاق، وتضمن القيام بالشعائر والعبادات، وترعى جميع شؤون الرعية حسب أحكام الإسلام. وقد بين الإسلام الكيفية التي تنفذ بها أحكامه على الناس الذين يخضعون لسلطانه، ممن يعتنقونه، وممن لا يعتقدون به، فكانت الدولة الإسلامية تطبق أحكام الإسلام حسب هذه الكيفية، لأن طريقة التنفيذ حكم شرعي، كما أن معالجات المشاكل حكم شرعي. والمخاطبون بالإسلام هم جميع الناس؛ لأن الله قد خاطب بالإسلام جميع بني الإنسان بوصف الإنسانية فقط لا بأي وصف آخر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ وقد اعتبر علماء أصول الفقه أن المخاطب بالأحكام الشرعية هو كل عاقل يفهم الخطاب، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، وقد قال الغزالي في كتاب المستصفى من علم الأصول: (إن المحكوم عليه هو المكلف، وشرطه أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب... وأما أهلية ثبوت الأحكام في الذمة فمستفاد من الإنسانية التي بها يستعد لقبول قوة العقل الذي به فهم التكليف). وعلى ذلك كان المخاطب بالإسلام جميع بني الإنسان خطاب دعوة وخطاب تكليف، أما

خطاب الدعوة فالمقصود به دعوة الناس إلى اعتناق الإسلام، وأما خطاب التكليف فالمقصود به إلزام الناس بالعمل بأحكام الإسلام. هذا بالنسبة للناس عامة، أما بالنسبة للذين تحكمهم الدولة الإسلامية فإن الإسلام يعتبر الجماعة التي تحكم بموجب هذا النظام وحدة إنسانية، بغض النظر عن طائفتها وجنسها ولا يشترط فيها إلا التابعية (وهي الولاء للدولة والنظام) ولا توجد فيه الاقليات، بل جميع الناس باعتبار إنساني فقط هم رعايا في الدولة الإسلامية، ما داموا يحملون التابعية. فكل من يحمل تابعية الدولة يتمتع بالحقوق التي قررها الشرع له، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، وكل من لا يحمل التابعية يحرم من هذه الحقوق ولو كان مسلماً، فلو أن رجلاً مسلماً له أم نصرانية تحمل التابعية الإسلامية، وله أب مسلم لا يحمل التابعية الإسلامية، فإن أمه تستحق النفقة منه ولا يستحقها أبوه فلو طلبت أمه نفقة منه حكم لها القاضي بالنفقة لأنها تحمل التابعية أما لو طلب أبوه منه نفقة لا يحكم له القاضي بالنفقة ويرد دعواه؛ لأنه لا يحمل التابعية. فهو قد اعتبر الجماعة التي تحكم بالإسلام رعية، وجعل التابعية هي الجامعة بينهم في استحقاقهم رعاية شؤونهم بالإسلام، ويصبحون يعيشون في دار الإسلام.

هذا بالنسبة للنظرة إليهم من ناحية الحكم ورعاية الشؤون، أما من ناحية تطبيق أحكام الإسلام فإنها تأخذ الناحية التشريعية القانونية لا الناحية الروحية، وذلك أن الإسلام ينظر للنظام المطبق عليهم باعتبار تشريعي قانوني لا باعتبار ديني روحي، أي باعتبار الأحكام الشرعية لا باعتبار ناحية التدين، وذلك لأن النصوص الشرعية تلاحظ فيها الناحية التشريعية، لأن النص قد جاء لمعالجة المشكلة، والشارع قصد اتباع المعاني لا الوقوف على

النصوص، ولذلك يراعى في استنباط الأحكام وجه العلة من الحكم، أي تراعى في النص حين استنباط الحكم الناحية التشريعية. وهذا التشريع حين يأمر به خليفة المسلمين يصبح قانوناً يجب تنفيذه على الجميع. ومن هنا كان خضوع الناس جميعاً في الدولة الإسلامية للأحكام الشرعية أمراً حتمياً: فالذين يعتقدون الإسلام ــ أي المسلمون ــ يكون اعتناقهم له واعتقادهم به هو الذي يلزمهم بجميع أحكامه؛ لأن التسليم بالعقيدة تسليم بجميع الأحكام المنبثقة عنها، فكان اعتقادهم ملزماً لهم بجميع ما أتت به هذه العقيدة إلزاماً حتمياً، ولذلك كان الإسلام بالنسبة للمسلمين شريعة منها التشريع، أي ديناً منه القانون، وهم مجبرون على القيام بجميع أحكامه، سواء المتعلقة بعلاقتهم بالله وهي العبادات، أو المتعلقة بعلاقتهم بأنفسهم وهي الأخلاق والمطعومات، أو المتعلقة بغيرهم وهي المعاملات والعقوبات. والمسلمون متفقون في العقيدة الإسلامية، وفي أن الكتاب والسنة هما مصدر الأدلة الشرعية والقواعد الشرعية، والأحكام الشرعية، ولا يختلف أحد منهم في ذلك مطلقاً، ولكنهم بحكم الاجتهاد مختلفون في فهم الكتاب والسنة، فكانوا من جراء هذا الاختلاف في الفهم مذاهب مختلفة، وفرقاً متعددة، وذلك أن الإسلام جعل المسلمين يجتهدون في استنباط الأحكام، وبطبيعة تفاوت الأفهام حصل الاختلاف في فهم الأفكار المتعلقة بالعقائد، وفي كيفية الاستنباط، وفي الأحكام والآراء المستنبطة. فأدى ذلك إلى وجود الفرق والمذاهب. وقد حث الرسول ﷺ على الاجتهاد وبين أن الحاكم إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران اثنان، وفتح الإسلام باب الاجتهاد؛ ولذلك لم يكن عجيباً أن يكون هنالك أهل السنة والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية، ولم يكن غريباً أن يكون هنالك

الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة والجعفرية والزيدية وغيرهم من المذاهب الإسلامية، وجميع الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية تعتنق عقيدة واحدة هي العقيدة الإسلامية، وجميعهم مخاطبون باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، ومأمورون باتباع الحكم الشرعي لا اتباع مذهب معين، وما المذهب إلاّ فهم معين للحكم الشرعي يقلده غير المجتهد حين لا يستطيع الاجتهاد، فالمسلم مأمور بالحكم الشرعي لا بالمذهب، يأخذ هذا الحكم بالاجتهاد إن كان قادراً عليه، ويأخذه بالاتباع أو التقليد إن كان غير قادر على الاجتهاد. وعلى ذلك فإن جميع الفرق والمذاهب التي تعتقد العقيدة الإسلامية وتعتقد بالكتاب والسنة وأنهما وحدهما مصدر الأدلة الشرعية والقواعد الشرعية والأحكام الشرعية، هذه الفرق والمذاهب كلها مسلمة، وهؤلاء جميعهم يعتبرون مسلمين، وتنفذ عليهم أحكام الإسلام، وعلى الدولة ألا تتعرض لهذه الفرق الإسلامية، ولا لأتباع المذاهب الفقهية، ما دامت لا تخرج عن عقيدة الإسلام، أما إذا خرجت عن عقيدة الإسلام أفراداً أو جماعات فإنها تعتبر ذلك ارتداداً عن الإسلام، وتطبق عليهم أحكام المرتدين. والمسلمون مطالبون بجميع أحكام الإسلام، إلا أن هذه الأحكام منها ما هو قطعي ليس فيه إلا رأي واحد كقطع يد السارق، وتحريم الربا، ووجوب الزكاة، وكون الصلوات المفروضة خمساً، وما شاكل ذلك، فإن هذه الأحكام تنفذ على جميع المسلمين في فهم واحد لأنها قطعية.

وهناك أحكام وأفكار وآراء قد اختلف المسلمون في فهمها، وفهمها كل مجتهد خلاف فهم الآخر، مثل صفات الخليفة، وأخذ العشر على الأرض الخراجية، وإجارة الأرض، وغير ذلك، فهذه الأحكام المختلف فيها

يتبنى الخليفة رأياً منها فتصبح طاعته واجبة على الجميع، وحينئذٍ على كل من يفهم رأياً غير الرأي الذي أمر به الإمام أن يترك رأيه ويعمل برأي الإمام فقط، لأن أمر الإمام يرفع الخلاف، وطاعة الإمام في ذلك واجبة، ويجب أن ينفذ المسلمون جميعاً أمر الخليفة فيما يتبناه من أحكام، لأن أمره نافذ ظاهراً وباطناً أي في السر والعلانية، ويأثم كل من عمل بحكم شرعي غير الحكم الذي تبناه الإمام وأمر به، لأنه بعد أمر الخليفة يعتبر الحكم الشرعي في حق المسلمين هو ما أمر به الإمام، وما عداه لا يعتبر حكماً شرعياً بحق المسلمين. لأن الحكم الشرعي في المسألة الواحدة لا يتعدد بحق الشخص الواحد. إلا أن الخليفة لا يتبنى شيئاً في العقائد، لأن هذا التبني يجعل الحرج على المسلمين فيما يعتقدون. إلا أنه إذا ظهر أهل بدع وأهواء بعقائد غير صحيحة فإن الدولة تتولى تأديبهم بعقوبات زاجرة إذا كانت هذه العقائد لا يكفر معتقدها، أما إذا كانت مما يكفر معتقدها فيعاملون حينئذٍ معاملة المرتدين. وكذلك لا يتبنى الخليفة شيئاً في العبادات لأن هذا التبني يجعل المشقة على المسلمين في عباداتهم؛ ولذلك لا يأمر برأي معين في العقائد مطلقاً ما دامت العقيدة إسلامية، ولا يأمر بحكم معين في العبادات ما عدا الزكاة والجهاد وتحديد العيدين، ما دامت هذه العبادات أحكاماً شرعية، ويتبنى فيما عدا ذلك في المعاملات جميعها، من بيع وإجارة وزواج وطلاق ونفقة وشركة وكفالة...الخ وفي العقوبات جميعها من حدود وتعزير، وفي المطعومات والملبوسات والأخلاق، وعلى المسلمين أن يطيعوه فيما تبناه.

نعم إن الخليفة ينفذ أحكام العبادات فيعاقب تارك الصلاة والمفطر في رمضان، وينفذ جميع أحكام العبادات، كما ينفذ سائر الأحكام سواء

بسواء، وهذا التنفيذ هو واجب الدولة، لأن وجوب الصلاة ليس مجال اجتهاد ولا يعتبر تبنياً في العبادات، وإنما هو تنفيذ لحكم شرعي مقطوع به عند الجميع، ويتبنى لتنفيذ العقوبات على العبادات رأياً شرعياً يلزم الناس بالعمل به، كما يتبنى لتنفيذ العقوبات على أي حكم من سائر الأحكام. هذا بالنسبة للمسلمين. وأما غير المسلمين الذين يعتنقون عقيدة غير العقيدة الإسلامية فهم:

١ ـ أبناء المرتدين الذين ولدوا بعد ارتداد آبائهم، فإنهم يعاملون معاملة غير المسلمين حسب وضعهم الذين هم عليه من كونهم مشركين أو أهل كتاب.

٢ ـ الذين يدعون أنهم مسلمون ويعتقدون عقيدة تناقض عقيدة الإسلام فهؤلاء يعاملون معاملة المرتدين.

٣ ـ الذين هم من أهل الكتاب.

٤ ـ المشركون وهم عبدة الأصنام والصابئة والمجوس والهندوس وجميع من ليسوا من أهل الكتاب.

والصنفان الأخيران يتركون وما يعتقدون وما يعبدون، ويسيرون في أمور الزواج والطلاق حسب أديانهم، وتعين الدولة لهم قاضياً منهم ينظر في خصوماتهم هذه في محاكم الدولة، وأما المطعومات والملبوسات فإنهم يعاملون بشأنها حسب أحكام دينهم ضمن النظام العام (أي ضمن ما تسمح به شريعة الإسلام)، ويعامل غير أهل الكتاب كمعاملة أهل الكتاب، قال عليه الصلاة والسلام في

حق المجوس: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**». أما المعاملات والعقوبات فإنها تنفذ على غير المسلمين كما تنفذ على المسلمين سواء بسواء، فتقام العقوبات على غير المسلمين كما تقام على المسلمين، وتنفذ وتفسخ معاملات غير المسلمين كما تنفذ وتفسخ معاملات المسلمين سواء بسواء، من غير تفريق أو تمييز بين شخص وآخر لأن جميع من يحملون التابعية على اختلاف أديانهم وأجناسهم ومذاهبهم مخاطبون بأحكام الشريعة الإسلامية في أمور المعاملات والعقوبات، ومكلفون باتباع الأحكام والعمل بها، إلا أن تكليفهم بذلك إنما هو من ناحية تشريعية قانونية لا من ناحية دينية روحية، فلا يجبرون على الاعتقاد بها لأنهم لا يجبرون على الإسلام، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ **ونهى رسول الله ﷺ عن أن يفتن أهل الكتاب عن دينهم**، ولكن يجبرون على الخضوع لأحكام الإسلام من ناحية كونها تشريعاً وقانوناً واجب التنفيذ.

والخلاصة هي أن الدولة في سياستها الداخلية تنفذ الشرع الإسلامي على جميع الذين يحملون التابعية سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ويكون تنفيذها على الوجه الآتي:

أ ــ تنفذ على المسلمين أحكام الإسلام جميعها.

ب ــ يترك غير المسلمين وما يعتقدون وما يعبدون.

جـ ــ يعامل غير المسلمين في أمور المطعومات والملبوسات حسب أديانهم ضمن النظام العام.

د ــ تفصل أمور الزواج والطلاق بين غير المسلمين حسب أديانهم من قضاة منهم في محاكم الدولة لا في محاكم خاصة، وتفصل هذه الأمور بينهم وبين المسلمين حسب أحكام الإسلام من قضاة مسلمين.

هـ ــ تنفذ الدولة باقي أمور الشريعة الإسلامية من معاملات وعقوبات ونظم حكم واقتصاد وغيرها على الجميع، ويكون تنفيذها على المسلمين وعلى غير المسلمين على السواء.

و ــ جميع الذين يحملون التابعية الإسلامية هم رعايا الدولة فتجب رعايتهم جميعهم على السواء دون تفريق بين المسلمين وغير المسلمين.

السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

السياسة الخارجية هي علاقة الدولة بغيرها من الدول والشعوب والأمم، وهذه العلاقة هي رعاية شؤون الأمة خارجياً. والسياسة الخارجية للدولة الإسلامية هي علاقتها بغيرها من الدول والشعوب والأمم، وتقوم هذه السياسة الخارجية على فكرة ثابتة لا تتغير. هذه الفكرة الثابتة هي نشر الإسلام في العالم في كل أمة وكل شعب. وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وهذا الأساس لا يتغير أبداً، ولا يختلف مهما اختلف الأشخاص القائمون على الحكم، وقد كان هذا الأساس موجوداً وثابتاً في جميع العصور منذ أن استقر الرسول ﷺ في المدينة المنوّرة حتى انتهت الدولة العثمانية بوصفها آخر دولة إسلامية، ولم يتغير هذا الأساس مطلقاً. فمنذ أن أقام الرسول ﷺ الدولة في المدينة بدأ يقيم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها على أساس نشر الإسلام، فعقد مع اليهود معاهدات ليتفرغ لنشر الدعوة في الحجاز، ثم عقد معاهدة الحديبية مع قريش ليتمكن من نشر الدعوة في جزيرة العرب، ثم أرسل الكتب للدول الموجودة خارج الجزيرة العربية وداخلها ليقيم معها علاقات على أساس نشر الإسلام، بدعوتهم للدخول فيه، ثم جاء خلفاؤه من بعده فأقاموا علاقاتهم مع الدول جميعها على أساس نشر الإسلام وأخذوا يحملون الدعوة الإسلامية إلى العالم، وقد كان الحكام الذين يتولون الحكم يتفاوتون في نشر الإسلام، فالأمويون كانوا أكثر فتحاً للبلدان وأكثر نشراً للإسلام في الخارج من

العباسيين، والعثمانيون كانوا أكثر فتحاً للبلدان وأكثر نشراً للإسلام في الخارج من المماليك، ولكن هذا التفاوت كان حسب تفاوت عناية الدولة بسياستها الخارجية، أما نشر الإسلام فقد ظل الأساس الذي تقوم عليه علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول والشعوب والأمم، ولم يتغير لدى أي خليفة من الخلفاء. ووجود الدولة إنما هو من أجل تطبيق الإسلام في الداخل، وحمل دعوته في الخارج إلى العالم؛ ولذلك كانت مهمة الدولة الإسلامية في الخارج إنما هي حمل الدعوة الإسلامية. والذي يجعل نشر الإسلام أساساً للسياسة الخارجية هو أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام جاءت للناس كافة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ وقال عز وجل: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وقد قام الرسول بتبليغ الرسالة للناس، ولما التحق بالرفيق الأعلى استمرت رسالته للناس يبلغهم إياها المسلمون، فكان حمل الدعوة الإسلامية للعالم استمراراً لعمل الرسول ﷺ، وقد سار المسلمون على ذلك واستمروا في حمل الدعوة الإسلامية، وقد قال ﷺ في حجة الوداع: «**ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع**»، وقال: «**نَضَّرَ اللّـهُ امْرَءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها**». وهكذا كان حمل الدعوة الإسلامية أساساً لعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول والشعوب والأمم في أيام الرسول ﷺ، وفي أيام خلفائه من بعده، وهذا هو الحكم الشرعي، وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ولذلك فإن السياسة الخارجية

للدولة الإسلامية هي حمل الدعوة الإسلامية للعالم.

وتنفذ هذه السياسة الخارجية بطريقة ثابتة لا تتغير هي الجهاد مهما اختلف الأشخاص القائمون على الحكم، وقد كانت هذه الطريقة ثابتة في جميع العصور منذ أن استقر الرسول ﷺ حتى انتهت آخر الدولة الإسلامية، ولم تتغير هذه الطريقة مطلقاً، فإن الرسول ﷺ منذ أن أقام الدولة في المدينة هيأ الجيش، وبدأ الجهاد لإزالة الحواجز المادية التي تقف دونها، فكانت قريش حاجزاً مادياً يقف في سبيل الدعوة الإسلامية، فصمم على إزالته، ثم أزال قريشاً ككيان يقف في وجه الدعوة، كما أزال غيره من الكيانات التي تقف في سبيلها، إلى أن عم الإسلام جميع جزيرة العرب، ثم بدأت الدولة الإسلامية تطرق أبواب الأمم الأخرى لنشر الإسلام بينهم، فوجدت كيان الحكم القائم على كل أمة من هذه الأمم حاجزاً مادياً يحول دون الدعوة، فكان لا بد من إزالة هذا الكيان من وجه الدعوة، والوصول إلى الشعب نفسه ليدعى إلى الإسلام بحكمه به، حتى يرى ويلمس عدل الإسلام والرفاهية والهناء في العيش تحت رايته، ويُدْعى إليه بالتي هي أحسن دون إكراه ولا إجبار. وهكذا استمر الجهاد طريقة لنشر الإسلام، ففتحت بالجهاد البلدان والأقطار، وأزيلت بالجهاد الممالك والدول، وحكم الإسلام الشعوب والأمم، ونشر الإسلام فاعتنقته مئات الملايين من البشر بعد أن حكموا به. فكانت الطريقة التي اتبعت في تنفيذ السياسة الخارجية هي الجهاد، وكانت ثابتة لا تتغير ولن تتغير أبداً. والجهاد هو الدعوة إلى الإسلام والقتال في سبيل الله مباشرة أو معاونة بمال أو رأي أو تكثير سواد. وهو فرض بنص القرآن والحديث، وكان المسلمون

لا يبدأون العدو بالقتال حتى يعرضوا عليه الإسلام أو الجزية. والحكم الشرعي في الجهاد هو أنه إذا حاصرْنا الأعداءَ من الكفار دعوناهم إلى الإسلام فإن أسلموا صاروا جزءاً من الأمة الإسلامية وحرم قتالهم، وإن أبوا الإسلام طلبت منهم الجزية، فإن دفعوها عصموا بها دماءهم وأموالهم، وصارت بلادهم دار إسلام تحكم بالإسلام، وصار لهم ما للمسلمين من العدل والإنصاف، ومن الحماية والرعاية والدفاع عنهم، ورعاية شؤونهم كرعاية شؤون المسلمين، بتأمين سائر الأمور التي تلزمهم في حياتهم، وعليهم ما على المسلمين من الولاء للدولة والنظام، فإن امتنع العدو عن الإسلام وعن دفع الجزية حل حينئذٍ قتاله، ولذلك لا يحل القتال إلا بعد عرض الدعوة الإسلامية على أهل البلد. وقد نص الفقهاء على أنه لا يحل لنا أن نقاتل من لم تبلغه الدعوة الإسلامية، وعلى ذلك فلا بد أن يسبق القتالَ إيجادُ رأي عام عن الإسلام، وإعطاء فكرة صحيحة عن الدعوة الإسلامية، ومحاولات لإيصال أحكام الإسلام للناس، حتى يتسنى لهم إدراك ما فيه من إنقاذ لهم ولو بشكل إجمالي، وعلى الدولة الإسلامية أن تقوم بأعمال سياسية منها ما يتعلق بإعطاء معلومات واضحة عن الإسلام، وبث أفكار الإسلام، والقيام بالدعوة والدعاية للإسلام، ومنها ما يتعلق بإظهار قوة الدولة الإسلامية ومقدرتها، وإظهار صلابة المسلمين وجرأتهم، وقد كان الرسول ﷺ يقوم بأعمال عديدة في ذلك، منها إرسال الدعاة للإسلام في قلب بلاد الشرك، كما أرسل الأربعين رجلاً إلى أهل نجد ليبلغوا الإسلام، وكان يقوم بإظهار قوة الدولة كما حصل في استعراضه جيش المسلمين في المدينة يوم غزوة تبوك قبل خروجه لها، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**نصرت بالرعب من مسيرة شهر**». وكان جيش المسلمين في الدولة

الإسلامية في مختلف العصور مرهوب الجانب، ولذلك كانت أوروبا تحمل فكرة عن الجيش الإسلامي هي أنه لا يغلب أبداً، وظلت تحمل هذه الفكرة عدة قرون. ولهذا لا بد من القيام بأعمال سياسية تتعلق ببث الأفكار الإسلامية، وبإظهار قوة الدولة، ثم المباشرة بالقتال. والجهاد وإن كان الطريقة الثابتة التي لا تتغير لنشر الإسلام، ولكن الأعمال السياسية والحركات المقصودة لا بد منها قبل البدء بالقتال، وهي أمر أساسي في تركيز العلاقة بين الدولة وغيرها من الدول والشعوب والأمم على وجه معين، من حيث حسن الجوار، ومن حيث العلاقات الاقتصادية، أو غير ذلك مما يسهل أمر نشر الإسلام.

وعلى ذلك فإن الفكرة السياسية التي تقوم عليها علاقة الدولة الإسلامية مع الدول والشعوب والأمم هي نشر الإسلام بينهم وحمل الدعوة إليهم، وطريقة ذلك هي الجهاد. غير أن هناك خططاً وأساليب تضعها الدولة وتضع لها وسائل وأدوات للتنفيذ. فهي مثلاً تعقد معاهدات حسن الجوار لأَجَل مع بعض الأعداء وتحارب الآخرين، كما فعل رسول الله ﷺ في أول نزوله المدينة. أو تعلن الحرب على أعدائها جميعاً، كما فعل أبو بكر حين وجه الجيوش للعراق والشام في آن واحد، أو تعقد معاهدات لأَجَل، حتى تتمكن من إيجاد رأي عام للدعوة، كما فعل الرسول ﷺ في معاهدة الحديبية. وقد تتخذ المناوشات المحلية وسائل للإرهاب، كما حصل في السرايا التي كان يرسلها الرسول ﷺ قبل غزوة بدر، وكما حصل في أيام الأمويين على حدود الروم من فرق الصوائف والشواتي. وقد تعقد الدولة معاهدات تجارية مع بعض الدول ولا تعقدها مع دول أخرى، على أساس

مصلحة الدعوة، وقد تنشئ علاقات مع دول ولا تنشئها مع أخرى، حسب خطة مرسومة للدعوة، وقد تتبع أساليب الدعوة والدعاية مع بعض الدول في حين تتبع أساليب كشف الخطط والحرب الباردة مع دول أخرى، وهكذا تضع الدولة خططاً وتنفذ أساليب حسب ما يقرره نوع العمل وتقتضيه مصلحة الدعوة وكانت هذه الخطط والأساليب تسهل أمر نشر الإسلام كما تسهل أمر الجهاد. ولذلك كانت الخطط والأساليب ضرورية في السياسة الخارجية، وكان إيجاد الرأي العام عن الإسلام وعن الدولة لدى العالم ضرورياً أيضاً. ولكن ذلك كله إنما هو لنشر الإسلام بواسطة طريقة نشره وهي الجهاد في سبيل الله.

الفتوحات الإسلامية هي لنشر الإسلام

لما كانت الأمة الإسلامية مكلفة بحمل الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة كان لزاماً على المسلمين أن يتصلوا بالعالم، وكان لزاماً على الدولة الإسلامية أن تقوم بهذا الاتصال فتبلغ الدعوة وتتخذ الطريقة التي قررها الإسلام لنشر هذه الدعوة، ولذلك كان من المحتم أن تقوم الدولة الإسلامية بفتح البلدان، وأن تكون لها تلك الفتوحات الكبيرة. وما هذه الفتوحات إلا تنفيذٌ لما على المسلمين من واجب، هو تبليغ الإسلام للناس على وجه يلفت النظر، بإقامة أحكامه عليهم، ونشر أفكاره بينهم، ولذلك لم تكن الفتوحات الإسلامية من أجل استغلال الشعوب واستعمارها، ولا من أجل ما في بلادها من خيرات، وإنما كانت من أجل شيء واحد هو حمل الدعوة الإسلامية إليها، لإنقاذها مما هي فيه من حياة شقية ومن نظام فاسد. ويظهر ذلك في نشأة الدولة الإسلامية وفي سير الفتوحات الإسلامية وفي فرضية الجهاد.

وقد نشأت الدولة الإسلامية نشأة قوية متركزة، نشأة اتساع ونمو، نشأة انتشار وفتح، فكانت بذرة إنشائها بذرة إنشاء دولة عالمية لا دولة محلية؛ لأن عقيدتها عالمية، إذ هي عقيدة للإنسان، ولأن نظامها نظام عالمي، إذ هو نظام للإنسان، فكان طبيعياً أن ينتشر، وكان طبيعياً أن تفتح البلاد، لأن طبيعة إنشائها توجب ذلك وتحتمه. وها هو ذا الرسول ﷺ يبايعه المسلمون بيعة العقبة الثانية، يبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس،

ولو أدى ذلك إلى فناء الأموال وقتل الأشراف، يبايعونه على السمع والطاعة في عسرهم ويسرهم ومنشطهم ومكرههم، وأن يقولوا الحق أينما كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، يبايعونه على الموت في سبيل حماية الدعوة الإسلامية، وليس لهم مقابل ذلك كله إلا الجنة. وهؤلاء هم نواة جيش الدولة الإسلامية التي حملت الإسلام، فكيف يكون هذا الجيش الذي بايع هذه البيعة؟ ولماذا أنشئ هذا الجيش؟ وما هي مهمته الحربية التي تبدو في هذه البيعة؟ أليست هي مهمة حمل دعوة الإسلام؟ وهي وحدها التي جاءوا من أجلها وبايعوا عليها واستعدوا للموت في سبيلها.

وقد وضع ﷺ خطة الفتوحات قبل وفاته، فإنه عليه الصلاة والسلام بعد أن قامت الدولة الإسلامية في الجزيرة وضع خطة نشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة بإرساله الكتب في السنة السابعة للهجرة إلى كسرى وقيصر وإلى غيرهما من الملوك والأمراء يدعوهم جميعاً للإسلام، وبغزوتي مؤتة وتبوك، وبإعداده جيش أسامه، وقد قام خلفاؤه من بعده بتنفيذ هذه الخطة حين أخذوا يفتحون البلدان التي خاطبها الرسول ﷺ بالإسلام، ثم تتالت الفتوحات الإسلامية على هذا الأساس، ولذلك لم تفرق الدولة الإسلامية في فتحها للعالم بين أن تفتح مصر بخيراتها وسهولة فتحها، وبين أن تفتح شمالي إفريقيا على صحراويتها ووعورتها وفقرها وصعوبة فتحها ومشقة نشر الإسلام فيها، لأنها إنما تفتح لنشر الإسلام وحمل دعوته، وذلك يقتضيها أن تدخل كل بلد مهما يكن فقره أو غناه، وأن تواجه كل شعب مهما يكن استسلامه أو مقاومته؛ لأن نشر الإسلام وحمل دعوته للناس لا يعرف فقر بلد أو غناه، ولا قبول أهله أو رفضهم،

وإنما يعرف شيئاً واحداً هو حمل الدعوة الإسلامية قيادة فكرية تنبثق عنها أنظمة الحياة، وأن يكون هذا الحمل لجميع الناس في جميع البلاد.

وقد بين القرآن الكريم للمسلمين أسباب القتال وفريضة الجهاد بأنها لا تكون إلا في سبيل الإسلام وحمل رسالته للعالمين. وهناك آيات مستفيضة الكثرة تأمرهم بالقتال من أجل الإسلام. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وقال في سورة التوبة: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾، فهذه الآيات وغيرها هي التي أمرت بالجهاد وهي التي عينت للمسلمين الغاية من الفتوحات وهي التي كانت تدفعهم إلى هذه الفتوحات.

وعلى ذلك فإن حمل الدعوة الإسلامية هو الذي أقيمت الدولة الإسلامية على أساسه، وأنشئ الجيش الإسلامي من أجله، وفرض الجهاد في سبيله، وكانت الفتوحات سائرة بحسبه. وحمل الدعوة الإسلامية هو الذي يعيد للمسلمين دولة الإسلام.

تـركيز الفتوحـات الإسـلامية

لقد فتح المسلمون البلدان وحكموها بالإسلام، وقد فرض عليهم الإسلام تولي الحكم والقيادة، ولا يجوز لهم أن يُحكَموا من قبل غير المسلمين، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلاً ﴾، وجعل العزة للمؤمنين، قال تعالى في سورة المنافقين: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾. ولكن الله لم يعطهم العزة ولم يولهم الحكم والقيادة إلا لما تحقق فيهم من نفسية إسلامية تجعل الحكم لتطبيق الإسلام وحمل دعوته لا شهوة حكم وسلطان، ولما وجد لديهم من عقلية إسلامية تفهم معنى الحكم وتدرك حقيقة مسؤوليته عند الله، وقد ظهر نور الإسلام في أعمال هؤلاء الحكام وأقوالهم كما ظهر هذا النور في تطبيق الأحكام على الناس الذين يحكمونهم، وقد كان من جراء تطبيق أحكام الإسلام على الناس أن دخلوا في دين الله أفواجاً واعتنقوا عقيدة الإسلام، وصاروا مسلمين لهم العزة ولهم القيادة والحكم، وأصبحت بلادهم دار إسلام وبلاداً إسلامية، فتركزت الفتوحات الإسلامية بحكمها بالإسلام، ثم بدخول أهلها في الدين الجديد، حتى كان فتح المسلمين لأي بلد فتحاً أبدياً إلى يوم الدين يسلخ هذا البلد وأهله عن حالهم الأولى إلى حال ثانية، وأحالهم من كفار إلى مسلمين، كما أحال بلادهم من دار كفر إلى دار إسلام، وظلت دار إسلام حتى ذهب حكم الإسلام عنها، ولكن أهلها ظلوا مسلمين، وظلت بلاداً إسلامية حتى

بعد ذهاب حكم الإسلام منها وتقلص ظل الدولة عنها، وإذا كانت الدولة الإسلامية قد ذهبت فإن البلاد التي فتحها المسلمون لا تزال بلاداً إسلامية، ولا يزال أهلها مسلمين، ولا تزال محلاً لعود حكم الإسلام إليها ونشر سلطان الدولة الإسلامية فوق ربوعها. والذي ركز الفتوحات الإسلامية تركيزاً دائمياً وجعل الإسلام فيها ثابتاً إلى يوم الدين عدة أمور، منها ما سهل حكمها جميعها من أول يوم كالتشريع، ومنها ما هيأ أهلها لدخول الإسلام كطريقة الحكم وسلوك الحكام، ومنها ما ركز الإسلام في نفوس من أسلموا تركيزاً أبدياً كعقيدة الإسلام وتبني الأحكام، ويمكن إجمال هذه الأمور في عدة نقاط منها:

١ ـ إن الإسلام عقلي في عقيدته، فكري في آرائه وأحكامه، فهو يفرض على معتنقه أن يؤمن به عن طريق العقل وأن يفهم أحكامه بالعقل، ولذلك كان مجرد اعتناقه يحيل الإنسان إلى إنسان مفكر حين يلفت نظره إلى مخلوقات الله ليدرك وجود خالقه، وحين ينبه فيه الفكر لبحث الأحكام الشرعية ليستنبطها ويعالج مشاكله بها، وبذلك يكون قد ركز الإسلام في نفسه أبدياً حين يعتقده بشكل قطعي ويفهم أحكامه ويطبقها.

٢ ـ يقضي الإسلام على معتنقه بالقراءة والدرس، وليس يكفي المسلم أن ينطق بالشهادتين ليتعلم الإسلام ويفهمه، بل لا بد من تعلمه والتثقف به بعمق واستنارة ووعي، وهذا التعلم يوسع أفق المسلم، وينمي معارفه، ويخصب عقليته، ويجعله معلماً لغيره.

٣ ـ إن طبيعة مبدأ الإسلام وأحكامه الشرعية توجب أن تكون طريقة تعلمها ارتقائية مؤثرة في المتعلم وفي الوسط الذي يعيش فيه، ولذلك

كان المسلمون يتعلمون الإسلام للعمل به، وكانوا يتلقون أحكامه تلقياً فكرياً، فكان هذا مؤثراً في مشاعرهم، ولذلك كان إحساسهم بالحياة وتبعاتها إحساساً ناتجاً عن فكر مؤثر، فنتج عنه ما كان يشاهد في المسلمين من التلهب والحماسة للإسلام ومن الفكر وغزارة المعرفة وسعة الأفق، لأن العقيدة الإسلامية قد غرست في نفوسهم غرساً، ولأن آراء الإسلام وأفكاره وأحكامه قد أخذوها بعد درس وتمحيص، ولأن الناحية العملية كانت هي المسيطرة.

فهم لم يتعلموا الإسلام لمجرد العلم فقط، وإلا لكانوا مجرد كتب تحوي معلومات عن الإسلام، ولا سمعوه مجرد سماع مواعظ وإرشادات. وإلاّ لكانوا سطحيين لا حرارة للإيمان عندهم، بل تجنبوا هاتين الناحيتين الخطرتين، وهما تعلّم الإسلام حقائق مجردة للتعلّم فقط، وأخذه مواعظ وإرشادات فحسب. وحصروا طريقة أخذهم المفاهيم والأحكام بطريقة الإسلام، التي هي أخذ الإسلام بعمق وتفهم ووضوح، لتطبيقه عملياً في معترك الحياة.

٤ ــ إن الإسلام ارتقائي يأخذ بيد معتنقه ليسير به في طريق الكمال، فهو يفرض أعمالاً معينة على المسلم، والقيام بهذه الأعمال يأخذ بيد الإنسان إلى مرتقى من الكمال يتمتع فيه بالسمو الروحي والاطمئنان النفسي والسعادة الحقة، ويجعل الإنسان ثابتاً على هذا المرتقى لا ينحدر عنه، وإنه وإن كان الارتقاء في طريق الكمال إلى المرتقى العالي صعباً، فإن الثبات عليه أصعب، ولذلك كانت هذه الأعمال دائمية وليست مؤقتة، حتى يظل الإنسان في سموه وارتقائه.

وهذه الأعمال وهي العبادات، منها ما هو فرض، ومنها ما هو مندوب. والقيام بالفروض من قبل جميع الناس يحقق حداً مشتركاً في الرقي لابد منه، والقيام بما هو مندوب يحفز على الاندفاع في طريق الكمال.

وليس القيام بهذه العبادات بالأمر الشاق العسير، ولا بالشيء المرهق المضني، وليس فيه حرمان من متاع الدنيا وملذاتها، ولا إعراض عن مباهجها ومسراتها، ولا كبت للغرائز ولا مخالفة للطبائع، كلا، وإنما القيام بهذه العبادات بالنسبة للفرض أمر ميسور لكل إنسان مهما تكن قواه ومهما تكن إرادته، وهي لا تحول بينه وبين زينة الدنيا، كما أن القيام بما هو مندوب يقوم به المسلمون بشوق وشغف، ويقبلون عليه ليقوموا بأكثر مما فرض، وهم يشعرون الشعور العميق بأنهم ينعمون برضوان من الله.

٥ ــ كان المسلمون يفتحون البلاد لحمل الدعوة الإسلامية إليها ونشرها فيها، ولذلك كانوا يشعرون بأنهم رسل رحمة وهداية، فكانوا يدخلون البلد فيحكمونه بالإسلام، وبمجرد دخول أهل البلاد في الذمة يصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ويصبح لتلك البلاد المفتوحة من الحقوق والواجبات في الدولة ما لأي بلد آخر من بلاد المسلمين، وتصبح قطعة منها، لأن نظام الحكم نظام وحدة، ولهذا لم يكن أهل البلاد المفتوحة يشعرون بأنهم مستعمَرون، ولا يحسون بأية ناحية تشم منها رائحة الاستعمار؛ ولذلك لم يكن عجيباً أن يُقْبِل الناس على الإسلام بعد أن رأوا ــ عملياً ــ حقيقة الإسلام في الكيفية التي يحكم بها المسلمون.

٦ ــ إن مبدأ الإسلام وأحكامه عامة لجميع الناس، ويباح تعلمها لجميع الناس، بل يفرض تعليمها لجميع الناس حتى يتذوقوا حلاوة الإسلام

ويدركوا حقائقه. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرسل الولاة والحكام والمعلمين يحكمون الناس بالإسلام ويعلمونهم أحكامه، وكذلك كان المسلمون من بعده يفتحون البلدان، ويقيمون بها الحكام والمعلمين، ويفقهون الناس بالإسلام، ويعلمونهم أحكام القرآن. فاقبل أهل البلاد المفتوحة على المعارف الإسلامية حتى أصبحت ثقافتهم ثقافة إسلامية، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام.

٧ ـ إن الشريعة الإسلامية شريعة عالمية كاملة. ولذلك كان المسلمون حين يفتحون البلدان، لا يحتاجون إلى تعرف شريعة أهلها وقوانينهم، ولا للتوفيق بين ما يحملونه من أحكام لمعالجة مشاكل الحياة وبين القوانين التي كانت تطبق على البلاد المفتوحة، بل كانوا يفتحون البلد ومعهم الشريعة الكاملة، فكانوا يطبقون الإسلام من أول يوم يفتحون فيه البلاد. وكانت طريقتهم في التطبيق انقلابية، ليس فيها تدرج أو ترقيع، ولا يراعون الواقع الذي يجدونه، لأنهم إنما فتحوا البلاد لتبليغها الإسلام وليغيروا واقعها الفاسد وحياتها المضطربة، وهذا يقضي برفع النظام القديم ووضع النظام الجديد وضعاً شاملاً. ولهذا كان يسهل عليهم حكم البلاد من أول يوم. وكان يتركز حكمهم تركزاً تاماً، ولم يعانوا أزمة قانونية ولا حالة انتقالية، لأنهم يحملون دعوتهم، وهي عقيدة تنبثق عنها الأنظمة والقوانين والأحكام، وهي شريعة تطبق على كل إنسان في كل زمان ومكان.

صهـر الشـعوب وجعلها أمّـة واحـدة

توفى رسول الله ﷺ بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام وبعد أن قضي على الشرك فيها وبعد أن أصبحت دار إسلام تحكم بالإسلام كله عقيدة ونظاماً، وبعد أن اكمل الله الدين وأتم نعمته على المسلمين ورضي لهم الإسلام ديناً، وبعد أن بدأ بدعوة الأمم والشعوب المجاورة بـإرسال الكتب إلى ملوكها وحكامها، وبالسرايا والغزوات على حدود الروم في مؤتة وتبوك. وقد جاء بعده الخلفاء الراشدون فتتابعت الفتوحات، ففتح العراق وكان يسكنه خليط من النصارى والمزدكية والزرادشتية من العرب والفرس، وفتحت فارس وكان يسكنها العجم وقليل من اليهود والرومانيين، وكانت تدين بدين الفرس، وفتحت الشام وكانت إقليماً رومانياً يتثقف بثقافة الرومانيين ويتدين بالنصرانية ويسكنه السوريون والأرمن واليهود وبعض الرومان وبعض العرب، وفتحت مصر وكان يسكنها المصريون وبعض اليهود وبعض الرومان، وفتحت شمال إفريقيا وكان يسكنها البربر وكانت في يد الرومان. وجاء بعد الخلفاء الراشدين الأمويون، ففتحوا السند وخوارزم وسمرقند وأدخلوها ضمن أراضي الدولة الإسلامية، ثم فتحت الأندلس وأصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، وكانت هذه الأقطار المتعددة متباينة القوميات واللغة والدين والتقاليد والعادات والقوانين والثقافة، وطبيعياً كانت مختلفة العقلية مختلفة النفسية، ولذلك كانت عملية صهرها ببعضها وتكوين أمة واحدة منها

موحدة الدين واللغة والثقافة والقوانين أمراً عسيراً وعملاً شاقاً، يعتبر النجاح فيه شيئاً غير عادي، ولم يحصل لغير الإسلام، ولم يتحقق إلا للدولة الإسلامية. فإن هذه الشعوب جميعها بعد أن ظللتها الراية الإسلامية وحكمتها الدولة الإسلامية ودخلت في الإسلام صارت أمة واحدة هي الأمة الإسلامية، وذلك بتأثير حكمهم بالإسلام، وبتأثير اعتناقهم عقيدته، ولقد عمل على صهر هذه الشعوب عدة أمور أهمها أربعة أمور هي:

١ ــ أوامر الإسلام.

٢ ــ اختلاط المسلمين الفاتحين بغيرهم من الأمم المفتوحة في المسكن والعيش.

٣ ــ دخول أهل البلاد المفتوحة بجملتهم في الإسلام.

٤ ــ الانقلاب الذي حصل لمن أسلموا ونقلهم من حال إلى حال.

أما أوامر الإسلام فهي تقضي بأن يدعو أهله له وأن يحملوا دعوته وينشروا هدايته حيثما استطاعوا، وهذا يقضي بالجهاد وفتح البلاد حتى يتمكن الناس من فهمه والوقوف على حقيقة أحكامه. ويقضي بترك الاختيار للناس إن شاءوا اعتنقوه وإن شاءوا ظلوا على دينهم، واكتفى بإخضاعهم لأحكامه في شؤون المعاملات والعقوبات، ليحصل الانسجام في أعمال الناس بتوحيد النظم التي تعالج مشاكلهم وتنظم أعمالهم، وليشعر غير المسلمين بأنهم كالمسلمين يشاركون المجتمع في تطبيق النظام الذي يطبق فيه، ويتمتعون بالطمأنينة، ويستظلون براية الدولة.

وأوامر الإسلام تقضي بأن ينظر إلى المحكومين نظرة إنسانية لا

نظرة عنصرية أو طائفية أو مذهبية، ولذلك تطبق الأحكام على الجميع بالسواء لا فرق بين المسلم وغير المسلم، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾. ويتساوى في الحكم والقضاء جميع الناس، فالحاكم حين يرعى شؤون الناس ويحكمهم، والقاضي حين يقضي بينهم لا ينظر لمن يحكمهم أو يقضي بينهم أية نظرة سوى النظرة إلى الإنسان ليرعى شؤونه ويفصل خصوماته. ويقضي نظام الحكم في الإسلام بالوحدة بين أجزاء الدولة، كما يقضي بضمان حاجات كل ولاية فيها بالإنفاق عليها من بيت مال الدولة، بغض النظر عما يجبى منها قل أو كثر، وَفى بهذه الحاجات أم لم يف. كما يقضي بوحدة المالية بجبايتها لبيت المال من جميع الولايات، وبذلك تصبح جميع البلدان المفتوحة ولايات في دولة واحدة تجعلها في الحكم سائرة سيراً حتمياً في طريق الانصهار.

وأما اختلاط المسلمين الفاتحين بغيرهم فكان من أكبر العوامل أثراً في دخولهم الإسلام وانصهارهم مع سائر المسلمين. وذلك أن المسلمين بعد أن فتحوا البلاد سكنوها وصاروا يعلمون أهلها الإسلام ويثقفونهم بالثقافة الإسلامية، وسكنوا معهم في بيوت متجاورة حتى صارت البلاد مسكونة بالفاتحين والمفتوحين جميعاً، وقد اشتركوا في جميع شؤون الحياة وصاروا جميعاً سكان بلد واحد تطبق عليهم أحكام واحدة، ولم يكونوا فئتين، فاتحاً ومفتوحاً وغالباً ومغلوباً، وإنما كانوا جميعاً رعية الدولة يتعاون أفرادهم في شؤون الحياة جميعاً، ورأوا في الحكام نوعاً آخر من الناس لم يكونوا يعرفونهم، رأوهم يساوونهم بأنفسهم ويقومون هم بخدمتهم في شؤونهم

وفي خواص حاجاتهم، فرأوا صفات عالية حببت إليهم هؤلاء الحكام وحببت إليهم الإسلام، وكان الحكام وسائر المسلمين يتزوجون من أهل الكتاب ويأكلون ذبائحهم وطعامهم، فكان هذا الاختلاط حافزاً لدخولهم الإسلام؛ لأنهم رأوا أثر الإسلام في الحكام، كما رأوا نوره في تطبيق النظام، وبذلك انصهرت هذه الشعوب بعضها ببعض وصارت أمة واحدة.

وأما دخول البلاد المفتوحة في الإسلام فقد كان بشكل عام، وكان أهل كل قطر يدخلون في دين الله أفواجاً، حتى دخلت الجمهرة الساحقة من أهل البلدان المفتوحة في الإسلام، وظل الناس يدخلون في الإسلام جماعات، وصار الناس في جملتهم مسلمين، ولم يبق الإسلام مقصوراً على الفاتحين. وبدخول أهل البلاد في الإسلام انصهروا مع الفاتحين فصاروا أمة واحدة.

وأما الانقلاب العام الذي أحدثه الإسلام في الذين أسلموا، فذاك أن الإسلام رفع المستوى العقلي عندهم فأوجد لديهم العقيدة الإسلامية فكانت قاعدة فكرية تبنى عليها جميع الأفكار وتقاس صحتها وفسادها بمقياس هذه القاعدة، ولذلك نقلهم من الإيمان الوجداني إلى الإيمان العقلي، ومن عبادة الأصنام والنار والتثليث وما شاكل ذلك وما تقتضيه هذه العبادة من انحطاط في النظر وإسفاف في الفكر إلى عبادة الله وما تقتضيه من فكر مستنير ونظر واسع. وجعلهم يصدقون بالحياة الأخرى، ويتصورونها بالصورة التي أوضحها لهم في الكتاب والسنة وأوضح ما فيها من عذاب ونعيم، فصاروا يتصورونها ويرون أنها هي الحياة الحقيقية، وبذلك صار للحياة عندهم معنىً وقيمة لأنها طريق لحياة أخرى أسعد وأخلد، ولهذا أقبلوا على هذه الحياة

الدنيا ولم يهملوها وأخذوا بأسبابها وتمتعوا بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وجعل للحياة مقاييس صحيحة وتصويراً حقيقياً. فبعد أن كان مقياس الحياة هو المنفعة فقط، وكانت هذه المنفعة هي المسيِّر للأعمال وهي الغاية من الأعمال وهي قيمة العمل، صار مقياس الحياة هو الحلال والحرام، وصار تصوير الحياة هو بأنها حلال وحرام، وصار المسيِّر للأعمال والموجه لها هو أوامر الله ونواهيه، وصارت الغاية من تسيير الأعمال بأوامر الله ونواهيه هي رضوان الله، وصارت قيمة العمل هي ما يقصده من القيام به، فتكون روحية إن كان صلاة أو جهاداً أو ما شاكلها، وتكون مادية إن كان بيعاً أو إجارة أو ما شاكلها، وتكون خلقية إن كان أمانة أو رحمة أو ما شاكلها، فصاروا يميزون بين الموجه للعمل، وبين قيمة العمل التي قاموا بالعمل من أجلها، وبذلك جعل تصوير الحياة لهم مختلفاً عن تصويرها السابق وجعله تصويراً حقيقياً لحقيقة الحياة بالمقياس الذي وضعه له وهو أوامر الله ونواهيه أي الحلال والحرام.

وجعل للسعادة معنى حقيقياً في نظرهم، فبعد أن كانت السعادة عندهم إشباع الجوعات وإعطاء الجسد متعه، صارت السعادة هي نوال رضوان الله؛ لأن السعادة هي الطمأنينة الدائمة للإنسان، وهي لا تتأتى بالملذات ولا بالشهوات، وإنما تتأتى بنوال رضوان رب العالمين.

وهكذا فإن الإسلام أثر في وجهة نظر الشعوب التي اعتنقته للحياة وللأعمال التي يقومون بها في هذه الحياة، وغيّر مراتب الأشياء فرفع من مرتبة أشياء وخفض مرتبة أخرى، فبعد أن كانت الحياة هي أعلى مرتبة عند الإنسان والمبدأ هو أقل مرتبة منها، قلب هذه المراتب فجعل المبدأ في المرتبة

الأولى، وجعل الحياة في مرتبة أقل، وبذلك صار يبذل المسلم حياته في سبيل الإسلام؛ لأنه أغلى قيمة من الحياة، ومن باب أولى أن يتحمل المشقات والمصاعب في سبيل الإسلام، وبذلك وضعت الأشياء التي في الحياة في المراتب اللائقة بها، فصارت الحياة سامية وصار المسلم يشعر في هذه الحياة بالطمأنينة الدائمة، وقد رسم للعالم كله مثلاً أعلى واحداً لا يتعدد، وثابتاً لا يتغير، ألا وهو رضوان الله تعالى. وبذلك تغير المثل الأعلى عند الناس، فبعد أن كانت لتلك الشعوب مثل عليا متعددة، متغيرة، صار لهم مثل أعلى واحد ثابت. وتبعاً لتغير المثل الأعلى عند الشعوب والأمم تغيرت معاني الأشياء عندهم عما كانت عليه وتغير مفهوم الفضائل عما كان عليه. فالشجاعة الشخصية، والشهامة الفردية، والمناصرة العصبية، والتفاخر بالأموال والأحساب، والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص للقبيلة أو للقوم، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر وما شاكل ذلك كانت أصول الفضائل، فجاء الإسلام و لم يجعلها أصول الفضائل و لم يتركها كما هي عليه بل جعلها صفات يتصف الإنسان بما أمر الله به منها إجابة لأمره تعالى لا لذات الفضائل، ولا لما فيها من منافع، ولا لما تجره من مفاخر، ولا لأنها عادات وتقاليد وتراث ينبغي أن يحافظ عليها. ثم جعل الخضوع لله ولأوامره ونواهيه هو الواجب، فأوجب إخضاع منافع الفرد والقبيلة والشعب والأمة لأوامر الإسلام فحسب.

وهكذا نقل الإسلام عقلية الشعوب التي اعتنقته، كما نقل نفسيتهم، وبذلك أصبحوا بعد دخولهم في الإسلام غيرهم قبل دخوله في شخصيتهم كلها وفي تقديرهم للكون والإنسان والحياة ومقاييسهم لجميع

الأشياء في الحياة. وصاروا يفهمون أن للحياة معنى خاصاً هو السمو والكمال، وصار لهم مثل أعلى واحد ثابت هو رضوان الله، وصار نيل هذا المثل الأعلى، أي نيل رضوان الله، هو السعادة التي ينشدون، وبذلك صاروا خلقاً آخر غير خلقهم الأول.

وبهذه الأشياء الأربعة انسلخت جميع الشعوب التي دانت للدولة الإسلامية عن حالها الأول، فتوحدت أفكارها ووجهة نظرها في الحياة، حتى صارت فكراً واحداً ونظرة واحدة، وتوحدت معالجات مشاكلها بعلاج واحد، وتوحدت مصالحها فصارت مصلحة واحدة هي مصلحة الإسلام، وتوحدت أهدافهم في الحياة فصارت هدفاً واحداً هو إعلاء كلمة الله. فكان حتمياً أن تنصهر هذه الشعوب جميعها في بوتقة الإسلام، فتصبح أمة واحدة هي الأمة الإسلامية.

عـوامل ضعـف الـدولة الإسـلامية

تقوم الدولة الإسلامية على مبدأ الإسلام، فيه قوتها وبه وحده بقاؤها، وبه وحده ارتقاؤها فهو قوام وجودها؛ ولذلك قامت الدولة الإسلامية قوية لقوة الإسلام، وفتحت أقطاراً واسعة من العالَم في مدة أقل من قرن مع أن وسيلة مواصلاتها كانت الخيل والإبل، ودانت جميع الشعوب والأمم المفتوحة بالإسلام في مدة وجيزة مع أن أداة نشرها لم تكن واسعة وما كانت سوى اللسان والقلم، غير أن الذي حقق ذلك كله بهذه السرعة هو الإسلام الذي جعل للدولة هذه القوة.

وقـد أدرك أعـداء الإسـلام ذلك وعرفوا أنهم لن يسـتطيعـوا إضـعـاف الدولة ما دام الإسـلام قوياً في نفوس المـسـلمين قوياً في فهمه قوياً في تطبيقه، فعمدوا إلى إيجاد الوسـائل التي تُضْـعف فهم المسـلمين له وتُضْعف تطبيقهم لأحكامه.

أما الوسائل التي استعملوها لإضعاف فهمه فكثيرة، منها ما يتعلق بنصوصه، ومنها ما يتعلق باللغة التي يؤدى بها، ومنها ما يتعلق بانطباقه على وقائع الحياة، فقد عمدوا إلى الأحاديث النبوية يدسون فيها أحاديث مكذوبة لم يقلها الرسول ﷺ ولكنهم زوروها وضمنوها معاني غير إسلامية ومفاهيم تناقض الإسلام حتى يأخذها المسلمون ويعملوا بما فيها فيبعدوا عن الإسلام. وبالفعل كذبوا على الرسول ﷺ أحاديث كثيرة دسوها بين

الأحاديث وأشاعوها بين الناس، غير أن المسلمين فطنوا لهؤلاء الزنادقة وقضوا على مؤامراتهم، فهب العلماء ورواة الحديث يجمعون الحديث ويضعون تاريخ رواته وأوصافهم ويبينون الحديث الصحيح من الضعيف من المكذوب، حتى حفظ الحديث فحصرت رواية الحديث في تابعي التابعين عن التابعين عن الصحابة ولم تقبل بعدهم أية رواية، وحصر الرواة وعرف كل واحد منهم، وبُيِّنت طبقات كتب الحديث، حتى أصبح بإمكان المسلم إذا تتبع الحديث أن يعرف صحته من ضعفه من كذبه، بمعرفة سنده ومتنه. وفوق ذلك فإن الدولة الإسلامية ضربت على يد هؤلاء الزنادقة بيد من حديد حتى كان جزاء الكثيرين منهم القتل جزاء على افترائهم الأحاديث على رسول الله ﷺ، وبذلك لم يكن لهذه المؤامرة على الإسلام ولا على الدولة أثر يذكر، فعمدوا إلى اللغة العربية لأنها اللغة التي يؤدى بها الإسلام، وصاروا يحاولون فصلها عن الإسلام، ولكنهم لم يستطيعوا في أول الأمر؛ لأن المسلمين اندفعوا في الفتوحات وهم يحملون الكتاب والسنة واللغة العربية، وكانوا يعلمون الناس اللغة العربية كما يعلمونهم القرآن والحديث، فدخل الناس في الإسلام وحذقوا اللغة العربية وأتقنوها، حتى كان منهم أئمة مجتهدون كأبي حنيفة، وشعراء مبدعون كبشار بن برد، وكتاب بليغون كابن المقفع. وكان حرص المسلمين على اللغة العربية شديداً، والإمام الشافعي لم يجز ترجمة القرآن ولم يجز الصلاة بغير اللغة العربية. والذين أجازوا ترجمة القرآن كأبي حنيفة فإنهم لا يسمون المترجم قرآناً مطلقاً. وهكذا ظلت العناية منصبة على اللغة العربية؛ لأنها جزء جوهري في الإسلام وشرط من شروط الاجتهاد فيه، ولا يتأتى فهم الإسلام من مصادره واستنباط الأحكام منه إلا باللغة العربية. إلا أن هذه العناية فقدت

بعد القرن السادس الهجري حين تولى الحكم من لا يعرف للغة العربية قيمتها، فأهمل أمرها، وبذلك وقف الاجتهاد وصار لا يمكن استنباط الأحكام لمن لا يعرف هذه اللغة، فانفصلت اللغة العربية عن الإسلام، واضطرب على الدولة فهم الأحكام، وبالطبع اضطرب عليها تطبيقها، فكان لذلك أثر كبير في الدولة أضعفها وأضعف فهم الحوادث المتجددة، مما جعل المشاكل التي تحدث لا تعالج أو تعالج معالجة غير صحيحة، فجعل هذا أمام الدولة مشاكل تتراكم إلى أن سببت لها الهزال والاضمحلال.

هذا كله بالنسبة لنصوص الإسلام واللغة التي يفهم بها. أما بالنسبة لانطباق الإسلام على وقائع الحياة فقد عمدوا في القرون الأولى إلى محاولة التوفيق بين الفلسفة الهندية والإسلام، وفسر الزهد في الدنيا وطلب الآخرة بالتقشف وتعذيب الجسد، فصرف الكثيرين عن مباهج الحياة وعن خوض غمارها، مما جعلهم غير عاملين في حقل الدولة الإسلامية وفي معترك حياة المسلمين، فأفقد الدولة الكثير من جهود أبناء الأمة كان يمكن أن تستخدمها في الدعوة إلى الإسلام بدل أن تعطل في تعذيب الأجساد.

ثم كان الغزو الثقافي من الغرب لبلاد المسلمين يحمل حضارة تناقض حضارة الإسلام، ويوهم المسلمين أنه أخذها منهم، ويأتيهم بأنظمة تناقض نظام الإسلام، ويوهم المسلمين أنها تتفق مع أحكام الإسلام، ويعطيهم قوانين تناقض الأحكام الشرعية، ويبين للمسلمين أنها لا تخالف الإسلام، فأثر ذلك في المسلمين تأثيراً كبيراً، أدى إلى أن تتحكم فيهم الحضارة الغربية، فيرون الحياة بأنها المنفعة، وأدى إلى أن يأخذوا ببعض الأنظمة الغربية في الدولة العثمانية، فيؤولوا الربا ويفتحوا المصارف، وأدى إلى أن

يأخذوا القوانين الغربية، فيعطلوا الحدود الشرعية ويأخذوا من الغرب قوانين العقوبات، فكان هذا العمل طامة كبرى على الدولة أبعدها عن الحكم بالإسلام، وإن كانت قد تذرعت بالفتاوى في جواز هذه الأعمال. فكان بُعْدُها هذا قد أضعف فيها حرارة الإيمان، وبالطبع صارت تسير على غير هدى، فأدى ذلك إلى الضعف والانحلال.

هذا من ناحية الفهم، أما من ناحية التطبيق فقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى إساءة التطبيق، منها أن الأحزاب السياسية التي كانت ترى أن رأيها هو الذي يجب أن ينفذ قد اتخذت الأعمال الحربية طريقة للوصول إلى الحكم لتطبق رأيها، و لم تتخذ الأمة طريقة لذلك، فقام العباسيون واستولوا على فارس والعراق واتخذوها نقطة ارتكاز لينتقلوا منها حتى استولوا على الدولة ليكون الحكم في بني هاشم، ثم كان الفاطميون الذين أخذوا مصر وأقاموا فيها دولة ليتخذوا منها نقطة ارتكاز ينتقلون منها ليستولوا على الدولة الإسلامية ليكون الحكم قائماً على الأفكار الإسماعيلية المخالفة للشرع، فأوجدوا في الحالة الأولى صدمة أوقفت الفتوحات عند حد، وشغلت الدولة بالداخل. وأوجدوا في الثانية صراعاً بين دولتين مما جعل المسلمين يعيشون في دولتين في حين أنه لا يجوز أن يكون للمسلمين أكثر من دولة واحدة، فكان لذلك أثر في إضعاف الدولة، وفي وقوفها عن الفتح وعن حمل الدعوة. إلا أن الذي أدى إلى اتخاذ الأحزاب السياسية هذه الطريقة هو ما حصل من الخلفاء الأمويين من اتباع طريقة العهد للخليفة ثم البيعة له، مما لم يجعل الأمل موجوداً في انتظار البيعة والاعتماد عليها في الوصول إلى الحكم، فقد عهد معاوية إلى ابنه يزيد وأخذ البيعة له، ثم صار

كل خليفة يعهد إلى من بعده، ثم يبايعه الناس، وهذا وجه المسلمين لمبايعة من يعهد إليه بالخلافة، وقلما يبايعون شخصاً آخر فحملت هذه الطريقة الأحزاب السياسية لأن تتخذ القوة طريقة للوصول إلى الحكم. ومع أن العهد طريقة اتخذها أبو بكر في عهده إلى عمر، إلا أن إساءة تطبيقها أدى إلى هذه النتائج، فأبو بكر أخذ رأي المسلمين فيمن يكون خليفة بعده، وظهر من المذاكرة أن المرشحين للخلافة محصورون بعلي وعمر، ثم كان العهد لعمر فانتخب، وبعد وفاة أبي بكر حصلت البيعة لعمر، وهذا أمر شرعي، غير أن الخلفاء الذي عهدوا فيما بعد لغيرهم قد أساءوا تطبيق هذه الطريقة، فجعلوا العهد لأبنائهم أو إخوانهم أو من أسرتهم، وجعلوه لأكثر من واحد في بعض الأحيان، فكانت إساءة التطبيق هذه سبباً في حرمان المسلمين من بيعة من يريدون، فأدى إلى ضعف الدولة. غير أن هذا لم يؤثر يوم كانت الدولة قوية، ولكنه ظهر أثره فيما بعد حين ضعفت الدولة.

على أن الأمر في الدولة لم يقتصر على أمر بيعة الخليفة، بل تعدى ذلك إلى الولاة، فإن سكوت الدولة العباسية على عبد الرحمن الداخل في الأندلس وتركها له يستقل فيها، قطع من الدولة الإسلامية جزءاً يدار إدارة منفردة من قبل ولاة أطلقوا على أنفسهم فيما بعد اسم أمير المؤمنين، وانه وإن كانت الأندلس لم تنفصل عن جسم الدولة ولم ينفصل المسلمون فيها عن باقي المسلمين، وظلوا جزءاً من الأمة الإسلامية ولكنها مع ذلك كانت منفصلة الإدارة، فأدى ذلك إلى تسرب الضعف لها مما سهل استيلاء الكفار عليها وأخذهم لها والدولة الإسلامية في عنفوان مجدها وفي أوج قوتها ولم تستطع أن تدفع عنها عادية الأعداء للانحلال الذي كان في كيان الأندلس.

هذا في المغرب، أما في المشرق فإن إعطاء الولاية العامة للولاة، وجعل الصلاحيات الواسعة لهم حرك فيهم أحاسيس السيادة وأطمعهم، فاستقلوا بالإدارة الداخلية، ورضي الخليفة منهم ذلك، واكتفى بالدعوة له على المنابر، وفي صدور براءة التعيين منه، وفي ضرب النقد باسمه، وإرسال الخراج له، فكانت الولايات في استقلالها الداخلي تشبه الدويلات، كما كان الحال مع السلجوقيين والحمدانيين وغيرهم، وهذا أيضاً كان من أسباب الضعف، فكانت جميع هذه الأمور سبباً أدى إلى ضعف الدولة الإسلامية، إلى أن جاء العثمانيون وحولوا الخلافة لهم، ووحدوا أكثر البلاد الإسلامية تحت سلطانهم، ثم حملوا الدعوة لأوروبا واستأنفوا الفتوحات، إلا أن ذلك كله لم يكن مستنداً إلا على أساس قوة إيمان الخلفاء الأوائل من العثمانيين، وعلى أساس قوة الجيش، ولم يكن مستنداً على أساس فهم صحيح للإسلام، وتطبيق كامل له، ولذلك لم تنتج هذه الفتوحات ما أنتجته الفتوحات الأولى، ولم تكن القوة أساسية في الأمة الإسلامية كلها، ولهذا ما لبثت هذه الدولة أيضاً أن ضعفت ثم انهارت وذهبت الدولة الإسلامية، ولم يكن ذهابها إلا أثراً للعوامل الكثيرة التي كانت تحصل، وللمكائد المتعددة التي كانت تحاك لها من أعداء الإسلام، وتتلخص عوامل ضعف الدولة التي سببت ذهابها في عاملين اثنين: ضعف فهم الإسلام، وإساءة تطبيقه. ولذلك فإن الذي يعيد دولة الإسلام هو فهم الإسلام فهماً صحيحاً، والذي يحفظ قوة الدولة هو استمرارها على الفهم الصحيح للإسلام وإحسانها تطبيقه في الداخل وحمل دعوته إلى الخارج.

انحلال الدولة الإسلامية

لقد بدأ الضعف الفكري في الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس الهجري حين قام بعض العلماء ينادون بسد باب الاجتهاد، وكان ذلك نذير ضعف الدولة، ومع أنه وجد بعد ذلك مجتهدون، غير أن الضعف الفكري أخذ يستفحل، فأثر ذلك في كيان الدولة، حتى تسرب التفكك إليه، واستولى عليها الوهن، وما أن جاءت الحروب الصليبية حتى كانت الدولة في حال لم تجعلها قادرة على الثبات أمام الصليبيين، ووقعت الدولة في حروب متتالية استمرت زهاء قرنين، كان النصر في أول الأمر حليف الصليبيين، فاستولوا على جزء من البلاد الإسلامية، ثم استطاعت أن تنقذ البلاد الإسلامية من أيديهم، فانتقل الحكم إلى المماليك الذين أهملوا أمر اللغة العربية، وأهملوا أمر النواحي الفكرية والتشريعية، فأغلق باب الاجتهاد وضعف فهم الإسلام، وأوجب العلماء التقليد، فازداد الوهن في كيان الدولة، وكانت غزوة التتار، فزادت الطين بلة، وأضعفت من قوة الدولة، إلا أن ذلك كله أثر في كيان الدولة الداخلي ولم يؤثر في كيانها الخارجي، ولم يضعف موقفها الدولي، وظلت الدولة الإسلامية قوية الشكيمة، مرهوبة الجانب، تمثل في العالم المعمور الشطر الأكبر والأقوى فيه، وتسلمت الدولة العثمانية حكم أكثر العالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري، الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي. وفي القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي ضمت إليها البلاد العربية، وامتد سلطانها امتداداً كبيراً، وعنيت

بقوة السلطان وتنظيم الجيش، وأبهة الحكم، واشتغلت بالفتوحات، وأهملت أمر اللغة العربية، مع أنها ضرورية لفهم الإسلام، وشرط من شروط الاجتهاد، ولم تُعْنَ بأمر الإسلام من حيث الفكر، ومن حيث التشريع، فانخفض مستواها الفكري والتشريعي، وبسبب ذلك كانت الدولة قوية قوة ظاهرية، ولكنها في الحقيقة ضعيفة ضعفاً بيناً، بسبب الضعف الفكري والتشريعي، إلا أن هذا الضعف لم تلاحظه الدولة الإسلامية حينئذٍ، لأنها كانت في عنفوان مجدها، وفي أوج عظمتها، وفي منتهى قوتها العسكرية. ولأنها كانت تقيس فكرها وتشريعها وحضارتها بأفكار أوروبا وتشريعها وحضارتها، فتجد نفسها خيراً من أوروبا فكراً وتشريعاً وحضارة، فترتاح لذلك وترضى بهذا الضعف؛ لأن أوروبا كانت تتخبط في دياجير الجهالة وظلام الفوضى والاضطراب، وتتعثر في محاولات النهضة وتفشل في كل محاولة تقوم بها. ولذلك كان قياس الدولة العثمانية حالها بحال أوروبا يريها أنها في وضع حسن، وعلى نظام صالح، وذات حضارة فائقة، وقد عميت عن حالتها الداخلية فلم تشاهد الهزال الداخلي، ولم تشاهد جمود الفكر وجمود التشريع وتفكك الأمة. وقد أعماها عن رؤية ذلك انتصارها على أوروبا واستيلاؤها على البلقان والجزء الجنوبي الشرقي منها، مما أثار الرعب في جميع دول أوروبا من الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية، وصار متركزاً عند الجميع أن الجيش الإسلامي لا يغلب، وأنه لا قبل لأحد بمواجهة المسلمين.

ثم ظهرت المسألة الشرقية للوجود، وكان معناها حينئذٍ اتقاء الخطر من زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الفاتح في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، ومَنْ خَلَفَهُ من السلاطين، ذلك الزحف الذي

استمر إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري على يد سليمان القانوني وتركز تركزاً قوياً حتى أواسط القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. وفي هذه المدة كانت قوة الاستمرار في الدولة الإسلامية عاملاً فعالاً في إعطاء الدولة هذه القوة، فقد كانت قوة العقيدة عند المسلمين، ووجود مفاهيم معينة عن الحياة رغم عدم بلورتها في أذهانهم، ووجود نظام الإسلام في الحياة رغم إساءة تطبيقه، كل ذلك سند الدولة ومكنها من الاستمرار والقوة. وساعدها على ذلك الحالُ المضطربة فكرياً وتشريعياً في أوروبا، وكان من الممكن أن تحاول الدولة فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن تُعنى باللغة العربية، وتشجع الاجتهاد، وتهتم بالناحية الفكرية والتشريعية، حتى يحصل تركيز هذه الدولة تركيزاً متيناً، وحتى يكون انطلاقها في الكرة الأرضية انطلاقاً كاملاً، فتفتح بالإسلام باقي أجزاء العالم، حاملة لهم الإسلام، وبذلك تركز نفسها، وتطبع العالم بالحضارة الإسلامية، وتنقذ بني الإنسان مما هم فيه من فساد وشرور. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولم يكن تشجيع اللغة العربية سوى إعطاء العرب بعض مناصب التدريس وبعض المناصب العلمية، مما لم يكن له أي أثر في تقوية اللغة، ولا في إيقاظ الفكر؛ لأنه لم يعمل على إحياء هذه اللغة، وجعلها وحدها لغة الدولة كما هو الواجب في الدولة الإسلامية، ولأنه لم يعمل شيء بالنسبة للناحية الفكرية ولا الناحية الفقهية، ولذلك لم تؤثر هذه الحركة الضعيفة المغلوطة، وظل الحال سائراً في سبيله المعوج. وما أن أتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) حتى تحول الأمر وبدأ الضعف الداخلي يبرز، لأن كيان الدولة كان قائماً على بقايا النظام الإسلامي الذي يساء تطبيقه، وعلى أفكار مضطربة منها الإسلامية ومنها الدخيلة على

الإسلام، وكان الحكم في جملته في جو النظام الإسلامي أكثر منه في نظام الإسلام، من جراء الفهم المغلوط للأفكار الإسلامية، ومن جراء إساءة تطبيق نظام الإسلام، لفقدان الاجتهاد وعدم وجود المجتهدين.

وما أن جاء القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي حتى كان ميزان التاريخ بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية في تأرجح، فأخذت كفة العالم الإسلامي تخف في الوزن، وكفة الدول الأوروبية ترجح شيئاً فشيئاً. فقد بدأت اليقظة في أوروبا، وبدأت تظهر نتائجها وبدأت تظهر على المسلمين نتائج الجمود الفكري وسوء التطبيق للإسلام. وذلك أن القرن التاسع عشر شاهد انقلاباً خطيراً في الأفكار الأوروبية على أثر المجهود العظيم الذي بذله الفلاسفة والكتاب والمفكرون، والتغيير الشامل الذي طرأ على الفكر الأوروبي لإحياء الشعوب، فنشأت الحركات المتعددة التي كان لها أثر في إحداث آراء جديدة في وجهة النظر في الحياة. وكان من أهم ما وقع تعديل الأنظمة السياسية والتشريعية وجميع أنظمة الحياة، فقد زال شبح الملكية المستبدة تدريجياً في أوروبا، وحلت محلها أنظمة حكومية جديدة قائمة على الحكم النيابي وسيادة الأمة، فكان لهذا أثر كبير في توجيه النهضة الأوروبية، كما كان للانقلاب الصناعي الذي ظهر في هذا القرن في أوروبا الأثر الفعال. كما ظهرت الاختراعات المتعددة. فكان لذلك في مجموعه الأثر الفعال في تقوية أوروبا وفي تقدمها الفكري والمادي. وكان من جراء هذه القوى المادية والتقدم العلمي أن رجحت كفة العالم الأوروبي على العالم الإسلامي في الموقف الدولي رجحاناً عظيماً فتغير مفهوم المسألة الشرقية، فلم تعد مسألة اتقاء الأخطار الإسلامية على أوروبا، وإنما صارت مسألة الإبقاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها، حيث اختلفت عليها الدول

تبعاً لاختلافها في المصلحة، وكان هذا الانقلاب في مفهوم المسألة الشرقية وما طرأ على أحوال أوروبا من الارتفاع الفكري، والتقدم العلمي، والثورة الصناعية؛ وما طرأ على العثمانيين من الضعف والتفكك، كل ذلك أدى إلى هذا الانقلاب السياسي بين الدولة الإسلامية ودول الكفر، فرجحت كفة الأوروبيين وخفت كفة المسلمين.

وكان سبب هذا الانقلاب السياسي في حالة أوروبا محاولة المفكرين فيها الوصول إلى نظام للحياة. وقد كان اتخاذهم وجهة نظر معينة في الحياة، واعتناقهم عقيدة معينة، وبناء النظام على أساسها، هو الذي قلب مفاهيم الأشياء عندهم وقلب مراتب القيم لديهم، مما أدى إلى الانقلاب العام في الحياة، ومما ساعد على وجود الانقلاب الصناعي العظيم. بخلاف الحال في العالم الإسلامي أو في الدولة العثمانية التي كانت تتزعمه، فإنها بدل أن تنظر لأوضاعها النظرة الصحيحة، وتفكر في مبدئها التفكير العميق، وتثير الأفكار وتعمل على إيجاد الاجتهاد، وتعالج مشاكلها حسب الأحكام المنبثقة عن عقيدتها، وتقبل على العلم والصناعة، بدل أن تفعل كل ذلك أصابتها حيرة وقلق مما حصل في أوروبا، ووقفت جامدة من جراء هذه الحيرة، ونتج عن ذلك تخلف الدولة العثمانية من الناحية العلمية والصناعية، فتخلفت في الرقي المادي وتخلفت عن باقي الدول. والسر في ذلك هو أن الدولة العثمانية دولة إسلامية، والشعوب التي تحكمها شعوب مسلمة. والإسلام هو عقيدة الدولة وهو نظامها، وأفكاره أفكارها، ووجهة نظره في الحياة هي وجهة نظرها، فكان عليها أن تنظر إلى الأفكار الجديدة التي حصلت في أوروبا وتقيسها بقاعدتها الفكرية، وأن تنظر إلى المشاكل الحديثة من وجهة نظر إسلامية فتعطي حكمها على الأفكار والمشاكل باجتهاد صحيح حسب وجهة نظر

الإسلام، فَتَبُتُّ في شأنها من حيث الصحة والفساد، ولكنها لم تفعل؛ لأن الأفكار الإسلامية لم تكن واضحة لديها، فلم تكن لها مفاهيم محددة. ولأن العقيدة الإسلامية لم تكن قاعدة فكرية تبنى عليها جميع الأفكار، وإنما كانت عقيدة تقليدية. فكان الأساس الذي تقوم عليه الدولة وهو العقيدة والأفكار غير واضح لدى الدولة العثمانية، وكان النظام جامداً لعدم وجود الاجتهاد، وكانت الحضارة التي هي مجموع المفاهيم عن الحياة غير مبلورة وغير مقترنة بأعمال الدولة، فسبب ذلك الانحطاط الفكري وعدم وجود نهضة، ولهذا وقفوا مبهوتين أمام ما شاهدوه في أوروبا من الانقلاب الفكري والصناعي، فلم يقطعوا بأخذه، ولم يقطعوا بتركه، ولم يميزوا بين ما يجوز أن يأخذوه من علوم وصناعات واختراعات، وبين ما لا يجوز أن يأخذوه من فلسفة تعين وجهة النظر في الحياة، وحضارة هي مجموع المفاهيم عن الحياة. وبذلك جمدوا ولم يتحركوا، فكان هذا الجمود سبباً في وقوف عجلتهم في حين كانت عجلة الدول الأوروبية تسير، وما ذلك كله إلا بسبب عدم فهمهم الإسلام فهماً صحيحاً، وعدم إدراكهم التناقض بين الأفكار الأوروبية وأفكارهم، وعدم تمييزهم بين العلم والصناعات والاختراعات مما يحثهم الإسلام على أخذها، وبين الفلسفة والحضارة والفكر مما يمنعهم الإسلام من أخذها.

نعم لقد عُمّيَ الإسلام على العثمانيين فلم يفهموه فهماً صحيحاً، وكانت هذه التعمية هي التي جعلت الأمة والدولة تعيش كيفما اتفق، دون أن تعنى بما عندها من نظام، في حين أن خصومها تمسكوا بنظام معين وساروا عليه. وبذلك صارت أوروبا صاحبة مبدأ مهما كانت عقيدته، ومهما كانت فلسفته وصارت الأمة الإسلامية صاحبة المبدأ الصحيح تعيش

في خيال هذا المبدأ الذي يطل عليها من وراء القرون، لأنها كانت تعيش في وضع يساء فيه تطبيق مبدئها. ومع أن الرسول ﷺ يقول: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**». ومع أن الدولة إسلامية، والأمة إسلامية، ومع أن الثروة الفكرية والفقهية كانت في متناول الأيدي، إلا أن الدولة لم تفهم معنى هذا الحديث لترجع إلى الإسلام في أصوله على أساس أنه عقيدة ونظام، ولم تنتفع بهذه الثروة التي لا مثيل لها عند الأمم.

نعم لم تنتفع بذلك لأنه لما وقف الاجتهاد ووقف النشاط الفكري ضعفت المفاهيم الإسلامية عند المسلمين، وتخلفت المعارف الإسلامية، وبقيت الكتب والثروات العلمية محفوظة في خزائنها، ولم يعد هنالك علماء مفكرون إلا قليلون، وقلت الرغبة في البحث والتنقيب عن الحقائق، وصارت المعارف لا تطلب للعمل بها في الدولة وفي معترك الحياة؛ لأن الدولة لا تشجعها، بل صار العلماء يطلبون العلم والثقافة للترف العقلي ويطلقون عليه أنه طلب العلم للعلم، أو يطلبون العلم للارتزاق. وقل منهم من يطلب العلم لنفع الأمة والدولة. وبسبب هذه الحال لم تعد هناك حركة علمية أو ثقافية أو تشريعية، فكان من جراء ذلك اضطراب فهم الإسلام، وصار المسلمون يفهمون الإسلام فهماً روحياً أكثر منه فهماً فكرياً وسياسياً وتشريعياً؛ إذ عميت فكرته الأصلية وطريقته التي تنفذ بها هذه الفكرة، فعمي عليهم فهم الكتاب والسنة وصاروا يفهمون أن الإسلام مجرد دين روحي، ويقارنون بينه وبين باقي الأديان بما له من مميزات عليها كأديان روحية، بدل أن ينظروا إليه عقيدة ونظاماً لجميع شؤون الحياة. ولذلك لم يكن غريباً أن تقف الأمة الإسلامية تحت قيادة الدولة العثمانية موقف الجمود والحيرة والقلق من الحركة الانقلابية التي حصلت في أوروبا، وأن

تظل متأخرة تأخراً ظاهراً دون أن تتأثر بالرقي الاقتصادي الذي شمل أوروبا، ولا بتعدد الاختراعات التي كانت فيها، ولا بالحركة الصناعية التي سادتها، اللهم إلا تأثراً جزئياً بشكل مضطرب مشوش لم تكن له فائدة، و لم يمكنها من التقدم المادي، بل لم يمكنها من وقف عجلة التأخر التي كانت تهوي بها إلى الانخفاض والضعف. وسبب ذلك يرجع إلى أنهم لم يفرقوا بين العلم والثقافة، وبين الحضارة والمدنية، ولذلك وقفوا تجاهها وقفة الحائر، أيأخذونها أم يتركونها، فكثيرون كانوا يرونها أنها جميعها تتعارض مع الإسلام، ولذلك نادوا بتحريم أخذها. حتى إنه حين ظهرت المطابع وعزمت الدولة على طبع القرآن الكريم حرم الفقهاء حينئذٍ طبعه، وصاروا يفتون بتحريم كل جديد، وتكفير كل من يتعلم العلوم الطبيعية، واتهام كل مفكر بالزندقة والإلحاد؛ وكان هناك جماعة قليلون يرون ضرورة أخذ كل شيء من الغرب، من علم وثقافة وحضارة ومدنية، وهؤلاء كانوا من الذين تعلموا في أوروبا أو في المدارس التبشيرية التي كانت قد دخلت البلاد، وهؤلاء لم يكن لهم تأثير في أول الأمر، وجمهرة الناس كانت تحمل فكرة محاولة التوفيق بين الإسلام وبين الثقافة والعلوم والحضارة والمدنية التي يحملها الغرب، فقد سادت في أواخر الدولة العثمانية فكرة مؤداها أن الغرب أخذ حضارته من الإسلام، وأن الإسلام لا يمنع أخذ ما يوافقه والعمل بما لا يخالفه، وقد نجح الغرب في نشر هذه الفكرة حتى سادت وحملتها جمهرة الناس ولا سيما المتعلمين، وكثير منهم من الفقهاء والعلماء، وكانوا يسمونهم علماء عصريين، وأطلق عليهم أنهم مصلحون. ونظراً للتناقض الحقيقي بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وللتباين الواضح بين الثقافة الغربية وما تتضمنه من معانٍ تتعلق بوجهة النظر في الحياة، وبين

الثقافة الإسلامية وما تتضمنه من معانٍ تتعلق بطريقة الحياة، نظراً لهذا التناقض لم يمكن التوفيق بين ما في الإسلام وما في الأفكار الغربية، فأدى ذلك إلى بعد هؤلاء عن الإسلام، وقربهم من الأفكار الغربية بشكل مشوش، فعجزوا عن فهم أفكار الغرب وابتعدوا عن الإسلام. فكان لذلك أثر كبير في إهمال الاختراعات والعلوم والصناعات، وأثر كبير في سوء فهم الإسلام أدى إلى تحويل الأمة إلى هذه المجموعة المتناقضة في الأفكار وإلى عدم استطاعة الدولة أن تجزم في فكر معين، كما أدى إلى إعراض الأمة عن الأخذ بوسائل الرقي المادي من العلوم والاختراعات والصناعات، فضعفت ضعفاً ظاهراً حتى أصبحت غير قادرة على الوقوف، وعاجزة عن حماية نفسها، فكان من جراء هذا الضعف أن أخذ أعداء الإسلام يقتطعون أجزاء الدولة الإسلامية جزءاً جزءاً وهي عاجزة مستسلمة، وأخذ الغزو التبشيري باسم العلم يتغلغل في كيان الأمة الداخلي يفرق صفوفها، ويشعل نار الفتنة داخل البلاد الإسلامية. ونجحت الحركات المتعددة التي تهدم جسم الدولة، وظهرت فكرة القومية، في جميع أجزاء الدولة، في البلقان، وتركيا، والبلاد العربية، وأرمينيا، وكردستان، وما أن جاءت سنة ١٩١٤م حتى كانت الدولة على شفا جرف هار، فدخلت الحرب العالمية الأولى وخرجت منها مهزومة، فقضي عليها. وبذلك ذهبت دولة الإسلام وتحقق للغرب الحلم الذي كان يداعبهم قروناً طويلة، وهو القضاء على الدولة الإسلامية للقضاء على الإسلام. وبذهاب الدولة الإسلامية صار الحكم في جميع البلاد الإسلامية غير إسلامي، وصار المسلمون يعيشون تحت راية غير إسلامية، فاختل أمرهم، وساء حالهم، وصاروا يعيشون في نظام الكفر، ويحكمون بأحكام الكفر.

الغـزو التبشـيري

أخذت أوروبا تغزو العالم الإسلامي غزواً تبشيرياً باسم العلم، ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة. أو بعبارة أخرى غزواً استعمارياً عن طريق التبشير باسم العلم والإنسانية. وذلك لتمكين دوائر الاستخبارات السياسية، ودوائر الاستعمار الثقافي من التمركز في البلاد، حتى كانت طليعة الاستعمار الغربي، وبهذا فسح المجال لهذا الاستعمار، وفتح باب العالم الإسلامي على مصراعيه، وانتشرت الجمعيات التبشيرية في كثير من البلدان الإسلامية. وكان معظمها جمعيات إنكليزية وفرنسية وأمريكية. فتغلغل النفوذ الفرنسي والبريطاني عن طريقها، وأصبحت هذه الجمعيات مع الزمن هي الموجهة للحركات القومية. وأصبحت هي المسيطرة على توجيه المتعلمين من المسلمين، أو توجيه القومية العربية والقومية التركية لغرضين رئيسيين: الأول فصل العرب عن الدولة العثمانية المسلمة، للإجهاز على دولة الإسلام، وأطلقوا عليها اسم (تركيا) لإثارة النعرة العنصرية، والثاني إبعاد المسلمين عن الرابطة الحقيقية التي لم يكونوا يعرفون سواها وهي رابطة الإسلام. وقد انتهوا من الغرض الأول وبقي الثاني قائماً. ولذلك سيظل التوجيه إلى القومية عند الترك والعرب والفرس وغيرهم هو الإسفين الذي يفرق وحدة المسلمين، ويعميهم عن مبدئهم. وقد مرت هذه الجمعيات التبشيرية بأدوار عديدة، وكان أثرها بليغاً في العالم الإسلامي، ومن نتائجه ما نعانيه اليوم من ضعف وانحطاط، لأنها كانت اللبنة الأولى التي وضعت في

السد الذي أقامه الاستعمار بيننا وبين النهوض، وحال به بيننا وبين مبدئنا وهو الإسلام. والذي حمل الأوروبيين على إنشاء الجمعيات التبشيرية في العالم الإسلامي، هو ما عانوه في الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وصبرهم على الجهاد وذلك أن الغربيين حين لاقوا المسلمين في ساحة النـزال كانوا يعتمدون على أمرين حسب رأيهم، وكانوا يعلقون أهمية كبرى على هذين الأمرين للقضاء على الإسلام والمسلمين القضاء التام:

أما أولهما فهو اعتمادهم على النصارى الذين كانوا يسكنون العالم الإسلامي، إذ كان في البلاد الإسلامية نصارى كثيرون، وخاصة في بلاد الشام. وكان هؤلاء النصارى ممن يتمسكون بدينهم، فكانوا يعتبرونهم إخواناً في الدين وظنوا أنهم سيكيدون للمسلمين، وسيكونون عيناً لهم عليهم، بحجة أنهم أثاروا حربهم هذه حرباً دينية.

وأما الأمر الثاني فقد كانوا يعتمدون على كثرة عددهم، وعظم قوتهم، على حين كان المسلمون متقاطعين متدابرين، قد بدأ الانحلال يدب في كيانهم فظنوا أنهم إذا هزموهم أول هزيمة أخضعوهم إلى الأبد، وسهل القضاء عليهم وعلى دينهم. ولكن خاب فألهم ولم يصدق حدسهم. وكم كانت دهشتهم عظيمة حين رأوا أثناء الحروب أن النصارى العرب وقفوا بجانب المسلمين، ولم تؤثر فيهم الدعاوات، وكانوا يحاربون مع المسلمين، لأنهم كانوا يعيشون في دار الإسلام، ويطبق عليهم النظام الإسلامي، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم: يأكل المسلمون من طعام النصارى ويتزوج المسلم النصرانية ويصاهر أهلها، ويخوضون معترك الحياة معاً لأن الإسلام ضمن لهم جميع حقوقهم، وسار على العمل بذلك الخلفاء والحكام، وكان

عليه العمل في دولة الإسلام، وقد نص ابن حزم (على أن من حق حماية أهل ذمتنا إذا تعرض الحربيون لبلادنا، وقصدوهم في جوارنا، أن نموت في الدفاع عنهم، وكل تفريط في ذلك يكون إهمالاً لحقوق الذمة) ويقول القرافي (إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم، وسد خلة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عاريهم، ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم مع القدرة على الدفع، رفقاً بهم لا خوفاً ولا تعظيماً، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم، ودفع من تعرض لإيذائهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكريم الأخلاق أن يفعله)، وهذا كله جعل النصارى يدافعون طبيعياً مع المسلمين. وكانت دهشتهم أعظم حين رأوا أن الأمر الثاني لم يحقق ظنهم. ذلك أنهم قد استولوا على بلاد الشام وهزموا المسلمين شر هزيمة واستعملوا أشد الفظائع، وكانوا أول من ابتدع مع المسلمين إجلاءهم عن ديارهم، وساروا على ذلك في جميع حروبهم مع المسلمين. وظلت هذه طريقتهم حتى الآن كما حصل في فلسطين، وكانوا يظنون أن الأمر قد استتب لهم، وأنه لن تقوم للمسلمين قائمة. ولكن المسلمين ظلوا مصممين على إخراجهم من بلادهم، وبالرغم من مكثهم مدة تقرب من قرنين، أقاموا فيها ممالك وإمارات في بلاد الشام، فإن المسلمين استطاعوا في النهاية أن يتغلبوا على الصليبيين، وأن يطردوهم من ديارهم.

وقد بحثوا عن السر في ذلك كله فوجدوه في الإسلام، لأن عقيدته هي منشأ هذه القوة العظيمة في المسلمين، وأحكامه بالنسبة لغير المسلمين ضمنت لهم حقوقهم فنتج هذا التماسك بين الرعية، ولذلك فكر الكافر

المستعمر في طريقة يغزو بها هذا العالم الإسلامي، فوجد أن خير طريق هي سلوك الغزو الثقافي عن طريق التبشير ليكسبوا النصارى إلى جانبهم، وليثيروا شكوك المسلمين في دينهم، ويزعزعوا عقيدتهم. وبذلك يوجدون الانقسام بين المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة الإسلامية، ويضعفون قوة المسلمين.

ونفذوا ذلك بالفعل، فأسسوا في أواخر القرن السادس عشر مركزاً كبيراً للتبشير في مالطة، وجعلوها قاعدة هجومهم التبشيري على العالم الإسلامي إذ منها كانت ترسل قوات التبشير، فإنهم بعد أن استقر بهم المقام ومكثوا مدة، شعروا بضرورة مد نشاطهم، فانتقلوا لبلاد الشام سنة ١٦٢٥م، وحاولوا إيجاد الحركات التبشيرية، غير أن نشاطهم كان محدوداً جداً، لم يتعد تأسيس بعض المدارس الصغيرة، ونشر بعض الكتب الدينية. وعانوا مشقات كبيرة من اضطهاد وإعراض ومحاربة من الجميع. إلا أنهم ثبتوا حتى سنة ١٧٧٣م، حيث ألغيت الجمعيات التبشيرية لليسوعيين، وأغلقت مؤسساتهم ما عدا بعض الجمعيات التبشيرية الضعيفة كجمعية المبشرين العازاريين. وبالرغم من وجودها انقطع أثر المبشرين والتبشير، ولم يعد لهم وجود إلا في مالطة حتى سنة ١٨٢٠م، حيث أسس أول مركز للتبشير في بيروت، وبدأ نشاطهم فيها، فلاقوا صعوبات كثيرة، وبالرغم من هذه الصعوبات استمروا في عملهم، وكانت عنايتهم الأولى منصرفة إلى التبشير الديني والثقافة الدينية، وكانت عنايتهم بالتعليم ضعيفة، وفي سنة ١٨٣٤م انتشرت البعثات التبشيرية في سائر بلاد الشام، ففتحت كلية في قرية عنتورة في لبنان، ونقلت الإرسالية الأميركية مطبعتها من مالطة إلى بيروت، لتقوم بطبع الكتب ونشرها. ونشط المبشر الأميركي المشهور (إيلي

سميث) نشاطاً ظاهراً. وقد كان هذا المبشر في مالطة يشتغل في التبشير متطوعاً، ويتولى أمر مطبعة الإرسالية. وفي سنة ١٨٢٧م حضر لبيروت، ولكنه ما لبث سنة حتى تولاه الذعر والملل، و لم يطق صبراً فرجع إلى مالطة، ثم عاد إلى بيروت سنة ١٨٣٤م وفتح هو وزوجته مدرسة للإناث، واتسع المجال أمامه ووقف حياته للعمل في بيروت بوجه خاص وفي بلاد الشام بوجه عام. وبذلك تعاونت هذه الجهود جميعاً في بعث حركة التبشير، وكان قيام إبراهيم باشا بتطبيق برنامج للتعليم الابتدائي في سوريا ــ مستوحى من برنامج التعليم الموجود في مصر المأخوذ من برامج التعليم الابتدائي في فرنسا ــ فرصة لهؤلاء المبشرين، فاغتنموها وساهموا في الحركة التعليمية من وجهة النظر التبشيرية، ثم شملت حركة الطباعة. وبذلك نشطت الحركة التبشيرية، وشاركت في الحركة التعليمية مشاركة ظاهرة. وقد استطاعوا بنشاطهم هذا أن يوغروا الصدور بين رعايا الدولة الإسلامية باسم الحرية الدينية. وأوجدوا بين المسلمين والنصارى والدروز نشاطاً دينياً يتصل بالعقيدة.

وحين انسحب إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠م من بلاد الشام انتشر القلق والفوضى والاضطراب فيها، وانقسم الناس على أنفسهم، واغتنم الموفدون الأجانب ــ لا سيما رجالات البعثات التبشيرية ــ ضعف نفوذ الدولة العثمانية في البلاد، وحينئذٍ أخذوا يشعلون نار الفتنة. وما مر عام واحد وحلت سنة ١٨٤١م، حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرها، حتى اضطرت الدولة العثمانية ــ بتأثير ضغط الدول الأجنبية ــ أن تضع للبنان نظاماً جديداً تقسمه فيه إلى قسمين: يسود النصارى في قسم منه، ويسود الدروز في القسم الآخر، وتعين حاكماً

للقسمين. وأرادت بذلك أن تتفادى الاحتكاك بين الطائفتين. غير أن هذا النظام لم ينجح، لأنه لم يكن طبيعياً. وقد تدخلت كل من إنجلترا وفرنسا في هذا الخلاف، وكانتا تشعلان نار الفتنة كلما حاول القائمون على الأمر إخمادها، وأخذ الإنكليز والفرنسيون يتخذون هذا الاحتكاك بين الطوائف ذريعة للتدخل في شؤون لبنان. وانحاز الفرنسيون إلى جانب الموارنة، وانحاز الإنكليز إلى جانب الدروز، مما أدى إلى تجدد الاضطرابات سنة ١٨٤٥م بشكل فظيع، شمل الاعتداء فيه الأديرة والكنائس، واستعمل فيه السلب والنهب والقتل، مما اضطر الحكومة العثمانية إلى إرسال ناظر خارجيتها إلى لبنان، ليتلافى الأمر بما لديه من الصلاحيات المطلقة. ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً مهماً، وإن كان قد أخمد الحالة نوعاً ما. إلا أن المبشرين ازداد نشاطهم. وما أن جاءت سنة ١٨٥٧م حتى بدأت فكرة الثورة والاصطدامات المسلحة في طائفة الموارنة، فقد قام رجال الدين الموارنة بتحريض الفلاحين على الإقطاعيين، وهاجموهم في لبنان الشمالي هجوماً عنيفاً، واشتعلت نار الثورة هناك، ثم امتدت إلى الجنوب، فثار الفلاحون النصارى على الإقطاعيين الدروز. وأخذت كل من إنكلترا وفرنسا تؤيد جماعتها، فالإنكليز يؤيدون الدروز والفرنسيون يؤيدون النصارى. وبذلك توسعت الفتنة توسعاً عاماً، حتى شملت جميع لبنان. وأخذ الدروز يقتلون جميع النصارى لا فرق بين رجال الدين وغيرهم، حتى قُتِلَ وشرد آلاف من النصارى من جراء القسوة التي كانت تنطبع بها الاضطرابات. ثم سرت موجة الاضطرابات إلى سائر بلاد الشام، وهبت في دمشق موجة من البغضاء الشديدة بين المسلمين والنصارى، أدت في شهر تموز سنة ١٨٦٠م إلى أن يهاجم المسلمون حي النصارى، ويقوموا بمذبحة كبيرة. وقد صاحب

تلك المذابح شيء من التخريب والتدمير والاضطراب، حتى اضطرت الدولة إلى وقف الفتنة بالقوة. وبالرغم من أن الاضطرابات خمدت وكادت تنتهي، إلا أن الدول الغربية رأت أن هذه هي الفرصة التي تتيح لها أن تتدخل في بلاد الشام. فأرسلت البوارج الحربية إلى سواحلها. وفي شهر آب من السنة نفسها أرسلت فرنسا حملة برية من الجيش الفرنسي، نزلت في بيروت، وأخذت تعمل لإخماد الثورة. وهكذا حصلت للدولة العثمانية في سوريا فتنة خلقتها الدول الغربية، لتكون باباً لتدخلهم. فتدخلوا وأجبروها على أن تخضع لوضع نظام خاص لسوريا، يقسمها إلى ولايتين، وأن تمنح لبنان امتيازات خاصة، ففصلت لبنان عن سائر أجزاء البلاد الشامية، ومنحته استقلالاً ذاتياً، يتمتع فيه بنظام محلي للإدارة، على رأسه حاكم مسيحي، ويعاونه مجلس إداري يمثل السكان. ومن ذلك الحين رعت الدول الأجنبية أمر لبنان، وجعلته مركزاً لها، فكان رأس الجسر الذي نفذ منه الأجانب إلى قلب الدولة العثمانية والبلاد الإسلامية.

وفي هذه الأثناء اتخذت أعمال التبشير مظهراً آخر لم يكن موجوداً من قبل، فلم يكتفوا بحركة المدارس ودور التبشير والمطابع والمستوصفات، بل تعدوا ذلك إلى تأسيس الجمعيات، ففي سنة ١٨٤٢م تشكلت لجنة لتأسيس جمعية علمية تحت رعاية الإرسالية الأميركية وفق برنامجها. وقد سارت هذه اللجنة في طريقها مدة خمس سنوات، حتى تمكنت في سنة ١٨٤٧م من تأسيس جمعية سمتها (جمعية الفنون والعلوم). وكان أعضاؤها ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني من نصارى لبنان أخذتهما بوصفهما من نصارى العرب، وإيلي سميث، وكورنيليوس فان ديك من الأميركان،

والكولونيل تشرشل من الإنكليز. وكانت أهداف هذه الجمعية في أول الأمر غامضة، ولكنها كانت تظهر بمظهر نشر العلوم بين الكبار، كما تنشر العلوم في المدارس بين الصغار. وحمل الكبار كما يحمل الصغار على تثقيفهم بالثقافة الغربية، موجهين بتوجيه خاص وفق الخطة التبشيرية. وبالرغم من نشاط رجال هذه الجمعية وبذل جهودهم الجبارة فيها، فإنه لم ينتسب لها خلال عامين سوى خمسين عضواً عاملا من جميع بلاد الشام، كلهم من النصارى، وأكثرهم من سكان بيروت، ولم يدخل في الجمعية من المسلمين أو من الدروز أي عضو مطلقاً. وقد بذلت جهود جبارة لتوسيعها وتنشيطها، ولكنها لم تثمر، وماتت الجمعية بعد خمس سنوات من تأسيسها، دون أن تترك إلا أثراً واحداً، هو الرغبة عند المبشرين في تأسيس الجمعيات. ولذلك أسست جمعية أخرى سنة ١٨٥٠م باسم (الجمعية الشرقية) أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب اليسوعي الفرنسي (هنري دوبرونير). وكان أعضاؤها كلهم من النصارى، وسارت على منهاج جمعية العلوم والفنون، ولكنها لم تعش طويلاً، وماتت بعد موت الجمعية الأولى بقليل. ثم تأسست عدة جمعيات كانت كلها تصاب بالإخفاق التام، حتى تشكلت سنة ١٨٥٧م جمعية على أسلوب جديد، روعي فيها أن لا يدخلها أحد من الأجانب مطلقاً، فقد كان مؤسسوها كلهم من العرب. وبذلك أتيح لها أن توفق إلى أن تضم بين أعضائها بعض المسلمين وبعض الدروز أخذتهم بوصفهم عرباً. وتأسست باسم (الجمعية العلمية السورية) واستطاعت بفضل نشاطها وظهورها بالمظهر العربي، وعدم وجود أي عضو فيها من الغربيين، أن تؤثر في الناس، حتى انتسب إليها عدد كبير بلغ مئة وخمسين عضواً. وكان بين أعضاء إدارتها شخصيات بارزة من العرب، منهم محمد

أرسلان من الدروز، وحسين بيهم من المسلمين، وانضم إليها كذلك من كل طائفة من نصارى العرب، ومن أشهرهم إبراهيم اليازجي وابن بطرس البستاني. وهذه الجمعية عاشت مدة أطول من المدة التي عاشها غيرها من الجمعيات. وكان من برنامجها التوفيق بين الطوائف، وبعث القومية العربية في النفوس. ولكن غايتها المخفية كانت استعمارية تبشيرية باسم العلم وكانت تتجلى ببعث الثقافة الغربية والحضارة الغربية. ثم في سنة ١٨٧٥م تألفت في بيروت الجمعية السرية، وأخذت هذه الجمعية تركز على فكرة سياسية، فأخذت تبعث فكرة القومية العربية. والذين قاموا بتأسيسها هم خمسة شبان من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت. وكانوا جميعاً من النصارى الذين استطاعت الجهات التبشيرية أن تؤثر فيهم، فقام هؤلاء الشبان بتأسيس هذه الجمعية، وبعد مضي مدة استطاعوا أن يضموا إليهم عدداً قليلاً، ومع أن هذه الجمعية، كانت ترمي فيما بينته من أقوال ومنشورات إلى القومية العربية وإلى استقلال العرب السياسي، وخاصة في سوريا ولبنان، إلا أنه كان يتجلى في عملها وبرامجها وما وصل عنها من أخبار، أنها ترمي إلى صب الرغبات الغامضة، والآمال المبهمة في النفوس. وكانت تدعو للقومية وللعرب والعروبة، وتثير العداء للدولة العثمانية وتسميها (التركية) وتعمل على فصل الدين عن الدولة وجعل القومية العربية هي الأساس. ومع أن هذه الجمعية كانت تلبس ثوب العروبة إلا أن القائمين عليها كثيراً ما ضمنوا نشراتهم اتهام (تركيا) ــ حسب تعبيرهم ــ بأنها اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب، وأنها تجاوزت على الشريعة الإسلامية الغراء، وأنها فرطت في الدين، مما يدل على الغاية التي وجدت من أجلها، وهي إثارة القلاقل ضد الدولة الإسلامية وتشكيك الناس في الدين

وإقامة الحركات السياسية على غير الإسلام. والذي يجزم به من تتبع تاريخ هذه الحركات أن الغربيين هم الذين أنشأوها، وأنهم كانوا يراقبونها، ويشرفون عليها، ويهتمون بها، ويكتبون تقاريرهم عنها. فقد كتب قنصل بريطانيا في بيروت بتاريخ ٢٨ تموز سنة ١٨٨٠م برقية بعثها إلى حكومته، ونصها (ظهرت نشرات ثورية يشتبه أن يكون مدحت مصدراً لها، مع ذلك يسود الهدوء التفاصيل بالبريد)، وكانت هذه البرقية إثر توزيع الجمعية المذكورة منشورات لها في الشوارع ولصقها على الجدران في بيروت. وقد تبعت هذه البرقية عدة رسائل من القناصل البريطانيين في بيروت ودمشق. وكانت هذه الرسائل ترفق بنسخ من النشرات التي كانت توزعها الجمعية. وكانت بمثابة تقارير عن هذه الحركة التي ولدت في الكلية البروتستانتية، وأخذت تعمل في بلاد الشام. وكان العمل بارزاً في بلاد الشام وإن كان موجوداً في جهة أخرى من البلاد العربية، يدل على ذلك أن المعتمد البريطاني في جدة كتب إلى حكومته سنة ١٨٨٢م كتاباً عن الحركة العربية جاء فيه (إلا أنه قد وصل إلى علمي أن بعض الأذهان حتى في مكة نفسها، أخذت تتحرك بفكرة الحرية، ويلوح لي بعد الذي سمعته من تلميح، أن هنالك خطة مرسومة، ترمي إلى توحيد نجد مع بلاد ما بين النهرين أي جنوب العراق وتنصيب منصور باشا عليها، وتوحيد عسير مع اليمن وتنصيب علي بن عابد عليها) ولم يقتصر الاهتمام بها على إنكلترا، بل إن فرنسا كذلك كانت مهتمة إلى حد بعيد، ففي سنة ١٨٨٢م كتب أحد الفرنسيين الذين كانوا في بيروت ما يدل على مبلغ اهتمام فرنسا، فقد قال: (إن روح الاستقلال منتشرة انتشاراً كبيراً. وقد رأيت شباب المسلمين خلال إقامتي في بيروت منهمكين بتشكيل الجمعيات العاملة على تأسيس

المدارس والمستشفيات، والنهوض بالبلاد، ومما يلفت النظر في هذه الحركة أنها محررة من أي أثر للطائفية، فإن هذه الجمعية تستهدف قبول النصارى بين أعضائها، والاعتماد على معاونتهم في العمل القومي) وكتب أحد الفرنسيين من بغداد (لقد كان يواجهني في كل مكان، وبنفس النسبة، ذلك الشعور العام المستقر "كراهية الترك" وأما فكرة القيام بعمل مشترك مرتب لطرح هذا النير البغيض فهي في دور التكوين. ويلوح في الأفق البعيد طيف حركة عربية ولدت حديثاً، وسيقوم هذا الشعب الذي كان مغلوباً على أمره حتى الآن بالمطالبة عما قريب بمركزه الطبيعي في عالم الإسلام، وفي توجيه مصير هذا العالم). ولم يقتصر أمر الاهتمام بالغزو التبشيري باسم الدين والعلم على أميركا وفرنسا وبريطانيا، بل شمل أكثر الدول غير الإسلامية، ومنها روسيا القيصرية، فقد أرسلت بعثات تبشيرية، كما أمت بلاد الشام بعثة بروسية (ألمانية) مؤلفة من راهبات (كابزر ودت) ساهمت مع باقي البعثات. وبالرغم من تباين وجهات النظر السياسية بين البعثات التبشيرية وبين الموفدين الغربيين بالنسبة لمنهجها السياسي باعتبار مصالحهم الدولية، فقد كانت متفقة في الغاية، وهي التبشير بالدين المسيحي، وبعث الثقافة الغربية في الشرق، وتشكيك المسلمين في دينهم، وحملهم على الامتعاض منه، وعلى احتقار تاريخهم، وتمجيد الغرب وحضارته. كل ذلك مع بغض شديد للإسلام والمسلمين، واحتقار لهم، واعتبارهم برابرة متأخرين، كما هو رأي كل أوروبي وقد وصلوا إلى نتائج كانت هي السبب لما نراه من تركيز الكفر والاستعمار.

العـداء الصليبي

يقول أحد العلماء الفرنسيين وهو الكونت هنري دكاسترى في كتابه (الإسلام) سنة ١٨٩٦م ما نصه: (لست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى، وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوال من المسيحيين، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد، كان السبب في الحروب الصليبية. وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان. ولا يزال بعضها راسخاً إلى هذه الأيام. فكل منشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين). وهكذا كان يوصف المسلمون كما يوصف دينهم من قبل رجال الدين النصراني في أوروبا بأوصاف فظيعة في القرون الوسطى. وكانت هذه الأوصاف مما استعمل لإثارة الحقد والبغضاء ضد المسلمين، مما أثار العالم النصراني فكانت الحروب الصليبية. وبعد انتهائها بعدة قرون قام المسلمون في القرن الخامس عشر فغزوا الغرب، حيث فتحت الدولة الإسلامية القسطنطينية، ثم فتحت في القرن السادس عشر جنوب وشرق أوروبا وحملت الإسلام إليها، فدخل في دين الله الملايين من البانية، ويوغسلافيا وبلغاريا وغيرها، فتجدد العداء الصليبي ووجدت المسألة الشرقية، وكانت تعني العمل من جانب أوروبا لرد الجيوش الإسلامية ووقف الفتح الإسلامي

ودرء خطر المسلمين. فكان هذا العداء المتأصل في نفوس الأوروبيين للإسلام والمسلمين هو الذي حمل جميع النصارى في أوروبا أن يبعثوا الحركات التبشيرية في بلاد الإسلام، باسم المدارس والمستشفيات والجمعيات والنوادي، وأن يبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، والجهود الضخمة، وأن يتفقوا على هذه الخطة رغم اختلاف مصالحهم وتباين سياستهم، وأن يجمع على ذلك جميعهم دولاً وشعوباً، وأن يجعلوه من أعمال قناصلهم وسفاراتهم، كما هو من أعمال الموفدين والمبشرين.

وهذا العداء الصليبي الكامن في النفوس الغربية كلها، ولا سيما أوروبا، وعلى الأخص بريطانيا، هذا العداء المتأصل والحقد اللئيم هو الذي أوجد هذه الخطط الجهنمية للقضاء على الإسلام والمسلمين، وهو الذي سبب إذلالنا في ديارنا هذا الإذلال. وإذا كان اللورد اللنبي قد قال حين فتح القدس وهو يدخلها سنة ١٩١٧م (اليوم فقط انتهت الحروب الصليبية) فإنما ذلك تعبير صادق عن مكنون نفسه، وشدة بغضه، وتأصل الحقد في نفسه، وهو تعبير عن نفس كل أوروبي يخوض غمار الحرب ـ ثقافية أو عسكرية ـ ضد المسلمين ـ، وصدق الله حيث يقول: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾. وما بدا من فم اللورد اللنبي إن هو إلاّ بُغْضٌ، وما كانت تخفي دولته بريطانيا هو أكبر من ذلك ولا ريب. وكذلك ما في نفس كل أوروبي على الإطلاق. وقد امتد هذا البغض منذ أيام الصليبيين ولا يزال يمتد حتى اليوم. وما نلاقيه من اضطهاد وإذلال واستعمار واستغلال هو ـ إلى جانب الناحية السياسية التي فيه ـ أمر انتقامي منا نحن المسلمين بوجه خاص.

يقول الأستاذ ليوبولد فايس في كتابه (الإسلام على مفترق): (إن النهضة أو إحياء العلوم والفنون الأوروبية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص كانت تعزى في الأكثر إلى الاتصال المادي بين الشرق والغرب، لقد استفادت أوروبا أكثر مما استفاد العالم الإسلامي، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل، وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام، بل كان الأمر على العكس، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن، ثم استحالت عادة، ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة (مسلم)، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوروبي رجلاً كان أو امرأة، وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافي، ثم جاء عهد الإصلاح الديني حينما انقسمت أوروبا شيعاً، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها. وبعدئذٍ جاء زمن أخذ الشعور الديني فيه يخبو، ولكن العداء للإسلام استمر وان من أبرز الحقائق على ذلك أن الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر، كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام، وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من العطف. أما فيما يتعلق بالإسلام، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً في التفكير الأوروبي). وعلى هذه الأسس قامت الجمعيات التبشيرية التي أشرنا إليها، ولذلك كانت تهدف إلى التبشير بالديانة النصرانية، وإلى

تشكيك المسلمين في دينهم، وتحقيره في نفوسهم وتحميله تبعة ضعفهم، وتهدف إلى النواحي السياسية، ولذلك كانت نتائجها فظيعة في الناحيتين السياسية والتشكيكية، حتى وصلت إلى نتائج أكثر مما كانوا يتوقعون. فقد كانت الحركات التبشيرية تبنى على أساس محو الإسلام بالطعن فيه، وإثارة المشاكل والشبهات حوله وحول أحكامه لصد الناس عن سبيل الله ولإبعاد المسلمين عن دينهم، وكان من وراء هذه الحركات التبشيرية حركات الاستشراق والمستشرقين ترمي إلى ذات الغرض وعن نفس القوس.

وتوحدت الجهود كلها في أوروبا في حرب صليبية شنتها أولاً من ناحية ثقافية بتسميم العقل كله بما شوهوه من أحكام الإسلام ومثله الأعلى، وبالتسميم الأجنبي لعقول أبناء المسلمين بما يقولونه عن الإسلام وتاريخ المسلمين باسم البحث العلمي والنـزاهة العلمية، وما هو إلا السم الثقافي الذي هو أخطر من الحروب الصليبية. وكما كان دعاة التبشير يقومون بهذا التسميم باسم العلم والإنسانية، كان المستشرقون يقومون به باسم الاستشراق. يقول الأستاذ ليوبولد فايس: (والواقع إن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من (الوثنيين) ــ يعني المسلمين ــ غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر، مع أن علوم الاستشراق تحررت من نفوذ التبشير ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية) هذا العداء

الموروث لا يزال هو الذي يؤرث نار الحقد في نفوس الغربيين على المسلمين، ويصور الإسلام حتى في بلاد المسلمين للمسلمين وغيرهم بأنه (بعبع الإنسانية) أو المارد الهائل الذي سيقضي على تقدم الإنسانية، يسترون بذلك خوفهم الحقيقي منه، لأنه إذا تركز في النفوس، تزول سيطرة الكافر المستعمر عن العالم الإسلامي وتعود الدولة الإسلامية تحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم ــ وإنها لعائدة إن شاء الله ــ وهي في صالح الإنسانية، وفي صالح الغرب نفسه. وسيذهب عمل المبشرين وغيرهم حسرة في نفوسهم. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةً ثُمَّ يُغۡلَبُونَ ﴾. ولا يزال ذلك العداء الموروث هو الذي يؤيد كل حركة ضد الإسلام والمسلمين. وانك لتجد الغربي يبحث المجوسية والهندوكية والشيوعية فلا تجد في بحثه أي تعصب أو بغضاء، في حين انك تجده حين يبحث الإسلام تظهر عليه علامات البغض والحقد والمقت والكراهية، ومع أن المسلمين قد هزموا شر هزيمة، وانتصر عليهم الكافر المستعمر، لكن رجال الكنيسة الغربيين ــ ومن ورائهم الاستعمار ــ لا يزالون يبدون مختلف النشاط ضد الإسلام. ولا يفترون عن الطعن في الإسلام والمسلمين، والنيل من محمد عليه الصلاة والسلام ومن أصحابه، وإلصاق المثالب بتاريخ الإسلام والمسلمين، كل ذلك للانتقام منهم وتمكين أقدام الاستعمار والمستعمرين.

آثـار الغـزو التبشـيري

كانت هذه الغزوات التبشيرية هي الطلائع التي مهدت الطريق للاستعمار الأوروبي ليفتح العالم الإسلامي فتحاً سياسياً بعد أن فتحه فتحاً ثقافياً. وبعد أن كان المسلمون حملة القيادة الفكرية الإسلامية للغرب حين فتحوا استانبول والبلقان وادخلوا الإسلام في أوروبا، صارت البلاد الإسلامية هدفاً للغرب، يحمل قيادته الفكرية إليها، ومسرحاً لحضارته ومفاهيمه عن الحياة، يذيعها بشتى الوسائل تحت اسم العلم والإنسانية والتبشير الديني. ولم يكتف بحمل حضارته ومفاهيمه، ولكنه كان يطعن بالحضارة الإسلامية ومفاهيم الإسلام عن الحياة حين كان يوجه حملاته ضد الإسلام، فأثر ذلك في الفئة المثقفة، وفي رجال السياسة، بل في حملة الثقافة الإسلامية، وفي جمهرة المسلمين.

أما الفئة المثقفة، فإن الاستعمار في مدارسه التبشيرية قبل الاحتلال، وفي المدارس كلها بعد الاحتلال قد وضع بنفسه مناهج التعليم والثقافة على أساس فلسفته هو، وحضارته هو، ومفاهيمه الخاصة عن الحياة. ثم جعل الشخصية الغربية الأساس الذي تنتزع منه الثقافة التي يثقفنا بها، كما جعل تاريخه ونهضته وبيئته المصدر الأصلي لما نحشو به عقولنا. ولم يكتف بذلك، بل تدخل في تفصيلات المناهج حتى لا تخرج جزئية من جزئياتها عن المبدأ العام الذي هو فلسفته وحضارته. وكان ذلك عاماً حتى في دروس الدين الإسلامي والتاريخ الإسلامي، فإن مناهجهما بنيت على الأساس الغربي،

وعلى حسب مفاهيم الغرب، فالدين الإسلامي يعلم في المدارس الإسلامية مادة روحية خُلُقية، كما هو مفهوم الغرب عن الدين، وهو يعلم على وجه بعيد جداً عن الحياة وعن حقيقة مفاهيمه عنها، فحياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن النبوة والرسالة وتدرس كما تدرس حياة نابليون أو بسمارك مثلاً، ولا تثير في نفوسهم أي مشاعر أو أفكار. ومادة العبادات والأخلاق، وهي التي يشتمل عليها منهاج الدين، تعطى من وجهة النظر النفعية، وبذلك صار تعليم الدين الإسلامي أيضاً سائراً وفق المفاهيم الغربية. والتاريخ الإسلامي تعلم فيه المثالب التي يخترعها سوء القصد وسوء الفهم، ويوضع في إطار أسود تحت اسم النزاهة التاريخية والبحث العلمي. ويزيد الطين بلة، أنه نبت من المسلمين المثقفين نابتة تعلم التاريخ وتؤلف فيه على الأسلوب والمنهج التبشيري. وهكذا جميع البرامج قد وضعت كلها على أساس الفلسفة الغربية، ووفق مناهج الغرب، وبذلك صار أكثر المثقفين أبناء الثقافة الغربية وتلاميذها. وصاروا يستمرئون هذه الثقافة ويتعشقونها، ويتجهون في الحياة طبق مفاهيمها، حتى صار الكثيرون منهم يستنكرون الثقافة الإسلامية إذا تناقضت مع الثقافة الغربية، وصاروا مثقفين ثقافة غربية تتحكم فيهم وجهة نظر الغرب وقد اخلصوا لهذه الثقافة الغربية إخلاصاً تاماً حملهم على تقديس الأجنبي وحمل حضارته، وانطبع كثيرون منهم بطابعه، وصاروا يمقتون الإسلام والثقافة الإسلامية، كما يمقته الغربي، ويحملون للإسلام وللثقافة الإسلامية العداء اللئيم كما يحمله الغربي، وصاروا يعتقدون أن الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحي إليهم أن يعتقدوا ذلك. وبهذا نجحت الحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير حين ضَمّتْ إليها الفئة المثقفة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية.

وقد تجاوز الحال أمر المثقفين في أوروبا والمدارس الأجنبية إلى أولئك الذين يحملون الثقافة الإسلامية. فقد هالهم أن يهاجمهم الاستعمار الغربي بالطعن على دينهم، فصاروا يردون هذا الطعن مستعملين كل ما تصل إليه أيديهم سواء أكان هذا الرد صحيحاً أم فاسداً، وسواء أكان ما يطعن به الأجنبي إسلامهم من مفاخره أم مكذوباً عليه، وكانوا في ردهم قد سلموا بجعل الإسلام متهماً ثم أولوا نصوصه بما يتفق مع مفاهيم الغرب، وهكذا صاروا يردون الهجمات رداً مضطرباً كان مساعداً للغزو التبشيري، أكثر مما كان رادأ له. والأنكى من ذلك أن الحضارة الغربية المناقضة للحضارة الإسلامية، صارت من مفاهيمهم التي يتقبلونها وينسبونها زوراً وبهتاناً للإسلام، وغلب على الكثيرين منهم أن يقولوا إن الغرب أخذ حضارته عن الإسلام والمسلمين، وصاروا يؤولون أحكام الإسلام وفق هذه الحضارة مع التناقض المطلق الذي بين الإسلام وبين الحضارة الغربية، وبذلك قبلوا الحضارة الغربية قبولاً تاماً ورضوا بها حين أظهروا أن عقيدتهم وحضارتهم تتفق مع الحضارة الغربية، ومعنى ذلك أنهم قبلوا الحضارة الغربية، وتخلوا عن حضارتهم الإسلامية، وهو ما يهدف إليه الاستعمار أو ما كان يهدف إليه الغرب حين ركز حملات التبشير وحملات الاستعمار. وبوجود المثقفين ثقافة أجنبية، وسوء فهم المثقفين ثقافة إسلامية، وجدت عند المسلمين المفاهيم الغربية عن الحياة، كما تحكمت في ديارهم الحضارة الغربية المادية، وصارت الحياة في المجتمع تخضع للحضارة الغربية، والمفاهيم الغربية. فعامة المسلمين لا يدركون أن النظام الديمقراطي في الحكم، والنظام الرأسمالي في الاقتصاد هما من أنظمة الكفر، وصاروا لا يتأثرون إذا فصل بينهم القضاء على غير ما أنزل الله وهم لا يجهلون أن الله قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. كل ذلك لأن الحضارة الغربية المبنية على أساس فصل الدين عن الدولة هي التي تسيطر على مجتمعاتهم. ولأن المفاهيم الغربية المادية هي السائدة في أجوائهم. وصاروا يستشعرون القيام بواجبات الدين إذا هم اعتقدوا بالله، وحافظوا على الصلوات فقط ولو أداروا أمور دنياهم وفق ما يرون وما يشتهون، لأنهم يتأثرون بالمفاهيم الغربية التي تقول: (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله). ولم يتأثروا بالمفاهيم الإسلامية التي تجعل قيصر وما لقيصر كله لله، وتجعل الصلاة والبيع والإجارة والحوالة والحكم والتعلم كلها تسير وفق أوامر الله ونواهيه. نعم لم يتأثروا بهذه المفاهيم ولو قرأوا قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾. نعم لا يتأثرون بهذه المفاهيم في آيات القرآن ولو قرأوها، لأنهم لا يقرأونها آيات من القرآن كما يجب أن يقرأها المسلم حية نابضة ليعمل بها في معترك الحياة، وإنما يقرأونها في حال تسيطر عليهم فيها مفاهيم الغرب، فيتأثرون بروحانية هذه الآيات، ويضعون حاجزاً بين أذهانهم وبين مفاهيمها ومدلولاتها، كل ذلك لأن الحضارة الغربية تتحكم فيهم، ولأن مفاهيم الغرب تسيطر عليهم، هذا بالنسبة لجمهور الشعب وللمثقفين ثقافة إسلامية وأجنبية.

أما بالنسبة لرجال السياسة فإن البلاء أعم، والمصيبة أكبر، إذ إنّ هؤلاء الساسة منذ أن جمعهم الاستعمار، وأغراهم بالقيام ضد الدولة العثمانية ومناهم ووعدهم ــ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ــ فإنهم منذ ذلك الحين يسيرون في ركاب هذا الأجنبي، وحسب ما يرسم لهم من خطط، ففي أيام الدولة العثمانية انحازوا إلى الأجنبي، وظاهروه على دولتهم، وهو أمر لا يجيزه الإسلام، ولكنهم فعلوه واتخذوا من عملهم هذا مفخرة يذكرونها في كل مناسبة وعيداً لهم يحتفلون به في كل عام. وانهم في ذلك الوقت بدل أن يحاربوا الفئة الحاكمة لإصلاح الدولة، ساروا مع عدوها الكافر ضد الدولة كلها، حتى كانت النتائج المريرة في استيلاء الكافر المستعمر على بلادهم. ثم صاروا بدل أن يستعينوا بالشعب على هذا الكافر المستعمر، استعانوا به على الشعب. وقد تأثروا به إلى حد أفقدهم شخصيتهم الإسلامية، وسممت أفكارهم بآراء سياسية وفلسفية مما أفسد عليهم وجهة نظرهم في الحياة وفي الجهاد، وترتب على ذلك إفساد الجو الإسلامي برمته، وبلبلة الأفكار بلبلة ظاهرة في مختلف نواحي الحياة.

فقد جعلوا بدل الجهاد المفاوضة، وآمنوا بقاعدة خذ وطالب ــ التي تعتبر أنفع للاستعمار من جيوش جرارة في البلاد ــ وجعلوا قبلة أنظارهم الاستعانة بالكافر المستعمر، والاتكال عليه، دون أن يعوا أن كل استعانة بالكافر المستعمر تعتبر إثماً كبيراً، وانتحاراً سياسياً، ورضوا أن يعملوا للإقليمية الضيقة، ويجعلوها مجال عملهم السياسي، ولم يتبين لهم أن هذه الإقليمية هي التي تجعل العمل السياسي مستحيل الإنتاج، لعدم إمكان الإقليمية ــ مهما اتسعت بلاد الإقليم ــ أن تنهض بالأعباء

السياسية وغير السياسية التي تتطلبها الحياة الصحيحة.

ولم يكتفوا بذلك كله، بل جعلوا مركز تنبههم الفردي مصالحهم الفردية، ومركز تنبههم العام هو الدول الأجنبية، وبذلك فقدوا مركز التنبه الطبيعي ــ وهو مبدؤهم ــ وبفقدانهم مركز التنبه الطبيعي، فقدوا إمكانية نجاح مسعاهم، مهما أخلصوا فيه وبذلوا من مجهود. ولذلك صارت جميع الحركات السياسية حركات عقيمة، وصارت كل يقظة في الأمة تتحول إلى حركة مضطربة متناقضة تشبه حركة المذبوح تنتهي بالخمود واليأس والاستسلام. وذلك لأن قادة الحركات السياسية فقدوا مركز تنبههم الطبيعي، فصار طبيعياً أن تفقد الأمة هذا المركز التنبهي لها. وهكذا سممت أفكار السياسيين بالآراء المغلوطة، كما سممت بالمبادئ الأجنبية، إذ قامت في البلاد الإسلامية حركات باسم القومية والاشتراكية، وباسم الوطنية والشيوعية، وباسم الدين الروحي والأخلاق، وباسم التعليم والإرشاد، وكانت هذه الحركات ضغثاً على إبالة، وعقدة جديدة في المجتمع تضاف إلى العقد الأخرى التي يرزح تحت عبئها. وكانت نتيجتها الإخفاق والدوران حول نفسها، لأنها سارت وفق مفاهيم الحضارة الغربية، متأثرة بالغزو التبشيري، ووجهت الأمة إلى المفاهيم الغربية عن الحياة برمتها، فضلاً عن أنها نفست عواطف الأمة المتأججة فيما لا ينفع ولا يأتي بخير. ومكنت للاستعمار من التركز والبقاء. وهكذا كان نجاح الغزو التبشيري نجاحاً منقطع النظير.

الغـزو السـياسي للعـالم الإسـلامي

يرجع السبب الحقيقي لغزو الأندلس إلى الانتقام الذي تأصّل في نفوس الغربيين من جراء الحروب الصليبية. وذلك أن الغرب بعد إخفاقه الذريع في الحروب الصليبية، وطرده من العالم الإسلامي شر طرد، ظلت في نفسه حرقة من هذه الهزيمة، وامتلأ قلبه حقداً وبغضاً وكراهية للمسلمين. وكان يتعذر عليه أن يعاود الكرة على الشرق، فقد كانت قوة الشرق على اختلاف أهله كافية لصده والقضاء على محاولاته، فرأى أن أمر هذا الانتقام ميسور في الأندلس لذلك وجه حملته إليها، وقضى عليها قضاء وحشياً استعمل فيه محاكم التفتيش والمقاصل وبيوت النيران، ما يزيد وحشية على فعل الوحوش، مما يعتبر عاراً على الغرب، وتمادى في انتقامه لما أظهره المسلمون من تخاذل عن نصرة الأندلس، وكانوا أقوياء وفي وضع حربي يمكنهم من نصرة تلك البلاد. ولكنهم تقاعسوا وتركوا تلك البلاد لقمة سائغة، وبذلك أطمعوا الغرب في أن يفكر في خطوة أخرى للانتقام. ولولا قوة المسلمين ــ ولا سيما الدولة العثمانية ــ لتتابعت غزوات الغربيين لبلاد الإسلام. ولكن قوة المسلمين وغزو العثمانيين لأوروبا وفتحهم لها، أرهب الغربيين، وحملهم على التريث في غزو المسلمين، حتى لا يهزموا في حرب صليبية ثانية. ولذلك وقف الغزو الغربي لبلاد الإسلام إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر، وحينئذٍ أخذ الركود يخيم على العالم الإسلامي برمته فقد تخلى عن حمل الدعوة الإسلامية فخفت حرارة الإسلام في النفوس، وكان

من جرائها أن زالت هيبتهم من نفوس أعدائهم وحينئذٍ نشطت الغزوات الثقافية والتبشيرية في العالم الإسلامي، وبدأت تصاحبها الغزوات السياسية لاقتطاع بلاد الإسلام جزءاً جزءاً، ولتمزيق العالم الإسلامي والقضاء عليه. وقد تم لهم ذلك بالفعل ونجحوا نجاحاً باهراً.

فإن روسيا في عهد كاترينا (١٧٦٢م ـ ١٧٩٦م) حاربت العثمانيين وتغلبت عليهم واقتطعت بعض أراضيهم، وأخذت منهم مدينة آزوف وشبه جزيرة القرم، واستولت على جميع الحوض الشمالي للبحر الأسود، وأنشأت مدينة سباستبول قاعدة لها في شبه جزيرة القرم، كما أنشأت ميناء أوديسا التجاري على البحر الأسود. وأصبحت روسيا عاملاً مهماً في سياسة الدولة العثمانية الخارجية، وصارت صاحبة السيادة في الإمارات الرومانية، واعتبرت نفسها حامية المسيحية في الدولة العثمانية. ثم اقتطعت من تركيا في سنة ١٨٨٤م التزكستان، ثم أكملت احتلالها للقفقاس جميعه.

ولم يقتصر الأمر على روسيا وحدها. بل شمل ذلك بقية الدول الغربية ففي أول تموز سنة ١٧٩٨م، هاجم نابليون مصر واستولى عليها. وفي شباط سنة ١٧٩٩م هاجم الجزء الجنوبي من بلاد الشام واستولى على غزة والرملة ويافا، ووقف على حصون عكا. إلا أن حملته هذه لم توفق، فرجع إلى مصر ثم رجع إلى فرنسا وفشلت الحملة سنة ١٨٠١م. ومع أن حملته هذه لم توفق فقد أثرت في كيان الدولة العثمانية وكانت هزة عنيفة لها، وتتابعت سائر الدول تهاجم العالم الإسلامي، وتستولي على أجزائه. فقد احتل الفرنسيون سنة ١٨٣٠م الجزائر وتطلعوا إلى احتلال تونس وعملوا لذلك حتى احتلوها سنة ١٨٨١م ثم احتلوا مراكش سنة ١٩١٢م،

كما احتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١م فتم بذلك اقتطاع شمال إفريقيا، وسلخه عن حكم الإسلام وجعله خاضعاً لحكم الكفر، مستعمراً له.

ولم يكتف الغربيون بذلك بل أكملوا الاستيلاء على البقية الباقية، فقد استولت بريطانيا على عدن سنة ١٨٣٩م، وبسطت حمايتها على لحج والمحميات التسع من حدود اليمن الجنوبية إلى شرق الجزيرة. وكان الإنكليز قد استولوا على الهند قبل ذلك التاريخ بمدة طويلة، وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين وأناخوا بكلكلهم عليهم بنوع خاص، إذ كان المسلمون هم أصحاب السلطان في الهند، فانتزعها الإنكليز منهم واستعمروها وأخذوا يعملون على إضعاف موقف المسلمين فيها بوجه عام. ثم في سنة ١٨٨٢م استولت بريطانيا على مصر. وفي سنة ١٨٩٨م، استولت على السودان. كما كانت هولندا تسيطر على جزر الهند الشرقية، وحصرت أفغانستان تحت الضغط الإنكليزي والروسي كما حصرت إيران، واشتدت حملة الغربيين في كل مكان على العالم الإسلامي، حتى شعر جميعه بتعرضه للسقوط نهائياً تحت نير الغرب، وشعر أن الحملة الصليبية تجددت تحرز الانتصار تلو الانتصار، وصار يتشبث بأعمال لوقف هذا الزحف الغربي عند حده، أو للتخفيف من ثقل كابوسه. فحدثت حركات مقاومة للغربيين في أكثر من مكان، فشبت ثورة في الجزائر، وهب المسلمون في الهند، وقام المهديون في السودان، واشتعلت الثورة السنوسية، فكان كل ذلك دليلاً على الحيوية الكامنة في العالم الإسلامي رغم ركوده وضعفه، إلا أن هذه المحاولات كلها أخفقت نهائياً، ولم تنقذ العالم الإسلامي، ولم يقف الغرب عند حده في الغزو بل استمر الغزو بقسميه السياسي والثقافي، ولم يقتصر

على اقتطاع أجزاء العالم الإسلامي، بل أخذ يعمل للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الإسلامية التي تمثل المسلمين فقد أقام في داخلها الحركات القومية، إذ أخذت الدول الأجنبية تحرض شعوب البلقان على الثورة منذ سنة ١٨٠٤م، وتمدهم لهذه الثورات، حتى انتهت ثوراتهم بالاستقلال سنة ١٨٧٨م كما حرضت هذه الدول اليونان على الثورة منذ سنة ١٨٢١م، حتى انتهت ثورتهم بسبب تدخل الأجنبي باستقلال اليونان عن تركيا سنة ١٨٣٠م، وتتابعت سائر بلاد البلقان حتى تقلص ظل الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية عن البلقان وعن كريت وقبرص وأكثر جزر البحر الأبيض المتوسط، واستعمل الغربيون أنواع الوحشية مع المسلمين في البلقان وجزر البحر المتوسط، فأجلوا الكثيرين منهم عن ديارهم إجلاءً، مما حمل الكثيرين أيضاً منهم على الرحيل فراراً بدينهم من وحشية الكفر ولجأوا إلى بلاد العرب بوصفها بلاداً إسلامية، وجزءاً من الدولة الإسلامية، وما هؤلاء الجركس والبوشناق والشاشان وأمثالهم إلا أبناء أولئك الأبطال من المسلمين الذين لم يرضوا أن يخضعوا لحكم الكفر، وفروا بدينهم إلى ديار الإسلام وإلى حكم الإسلام.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قام الغربيون ــ بوسائلهم الخفية ــ بتشجيع الحركات الانفصالية عند المسلمين أنفسهم في داخل كيان الدولة بين الترك والعرب. فشجعوا الحركات القومية، وشجعوا بل ساعدوا على قيام الأحزاب السياسية التركية والعربية، كحزب تركيا الفتاة، وحزب الاتحاد والترقي، وكحزب الاستقلال العربي، وحزب العهد...الخ مما جعل كيان الدولة داخلياً في اضطراب واهتزاز، فأخذ يميد تحت هذه

الأحداث الداخلية مع الغزوات الخارجية، وما أن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى وجد الكفر الممثل بالغرب حينئذٍ الفرصة مواتية ليوجه الحملة على العالم الإسلامي، فيستولي على الباقي من بلاده، ويقضي على الدولة الإسلامية، ويبيدها من الوجود. فدخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بانتصار الحلفاء وهزيمتها، فتقاسم الغربيون جميع العالم الإسلامي غنيمة لهم، ولم تبق منها إلا بلاد الترك التي صار يطلق عليها اسم (تركيا)، وبقيت بعد الحرب تحت رحمتهم منذ انتهاء الحرب سنة ١٩١٨م حتى سنة ١٩٢١م حيث استطاعت الاستقلال بعد تأمينها للحلفاء القضاء على دولة الإسلام.

القضـاء على الـدولة الإسـلامية

انتهت الحرب العالمية الأولى وأعلنت الهدنة بين المتحاربين بعد أن انتصـر الحـلفاء انتصـاراً باهراً، وتحطمت الدولة العثمانية وتفككت إلى أجزاء صغيرة واستولى الحلفاء على بلاد العرب جميعها: مصر وسوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق وسلخوها عن الدولة، ولم يبق في يد العثمانيين سوى بلاد الأتراك (تركيا) وهذه نفسها قد دخلها الحلفاء، فقد استولت البوارج الإنكليزية على البسفور، واحتلت الجيوش الإنكليزية قسماً من العاصمة وكل قلاع الدردنيل والمواضع الحربية المهمة في جميع أنحاء تركيا، واحتلت الجيوش الفرنسية قسماً من استانبول وملأ جنودها السنغاليون الشوارع. واحتلت الجيوش الإيطالية بيرا وخطوط السكك الحديدية، وأشرف ضباط الحلفاء على شؤون البوليس والحرس الوطني وعلى الميناء، وجردوا القلاع من أسلحتها، وأخذوا يسرحون قسماً من الجيش التركي، وانحلت جمعية الاتحاد والترقي، وفر جمال باشا وأنور باشا إلى خارج البلاد، واختفى باقي أعضاء الجمعية وتألفت حكومة هزيلة برئاسة توفيق باشا لتقوم بتنفيذ أوامر الأعداء المحتلين. وكان الخليفة حينئذٍ وحيد الدين. وكان يرى أنه أمام الأمر الواقع، وأنه يجب أن ينقذ الموقف بالأسلوب الحكيم، فحل البرلمان وأسند رياسة الوزارة إلى أخلص أصدقائه فريد، فأيده في نظرته التي كانت ترمي إلى مجاملة الحلفاء وعدم المقاومة، لئلاّ تسبب دمار البلاد. لا سيما وأن الحرب قد انتهت. ونفذ خطته هذه.

وظلت الحال كذلك، إذ ظل الحلفاء مسيطرين وظلت تركيا في حالة خمود حتى أواسط سنة ١٩١٩م، فتبدلت الأحوال وطرأ على موقف الحلفاء الضعف فقد حصلت في كل من إيطاليا وفرنسا وإنكلترا متاعب داخلية بين الشعب كانت جدية إلى حد أنها تنذر بتصدع صفوفهم الداخلية. ودب الخلاف بين الحلفاء أنفسهم، وظهر بشكل سافر في استانبول بين الممثلين، إذ كان الشجار بينهم ظاهراً وتنافسوا على الغنيمة، وطمع كل منهم في أن ينال حصة الأسد من المراكز العسكرية والامتيازات الاقتصادية، وصار في إمكان تركيا أن تجرب آخر سهم لإنقاذ موقفها، بعد أن وصل ضعف الحلفاء واختلافهم إلى حد أن صارت كل دولة منهم تثير الأتراك ضد الدول الأخرى وتساعدهم على غيرها. وكان مؤتمر الصلح لم يعقد بعد، وشروط الصلح لم توضع. ولذلك بدت تلوح في الأفق بوادر الأمل، وصار عند الناس اعتقاد بإمكان تنظيم حركة مقاومات جدية، وكان الإنجليز قد استصنعوا مصطفى كمال للسير وفق سياستهم، وتنفيذ خططهم، وتحقيق حلمهم بالقضاء على دولة الخلافة. فتألفت في استانبول أكثر من عشر جمعيات سرية، هدفها سرقة الأسلحة والمستودعات الخاضعة لإشراف العدو، وإرسالها إلى منظمات سرية في داخل البلاد. وكان بعض الرجال الرسميين يساعدون في ذلك، فقد كان عصمت وكيلاً لوزارة الحرب وفوزي رئيس أركان الحرب، وفتحي وزيراً للداخلية، ورؤوف وزيراً للبحرية، وكانوا جميعهم يساعدون في هذه الحركات. ولذلك قامت جمعيات متعددة مهمتها المقاومة السرية للعدو، ونشطت جمعية الاتحاد والترقي وانضم بعض الجيوش النظامية لهذه الحركات، ثم تجمعت في حركة واحدة قادها مصطفى كمال وقام بحركة لمقاومة الحلفاء وطردهم من البلاد،

ولمقاومة جيش الخليفة إذا تصدى لهم. ونجح مصطفى كمال في ذلك إلى حد كبير. ثم رأى أن الحكومة المركزية والسلطان في استانبول واقعان تحت سيطرة الحلفاء، وأنه يجب أن تقوم حكومة وطنية في الأناضول.

على هذا الوجه بدأ مصطفى كمال في ثورته التي ألبسها اللباس الوطني والتي انتهت بإزالة الخلافة، وفصل تركيا عن باقي أجزاء الدولة العثمانية. ومن الوقائع التي جرت في سير مصطفى كمال في ثورته يبرز بشكل لا يحتمل اللبس أن الإنجليز هم الذين هيأوا كل شيء للقيام بهذه الثورة، وهم الذين أرسلوا مصطفى كمال ليقوم بها.

فقام بعقد مؤتمر وطني في سيواس، نوقشت فيه الوسائل والأساليب الكفيلة بالاحتفاظ باستقلال تركيا، وقد اتخذ المؤتمر قرارات، وانتخب لجنة تنفيذية، واختار مصطفى كمال رئيساً لهذه اللجنة، وأرسل هذا المؤتمر إنذاراً إلى السلطان يطلب فيه عزل رئيس الوزراء فريد، وإجراء انتخابات لبرلمان جديد حر. فاضطر السلطان تحت هذا الضغط أن يخضع لطلبات المؤتمر فعزل رئيس الوزراء، وولى مكانه علي رضا، وأمر بإجراء انتخابات جديدة خاض غمارها رجال المؤتمر ككتلة تريد إنقاذ البلاد، وفازوا بالأكثرية الساحقة في البرلمان الجديد.

وعلى أثر هذا الفوز انتقل المؤتمر ورجاله إلى انقره، وصارت منذ ذلك الوقت مركز العمل. وقد عقد نواب المؤتمر اجتماعاً في أنقرة عرضوا فيه اقتراحاً بأن يجتمع البرلمان في استانبول، وأن يحل المؤتمر بعد أن صار أعضاؤه نواباً رسميين. لكن مصطفى كمال قاوم هاتين الفكرتين وقال: (إن المؤتمر ينبغي أن يستمر حتى يظهر مدى التزام البرلمان للعدالة وتستبين

سياسته، أما الانتقال إلى العاصمة فليس سوى حماقة جنونية، إنكم لو فعلتم ذلك لأصبحتم تحت رحمة العدو الأجنبي، فالإنجليز ما زالوا هم المسيطرين على البلاد، وسوف تتدخل السلطات في أموركم، وربما اعتقلتكم. وإذن ينبغي أن يعقد البرلمان هنا في أنقرة كي يظل حراً مستقلاً) وأصر مصطفى كمال إصراراً كلياً على رأيه ولكنه لم يفلح بـإقناع النواب بأن يعقد البرلمان جلساته في أنقرة. وذهب النواب إلى العاصمة، وأعربوا للخليفة عن ولائهم له. ثم عكفوا على عملهم. وكان ذلك في كانون الثاني سنة ١٩٢٠م.

وقد حاول السلطان أن يملي إرادته على النواب، فرفضوا وأظهروا تمسكهم بحقوق البلاد، ولما اشتد الضغط عليهم نشروا للرأي العام ميثاقهم الوطني الذي قرروه في مؤتمر سيواس، وهو الميثاق المشتمل على الشروط التي يقبلون السلام على أساسها. وأهمها أن تكون تركيا حرة مستقلة داخل نطاق حدود مقررة. فسرّ ذلك الحلفاءَ ولا سيما الإنكليز، لأن هذا القرار هو الذي يسعون إليه، ويسعون إلى أن يأتي من أهل البلاد أنفسهم. ويلاحظ أن جميع البلاد التي كانت الدولة العثمانية تحكمها بوصفها دولة إسلامية، قد وضعت لها عقب الحرب العالمية الأولى ميثاقاً وطنياً يتضمن نصاً واحداً، هو استقلال الجزء الذي أراده الحلفاء أن يكون بلداً منفصلاً. فالعراق وضعت ميثاقاً وطنياً يتضمن استقلال العراق، وسوريا وضعت ميثاقاً يتضمن استقلال سوريا، وفلسطين كان ميثاقها الوطني يتضمن استقلال فلسطين، ومصر كان ميثاقها الوطني يتضمن استقلال مصر، وهكذا.. ولهذا كان من الطبيعي أن يسر الحلفاء، ولا سيما الإنكليز، بالميثاق الوطني التركي، لأنه جاء وفق ما يريدون، لأن خطتهم هي تقطيع

أوصال الدولة العثمانية وتقسيمها إلى دول حتى لا تعود دولة واحدة قوية، وحتى يقضى على دولة المسلمين. ولولا هذا الميثاق الذي نجح الحلفاء بـإقراره في كل مكان لكان للأمر وجه آخر، وذلك لأن الدولة العثمانية كانت دولة واحدة وتعتبر جميع ولاياتها جزءاً منها، وهي سائرة على نظام الوحدة لا الاتحاد، فلم يكن هنالك فرق بين الحجاز وتركيا، ولا بين سنجق القدس وسنجق الإسكندرونة إذ كلها دولة واحدة، وهزيمة تركيا كهزيمة ألمانيا سواء بسواء، إذ هما حليفتان في الحرب وما ينطبق على واحدة من شروط الصلح ينطبق على الأخرى، وإذا كانت ألمانيا لم يفرط أهلها بشبر من بلادها، ولم تقطع أوصالاً، فكذلك يجب أن يكون الحال في الدولة العثمانية لا يجوز أن تقطع أوصالاً. وكان الحلفاء يعرفون ذلك، ويحسبون له ألف حساب. أما وقد طلب العثمانيون أنفسهم أن تقطع دولتهم أجزاء طلبه العرب وطلبه الترك على السواء، فما أسرع ما يقبل ذلك الحلفاء ويشجعونه، ولا سيما من مركز الدولة (تركيا) لأنها كانت تمثل أكثرية الحكم في الدولة.

ولهذا اعتبر الحلفاء الميثاق الوطني التركي الانتصار النهائي لهم. وعلى أثر نشره تركوا للأتراك حرية المقاومة، وصاروا ينسحبون من كل مكان فسحبت القوات الإنكليزية والفرنسية من داخل البلاد واشتدت عزائم الأتراك وقامت في البلاد حركة مقاومة للعدو انقلبت إلى ثورة ضد السلطان، مما جعله يجهز جيشاً ويرسل لها حملة قوية قاومتها وقضت عليها. وصار الناس كلهم مع السلطان ما عدا أنقره التي كانت مركز الثورة وكانت أنقرة ذاتها على وشك السقوط، فقد كانت القرى المحيطة بها

تنضوي واحدة بعد الأخرى تحت لواء السلطان، وتنضم إلى جيش الخليفة. وصار مصطفى كمال ومن معه في أنقره في حالة حرجة جداً. إلا أن مصطفى كمال صمم على المقاومة، وأشعل في الوطنيين نار حماسة جديدة، فاشتدت عزائمهم، وشاعت في أقاليم تركيا وقراها أنباء عن احتلال الإنجليز للعاصمة، واعتقالهم الوطنيين، وإغلاقهم دار البرلمان بالقوة، ومؤازرة السلطان وحكومته له. فتغير الموقف. فانصرف الناس عن السلطان، وانحاز الرأي العام إلى الوطنيين في أنقره، وأقبل الرجال والنساء على أنقرة، يتطوعون للدفاع عن تركيا. وفر كثيرون من جيش الخليفة وانضموا إلى جيش مصطفى كمال، الذي أصبح محط أنظار الأتراك ومعقد آمالهم. وقد قويت جبهته وصارت أكثرية البلاد في قبضته، فأصدر منشوراً بالدعوة إلى انتخاب جمعية وطنية، يكون مقرها أنقرة. وحصل الانتخاب، فاجتمع النواب الجدد، وأطلقوا على أنفسهم "الجمعية الوطنية الكبرى" واعتبروا أنفسهم الحكومة الشرعية، ثم انتخبوا مصطفى كمال رئيساً للجمعية. وصارت أنقرة مركز الحكومة الوطنية. وانضم إليها جميع الأتراك. فقام مصطفى كمال وسحق ما تبقى من جيش الخليفة، وأنهى الحرب الأهلية، ثم تفرغ لمحاربة اليونان واشتبك معهم في معارك دامية كان النصر حليفهم في أول الأمر، ثم تحولت الأمور وصارت كفته هي الراجحة وما أن جاء شهر آب سنة ١٩٢١م حتى قام بهجوم خاطف، انتهى بانتصاره على اليونانيين الذين كانوا يحتلون أزمير وبعض شواطئ تركيا. وفي أوائل شهر أيلول سنة ١٩٢١م أرسل إلى عصمت ليقابل هارنجتون للاتفاق على التفصيلات. وهناك وافق الحلفاء على طرد اليونانيين من تريس وجلائهم هم أنفسهم عن القسطنطينية وتركيا بأسرها. والظاهر من تتبع خطوات

مصطفى كمال أن موافقة الحلفاء هذه كانت مقابل أن يقضي مصطفى كمال على الحكم الإسلامي، ولذلك تجده حين ناقشته الجمعية الوطنية في أمر تركيا بعد الانتصارات التي أحرزها، خاطبها بقوله: (أنا لست مؤمناً بعصبة من الدول الإسلامية، ولا حتى بعصبة من الشعوب العثمانية، ولكل منا أن يعتنق الرأي الذي يراه. أما الحكومة فينبغي أن تلتزم سياسة ثابتة مرسومة مبنية على الحقائق لها هدف واحد، واحد فقط، أن تحمي حياة الوطن واستقلاله داخل نطاق حدوده الطبيعية، فلا العاطفة ولا الأوهام ينبغي أن تؤثر في سياستنا، وسحقاً للأحلام، والخيالات، لقد كلفتنا غالياً في الماضي).

وهكذا أعلن أنه إنما يريد استقلال تركيا بوصفها شعباً تركياً لا أمة إسلامية. وقد طلب إليه بعض النواب ورجال السياسة أن يبين رأيه فيما ينبغي أن تكون عليه الحكومة في تركيا الجديدة، فليس من المعقول أن تكون لها حكومتان كما هو الوضع القائم حينئذٍ: حكومة مؤقتة ذات سلطان مقرها أنقرة، وحكومة رسمية (اسمية) في العاصمة يرأسها السلطان ووزراؤه. وقد ألح السياسيون بطلب بيان رأيه في هذا الوضع، فلم يجبهم وأخفى نواياه، وصار يثير الرأي العام على الخليفة وحيد الدين، بأنه مالأ الإنكليز واليونان حتى أثار هياج الشعب عليه. وفي وسط هذا الجو الحماسي له والمقت للسلطان، جمع الجمعية الوطنية ليبين خطته في أمر السلطان والحكومة. وكان يعلم أنه قد يستطيع إقناع النواب بخلع وحيد الدين، وبإلغاء السلطنة، لكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخلافة، فذلك من شأنه أن يمس المشاعر الإسلامية في الشعب جميعه. لذلك لم يلغ الخلافة ولم يتعرض لها،

وإنما اقترح أن يفصل بين السلطنة والخلافة، فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين. وما أن سمع النواب هذا الاقتراح حتى وجموا، وأدركوا خطر هذا الاقتراح الذي يطلب إليهم أن يقرروه. وأرادوا أن يتناقشوا في الأمر، فخشي مصطفى كمال من هذه المناقشة، وطلب أخذ الرأي على الاقتراح، وأيده في ذلك ثمانون نائباً من أنصاره الشخصيين، إلا أن المجلس رفض ذلك وأحال الاقتراح إلى لجنة الشؤون القانونية كي تبحثه. وحينما اجتمعت اللجنة في اليوم التالي حضر مصطفى كمال إلى القاعة التي اجتمعت فيها، وجلس يراقب أعمالها، فلبثت تناقش في الاقتراح بضع ساعات، وكان أعضاؤها من العلماء والمحامين وكانوا يعرضون هذا الاقتراح على النصوص الشرعية ويرونه مخالفاً للشرع، إذ لا يوجد في الإسلام سلطة دينية وأخرى زمنية، فالسلطنة والخلافة شيء واحد ولا يوجد هنالك شيء يسمى الدين، وشيء يسمى الدولة، بل هنالك نظام الإسلام، وتعتبر الدولة جزءاً من هذا النظام، وهي التي تقوم على تنفيذه. ولذلك لم تجد اللجنة القانونية ما يبرر هذا الفصل، بل لم تجد ما يبرر هذا البحث، لأن نصوص الإسلام صريحة فيه ولذلك صممت على رفض الاقتراح، لكن مصطفى كمال كان يريد فصل الدين عن الدولة بفصل السلطنة عن الخلافة، مقدمة لإلغاء الخلافة، تنفيذاً للدور الذي أعدته له بريطانيا ليقوم به للقضاء على دولة الخلافة، واستجابة لطلب الحلفاء منه حتى يقضوا على آخر الدولة الإسلامية على يد أهلها، ولهذا فإن مصطفى كمال حين رأى مناقشات اللجنة واتجاهها فقد سيطرته على أعصابه، وقفز فجأة واعتلى مقعداً وهو يتميز من الغيظ، وقطع مناقشات اللجنة صائحاً (أيها السادة لقد اغتصب السلطان العثماني السيادة من الشعب بالقوة، وبالقوة اعتزم الشعب أن يستردها منه، إن السلطنة يجب

أن تفصل عن الخلافة وتلغى، وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا، كل ما في الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط في غضون ذلك) وكان يتكلم بلهجة الديكتاتور فانفض اجتماع اللجنة، ثم دعيت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح. ولدى مناقشتها له تبين لمصطفى كمال أن الاتجاه الغالب يميل إلى رفض هذا الاقتراح فجمع أنصاره حوله وطلب أخذ الرأي على الاقتراح برفع الأيدي مرة واحدة، فاعترض النواب على ذلك وقالوا: إن كان لا بد من أخذ الرأي فليكن بالمناداة بالاسم. فرفض مصطفى كمال ذلك، وصاح ــ وفي صوته رنة التهديد ــ قائلاً: (أنا واثق من أن المجلس سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء. ويكفي أخذ الأصوات برفع الأيدي. وطرح الاقتراح للتصويت، فلم ترتفع غير أيد قليلة، لكن النتيجة أعلنت بأن المجلس أقر الاقتراح بإجماع الآراء، فدهش النواب لذلك، وقفز بعضهم فوق مقاعدهم محتجين صائحين: (هذا غير صحيح نحن لم نوافق) فصاح بهم أنصار مصطفى كمال يسكتونهم، وتبادلوا الشتائم. إلا أن الرئيس أعلن النتيجة مرة أخرى بأن الجمعية الوطنية الكبرى لتركيا قررت بإجماع الآراء إلغاء السلطنة، ثم فضت الجلسة. وغادر مصطفى كمال القاعة يحيط به أنصاره. ولما علم الخليفة وحيد الدين بذلك فر هارباً. وعلى أثر إعلان فراره نودي بابن أخيه عبد المجيد خلفية للمسلمين، مجرداً من كل سلطان. وبذلك صار الخليفة من غير سلطان. وظلت البلاد من غير حاكم شرعي.

وإذا كانت السلطنة قد فصلت عن الخلافة فمن الذي يحكم؟ لقد كان مصطفى كمال حريصاً على فصل السلطنة عن الخلافة حرصاً شديداً،

جعله يقدم عليه قبل أن يعين شكل الحكم الذي ستكون عليه تركيا، ولذلك صار يتعين البت في شكل الحكومة الجديدة بعد إلغاء السلطنة: هل يؤلف مصطفى كمال الوزارة وحينئذٍ يكون رئيساً لحكومة دستورية، ويبقى الخليفة صاحب السلطة ولا أثر لقرار الإلغاء؟ لم يقبل مصطفى كمال أن يؤلف الوزارة. وأخفى ما هو عازم عليه. وقام بعد ذلك بواسطة القوة والسلطة التي يملكها، ويتحكم بواسطتها بالشعب قام بتأليف حزب سماه حزب الشعب. وكان يقصد من ذلك أن يأخذ الرأي العام إلى جانبه إلا أنه بالرغم من هذا فإن الأغلبية الساحقة في الجمعية كانت ضده بعد إعلان فصل السلطنة عن الخلافة، ولذلك أخذ يفكر في أمر إعلان شكل الحكومة التي قررها، وهي إعلان تركيا جمهورية، وإعلان نفسه رئيساً لها. وعمل على إيقاع الجمعية في أزمات حرجة كان من جرائها أن استقالت الوزارة، التي كانت تحكم، وقدمت استقالتها للجمعية الوطنية، ولم تجد الجمعية من يتولى الوزارة. وبعد أزمة مستحكمة اقترح على الجمعية أن يتولى الوزارة مصطفى كمال، فقبلت للظرف العصيب الذي كانت تجتازه. وطلبت إلى مصطفى كمال أن يتولى الوزارة ويحل الأزمة. فأظهر الامتناع أولاً، ثم أجاب الطلب وصعد المنصة وقال للنواب: لقد أرسلتم في طلبي كي أنقذ الموقف في لحظة الحرج، لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم، فليس منشأ هذه الأزمة أمراً عابراً، بل خطأً أساسياً في نظام حكومتنا، فالجمعية الوطنية تقوم بوظيفة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في وقت واحد، وكل نائب منكم يبغي أن يشترك في إصدار كل قرار وزاري، ويدس إصبعه في كل إدارة حكومية، وكل قرار لوزير، أيها السادة ما من وزير يستطيع أن يضطلع بمسؤولية، ويقبل المنصب في مثل هذه الظروف. يجب أن تدركوا أن

حكومة تقوم على هذه الأسس لهي حكومة يستحيل إيجادها. وإذا وجدت لم تكن حكومة، بل كانت فوضى، ونحن يجب أن نغير هذا الوضع. لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب. وبعد أن أنهى كلامه أعلن المرسوم الذي كان معداً من قبل بجعل تركيا جمهورية، وانتخاب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية وبذلك جعل نفسه الحاكم الشرعي للبلاد.

إلا أن الأمور لم تسر كما يريد مصطفى كمال، فإن الشعب التركي شعب مسلم وما فعله مصطفى كمال يخالف الإسلام، لذلك سادت البلاد فكرة مؤداها أن مصطفى كمال يعتزم القضاء على الإسلام، وأيدت هذه الفكرة تصرفات كمال نفسه فإنه كان متنكراً للإسلام في حياته الخاصة مخالفاً لكل الأحكام الشرعية، يظهر السخرية من كل الأوضاع المقدسة عند المسلمين. وتيقن الناس في جمهرتهم أن حكام أنقرة الجدد كفرة ملاعين. وصار الناس يلتفون حول الخليفة عبد المجيد، ويحاولون أن يرجعوا إليه السلطة، وأن يجعلوه هو الحاكم ليقضي على هؤلاء المرتدين. فأدرك مصطفى كمال الخطر مجسماً ورأى أن أكثرية الشعب تكرهه. وتتهمه بالزندقة والكفر والإلحاد، وفكر في الأمر ونشط في الدعاية ضد الخليفة والخلافة، وأثار حماسة الجمعية الوطنية حتى سنت قانوناً يقضي باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل إلى السلطان خيانة يعاقب عليها بالموت. ثم أخذ يتحدث عن أضرار الخلافة في كل مجلس، ولا سيما للجمعية الوطنية، وأخذ يهيئ الأجواء لإلغاء الخلافة، فقام بعض النواب يتحدثون عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الديبلوماسية، فقاومهم مصطفى كمال، وقال

للجمعية الوطنية: أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون؟ لقد آن أن تنظر تركيا إلى مصالحها، وتتجاهل الهنود والعرب، وتنقذ نفسها من تزعم المسلمين.

وهكذا سار مصطفى كمال في دعاوته ضد الخلافة يبين أضراها للأتراك، كما يبين أضرار الخليفة نفسه، ويصوره وأنصاره في صورة الخونة، ويظهرهم بمظهر الصنائع للإنجليز. ولم يكتف بذلك. بل أوجد موجة إرهاب ضد من يؤيدون الخلافة، فإن أحد النواب قد صرح بلزوم الخلافة والمحافظة على الدين، فما كان من مصطفى كمال إلاّ أن كلف شخصاً باغتياله في الليلة التي تكلم فيها فاغتاله شخص من أتباع مصطفى كمال وهو راجع إلى بيته من الجمعية الوطنية، وألقى أحد النواب خطاباً إسلامياً فأحضره مصطفى كمال وهدده بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى. وهكذا نشر الرعب في طول البلاد وعرضها، ثم أرسل إلى حاكم استانبول يأمره بوجوب إلغاء مظاهر الأبهة التي تحيط بموكب الخليفة أثناء تأدية صلاة الجمعة، وخفض مرتب الخليفة إلى الحد الأدنى. وأنذر أتباعه بوجوب التخلي عنه، ولما لاحظ ذلك بعض المعتدلين من أنصار مصطفى كمال أخذتهم الحمية الإسلامية وخافوا من إلغاء الخلافة، والتمسوا من مصطفى كمال أن ينصب نفسه خليفة للمسلمين. فلم يقبل، ثم جاءه وفدان أحدهما من مصر والآخر من الهند، وطلبا إليه أن ينصب نفسه خليفة للمسلمين وكررا الرجاء ولكنه رفض ذلك وهيأ ضربته القاصمة بإعلان إلغاء الخلافة، وأثار في الأجواء عند الشعب وعند الجيش وعند الجمعية الوطنية الحنق والبغض للأجانب وللأعداء ولخليفهم الخليفة ــ على حد زعمه ــ وكانت

إثارة الحنق على الأجانب خدعة قصد منها أن يتوصل إلى اتهام الخليفة بأنه حليف الأجانب وإلى إثارة الحنق عليه. وسمم الجو بالإشاعات المثيرة ضد الخليفة. ولما سيطر هذا الجو على البلاد تقدم مصطفى كمال في الثالث من شهر آذار سنة ١٩٢٤م إلى الجمعية بمرسوم يقضي بإلغاء الخلافة، وطرد الخليفة وفصل الدين عن الدولة، وكان مما قاله للنواب حين تقدم بهذا المرسوم لإقراره (بأي ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تقوم على أسس علمية متينة؟ فالخليفة ومخلفات آل عثمان يجب أن يذهبوا، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلي مكانها لمدارس حكومية غير دينية) ثم حمل على الدين ومن سماهم رجال الدين. وبسلطة دكتاتورية أقر هذا المرسوم من الجمعية الوطنية بغير مناقشة. ثم أرسل إلى حاكم استانبول أمراً يقضي بأن يغادر الخليفة عبد المجيد تركيا قبل فجر اليوم التالي فذهب الحاكم ومعه حامية من رجال الشرطة والجيش إلى قصر الخليفة في منتصف الليل وأجبروه على أن يركب سيارة واقتادوه إلى خارج الحدود، ولم يسمحوا له أن يحمل معه سوى حقيبة فيها بعض الثياب وبعض النقد.

وهكذا هدم مصطفى كمال الدولة الإسلامية والنظام الإسلامي وأقام الدولة الرأسمالية والنظام الرأسمالي وبذلك قضى على الدولة الإسلامية وحقق للكفار حلمهم الذي داعبهم منذ الحروب الصليبية ألا وهو القضاء على دولة الإسلام.

الحيلولة دون قيـام الـدولة الإسـلامية

انتهت الحرب العالمية الأولى واستولى الحلفاء على جميع بلاد الدولة الإسلامية وكان همهم القضاء على هذه الدولة نهائياً، والحيلولة دون قيامها مرة أخرى، أما وقد قضوا عليها نهائياً فإنهم أخذوا يعملون للحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية في أي جزء من أجزاء العالم الإسلامي. وقد وضعوا عدة خطط واستعملوا عدة أساليب لضمان عدم رجوع الدولة الإسلامية للوجود، ولا يزالون يعملون من أجل هذه الغاية.

فمنذ أن احتل الكافر المستعمر بلاد المسلمين قام بتثبيت حكمه لها على الأسس التي رسمها. فقد احتل البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية سنة ١٩١٨م وأقام فيها الأحكام العسكرية حتى سنة ١٩٢٢م فركز حكمه باسم الانتداب في بعضها، وباسم الاستقلال الذاتي في بعضها الآخر، حتى جاءت سنة ١٩٢٤م، وفي تلك السنة قامت أعمال عدة أجهز بها العدو ولا سيما بريطانيا على كل ما فيه شبهة تمتّ إلى قيام الدولة الإسلامية، ففي تلك السنة ألغى مصطفى كمال الخـلافة من الدولة العثمانية بتأثير من الكافر المستعمر وجعل تركيا جمهورية ديمقراطية، فقضى على شبح الخـلافة حتى يقضي على آخر أمل في رجوع الدولة الإسلامية. وفي تلك السنة خرج الحسين بن علي من الحجاز وحُبِس في قبرص لأنه كان يطمع في الخـلافة، وفي تلك السنة تدخل الإنكليز بواسطة عملائهم في مؤتمر الخـلافة الذي كان معقوداً في القاهرة وعملوا على فضة وإخفاقه. وفي تلك

السنة أخذ الإنكليز يعملون لإلغاء جمعية الخلافة في الهند ولإحباط مساعيها وتحويل تيارها إلى الناحية الوطنية والقومية. وفي تلك السنة أيضاً صدرت في مصر بتأثير من الكافر المستعمر مؤلفات من بعض علماء الأزهر تدعو لفصل الدين عن الدولة، وتدعي أن الإسلام ليس فيه أصول للحكم، وتصور الإسلام بأنه دين كهنوتي، ولم يرد فيه شيء عن الحكم وعن الدولة. وفي تلك السنة وما يليها قامت في البلاد العربية مجادلات بيزنطية حول موضوعين هما: هل الجامعة العربية أصلح وأكثر إمكانية أم الجامعة الإسلامية، واشتغلت الصحف والمجلات مدة في هذا الموضوع. مع أن كلا من الجامعة الإسلامية والجامعة العربية غير صالحة، ووجودها يحول دون قيام الدولة الإسلامية، ولكن الكافر المستعمر أوجد هذا الجدل لتحويل الأذهان عن الدولة الإسلامية. وبهذا استطاع أن يبعد عن الأذهان في البلاد الإسلامية فكرة الخلافة، وفكرة الدولة الإسلامية.

وكان الاستعمار قبل احتلاله قد أخذ يشيع بين شباب الترك ألفاظ القومية التركية، وأن تركيا تحمل عبء الشعوب غير التركية، وأنه آن لها أن تتخلى عن هذه الشعوب، وألفت أحزاب سياسية للعمل من أجل القومية التركية واستقلال تركيا عن البلاد غير التركية. وأخذ يشيع بين شباب العرب ألفاظ القومية العربية، وأن تركيا دولة مستعمرة وأنه آن الأوان للعرب لأن يتخلصوا من نير الاستعمار التركي، وقد ألفت الأحزاب السياسية للعمل من أجل الوحدة العربية واستقلال العرب. وما أن جاء الاحتلال حتى أخذ الكافر المحتل يشيع ألفاظ القومية، وأخذت تحل محل الإسلام، فاستقل الأتراك على أساس قومي وطني، وأخذ العرب يعملون

للحكم الذاتي على أساس قومي وطني، وشاعت كلمة القومية والوطنية وملأت الأجواء، وصارت هي موضع الفخر والاعتزاز ولم يكتف الاستعمار بذلك بل أشاع المفاهيم المغلوطة عن الحكم في الإسلام، وعن الإسلام، وصور الخلافة بأنها بابوية، وبأنها حكم ديني كهنوتي، حتى صار المسلمون يخجلون من ذكر كلمة خليفة، ومن طلب الخلافة. ووجد بين المسلمين عرف عام بأن أمر المطالبة بالخلافة تأخر وجمود، لا يجوز أن يصدر من مثقف، ولا يقول به مفكر.

وفي هذه الأجواء القومية والوطنية قسم البلاد الإسلامية إلى دويلات، وجعل أهل كل بلاد يركزون هذا التقسيم، فقسم الدولة العثمانية إلى عدة أقسام هي تركيا، ومصر، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، وشرق الأردن، والحجاز، ونجد، واليمن. وصار المشتغلون بالسياسة فيه من عملاء هذا الكافر المستعمر، ومن غيرهم من حسني النية، يعقدون المؤتمرات في كل بلد يطالبون بالاستقلال، أي استقلال الجزء الذي رسم لهم دولة عن غيره من باقي الأجزاء، وعلى هذا الأساس قامت الدولة التركية، والدولة العراقية، والدولة المصرية، والدولة السورية...الخ ثم أقام في فلسطين وطناً قومياً لليهود تحول فيما بعد إلى كيان مستقل تحت اسم الدولة، ليكون رأس جسر له ويشغل به المسلمون عن الكافر المستعمر، وهو الدول الغربية كبريطانيا وأميركا وفرنسا، وليكون حاجزاً من الحواجز التي تحول دون رجوع الدولة الإسلامية. وبذلك ركز الوضع الجغرافي، والأجواء العامة، تركيزاً يحول دون تحرير المسلمين.

وقام بتطبيق النظام الرأسمالي في الاقتصاد، والنظام الديمقراطي في

الحكم، والقوانين الغربية في الإدارة والقضاء، وثبت حضارته ومفاهيمه عن الحياة، وصار يحاول أن يركز وجهة نظره في الحياة حتى تصبح طريقته في الحياة هي الطريقة التي يعيش عليها المسلمون، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد، فقد جعل مصر سلطنة ثم أقام فيها النظام الملكي البرلماني، وأقام في العراق النظام الملكي البرلماني، وأقام في لبنان وسوريا النظام الجمهوري، وأقام في شرقي الأردن إمارة وفي فلسطين حكماً انتدابياً انتهى بقيام نظام ديمقراطي برلماني بين اليهود تحت اسم الدولة، وضم القسم الباقي لشرق الأردن وجعلها ملكية برلمانية، وأقام في الحجاز وفي اليمن ملكية مستبدة، وفي تركيا جمهورية رئاسية، وفي الأفغان ملكية وراثية، وشجع إيران على التمسك بالنظام الإمبراطوري، وظل مستعمراً الهند، ثم قسمها إلى دولتين. وبهذا جعل الكافر المستعمر نظامه هو الذي يطبق في بلاد المسلمين، وبتطبيقه أضعف في النفوس فكرة إعادة حكم الإسلام. ولم يكتف بذلك بل جعل في نفس أهل البلاد المحافظة على النظام الذي أقامه؛ إذ اعتبر أهل كل إقليم من هذه الأقاليم إقليمهم فقط دولة، وصاروا يفهمون وجوب استقلاله عن غيره من الأقاليم، وصار العراقي في تركيا أجنبياً، والسوري في مصر أجنبياً، وهكذا صار حكام كل بلد يحافظون على هذا النظام الرأسمالي الديمقراطي أكثر من محافظة أهله عليه. وصاروا موظفين بوظيفة الحراسة على ما أقام لهم المستعمر من نظام ودستور، ويعتبرون تغييره حركة غير مشروعة يعاقب عليها قانون المستعمر الذي وضعهم لتنفيذه.

وقام بتطبيق القوانين الغربية على بلاد المسلمين مباشرة، بعد أن كان يحاول تطبيقها بالواسطة عن طريق العملاء في البلاد الإسلامية؛ إذ حاول

الاستعمار منذ أول النصف الثاني من القرن التاسع عشر إدخال القوانين الغربية إلى البلاد الإسلامية. ففي مصر بدأ الاستعمار يشجع إدخال القانون المدني الفرنسي ليحل محل الأحكام الشرعية، ونجح في ذلك وبدأت مصر منذ سنة ١٨٨٣م تطبق القانون الفرنسي، فقد ترجمت القانون الفرنسي القديم وسنته قانوناً وصار يطبق في المحاكم بدل الأحكام الشرعية، وفي الدولة العثمانية بدأت منذ سنة ١٨٥٦م حركة لأخذ القوانين الغربية، غير أنها لم تلاق السهولة التي لاقتها في مصر بسبب وجود الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية، ولكن إلحاح الكفار واستجابة العملاء مكنهم من إدخال قانون الجزاء وقوانين الحقوق والتجارة بأخذ فتاوى بأنها لا تخالف الإسلام، ودخلت فكرة التقنين، ثم ألفت المجلة من الأحكام الشرعية قانوناً، وجعلت المحاكم قسمين: شرعية تعمل بالأحكام الشرعية على شكل قوانين، ونظامية تحكم حسب القوانين الغربية التي أفتى العلماء بأنها لا تخالف الإسلام، وحسب القوانين الشرعية التي صيغت تقليداً للقوانين الغربية. هذا بالنسبة للقوانين، أما بالنسبة للدستور، فإن الحركة لإيجاد دستور للدولة وجعله يؤخذ من الدستور الفرنسي قامت مع حركة أخذ القوانين، وكادت تنجح سنة ١٨٧٨م، غير أن قوة مقاومة المسلمين وقفت في وجهها وأخمدتها. إلا أن ملاحقة الكافر المستعمر ونجاح عملائه والمضبوعين بثقافته مكن حركة الدستور من الظهور مرة أخرى ومكنها من النجاح، ووضع الدستور موضع العمل في الدولة سنة ١٩٠٨م. وبوضع القوانين ووضع الدستور موضع العمل في الدولة العثمانية صارت البلاد الإسلامية في جملتها ما عدا جزيرة العرب والأفغان تسير نحو القوانين الغربية، وما أن احتل الكافر المستعمر البلاد حتى قام بتطبيق سائر القوانين الغربية مباشرة باعتبارها قوانين مدنية لا

علاقة لها بالإسلام، وتركت الأحكام الشرعية، فثبت ذلك حكم الكفر وأبعد حكم الإسلام، وقد ساعده على ذلك أنه ثبت أركانه وأقام جميع شؤونه على أساس سياسة التعليم التي رسمها، والمناهج التربوية التي وضعها، والتي ظلت تطبق حتى اليوم في جميع البلاد الإسلامية، وأنتجت ما أنتجته من هذه الجيوش الجرارة من المعلمين الذين يقوم أكثرهم على حراسة هذه البرامج وحمايتها، والذين يتولى الكثيرون منهم زمام الأمور، ويسيرون وفق ما يريد الكافر المستعمر. وقد قامت سياسة التعليم ووضعت مناهجه على أساسين اثنين: أحدهما فصل الدين عن الحياة، وينتج عنها طبيعياً فصل الدين عن الدولة، وذلك يحتم أن يقوم أبناء المسلمين بمحاربة قيام دولة إسلامية، لأنها تتناقض مع الأساس الذي تعلموا على سياسته، أما الأساس الثاني فهو جعل شخصية الكافر المستعمر المصدر الرئيسي لما تحشى به العقول الناشئة من معارف ومعلومات. وذلك يوجب احترام هذا الكافر المستعمر وتعظيمه، ومحاولة محاكاته وتقليده، ولو كان كافراً مستعمراً، ويوجب احتقار المسلم والابتعاد عنه والاشمئزاز منه والاستنكاف عن الأخذ منه. وهذا يقضي بمحاربة قيام دولة إسلامية واعتبارها رجعية. ولم يكتف الاستعمار بمناهج المدارس التي يشرف عليها أو تشرف عليها الحكومات التي أقامها مقامه. بل جعل إلى جانبها المدارس التبشيرية التي تقوم على أساس استعماري محض، والمعاهد الثقافية التي تأخذ على عاتقها التوجيه السياسي الخطأ، والتوجيه الثقافي المغلوط. وبذلك صار الجو الفكري في المدارس على اختلافها والمعاهد الثقافية على تنوعها يثقف الأمة ثقافة تبعدها عن التفكير في الدولة الإسلامية، وتحول بينها وبين العمل من أجلها.

وقامت إلى جانب ذلك المناهج السياسية في جميع البلاد الإسلامية على أساس فصل الدين عن الحياة، وصار العرف العام عند المثقفين هو فصل الدين عن الدولة، وعند عامة الشعب فصل الدين عن السياسة، وكان من جراء ذلك أن وجدت فئات من المثقفين تزعم أن سبب تأخر المسلمين هو تمسكهم بالدين، وأن الطريق الوحيد للنهضة هو القومية والعمل لها. كما وجدت فئات تدعي أن سبب تأخر المسلمين هو الأخلاق. فقامت على الأساس الأول تكتلات حزبية سياسية اسماً تعمل للقومية وللوطنية، وتعتبر العمل على أساس الإسلام دسيسة استعمارية، وتعتبرها رجعية وجموداً يؤدي إلى التأخر والانحطاط. كما قامت على الأساس الثاني تكتلات جمعية على أساس الأخلاق والوعظ والإرشاد، وصارت تعمل للفضيلة والخلق واشترطت على نفسها أن لا تتدخل في السياسة. وبذلك كانت هذه الأحزاب والجمعيات الحائل العملي الذي يحول دون السعي لإيجاد الدولة الإسلامية. لأن الجمعيات صرفت الأذهان وانصرفت هي عن العمل السياسي الواجب شرعاً وهو إقامة الدولة الإسلامية إلى العمل الأخلاقي فقط الذي هو نتيجة حتمية لتطبيق المسلم أحكام الإسلام، ونتيجة طبيعية لقيام حكم الإسلام. ولأن الأحزاب قامت على أساس استعماري يناقض الإسلام، ويحول دون قيام الدولة الإسلامية.

وقامت إلى جانب المناهج السياسية القوانين التي تحفظ هذه المناهج وتؤمن تنفيذها، فقد سنت قوانين تحول دون قيام أحزاب أو حركات سياسية إسلامية، واعتبرت تلك القوانين في مجموعها المسلمين طائفة من الطوائف، مع أنهم أهل البلاد. وتضمنت تلك القوانين نصوصاً مؤداها أنه

يشترط في الأحزاب والحركات السياسية أن تكون نظمها ديمقراطية، وأن لا تحصر عضويتها عملياً في طائفة. ومعنى ذلك أنه لا يجوز أن تنشأ في البلاد الإسلامية أحزاب أو حركات سياسية إسلامية حتى لا تعود الدولة الإسلامية. وأن المسلمين لا حق لهم إلاّ بالجمعيات الخيرية وما إليها، وممنوعون من العمل السياسي على أساس الإسلام، واعتبرت بعض القوانين القيام بالأحزاب السياسية الإسلامية جرماً يعاقب عليه. وبذلك تركزت المناهج السياسية على أساس الحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية بالقوانين الموضوعة.

ولم يكتف الاستعمار بذلك بل أخذ يصرف المسلمين عن التفكير بالدولة الإسلامية بأعمال تافهة يتلهون بها، فقد شجع المؤتمرات الإسلامية لتكون ألهيات الأمة الإسلامية عن العمل الحقيقي للدعوة الإسلامية ولاستئناف الحياة الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية، فكانت هذه المؤتمرات متنفساً للعواطف، تتخذ القرارات وتنشرها بالصحف ودور الإذاعة لمجرد النشر، دون أن ينفذ شيء منها، بل دون أن يسعى لتنفيذ شيء منها، ثم شجع المؤلفين والمحاضرين ليبينوا خطر وجود الدولة الإسلامية، وأن الإسلام ليس فيه نظام حكم، فصدرت كتب ورسائل لبعض المسلمين المأجورين تحمل دعوة الاستعمار هذه حتى يضلل المسلمون وحتى يصرفوا عن دينهم وعن العمل لاستئناف الحياة حسب أحكامه. وهكذا دأب الاستعمار منذ أن قضى على الدولة الإسلامية إلى الآن يقيم العراقيل التي تحول دون قيام الدولة الإسلامية، ويركز جهوده للحيلولة دون إيجادها، بعد أن محاها من الوجود.

إقامة الدولة الإسلامية فرض على المسلمين

تقوم الدولة على ثمانية أجهزة وهي: الخليفة، ومعاون التفويض، ومعاون التنفيذ، وأمير الجهاد، والولاة، والقضاء، ومصالح الدولة، ومجلس الأمة، فإذا استكملت الدولة هذه الأجهزة الثمانية استكمل جهازها، وإذا نقص واحد منها نقص جهازها، ولكنها تبقى دولة إسلامية ولا يضرها نقص شيء من الجهاز ما لم يكن الخليفة؛ لأنه الأساس في الدولة. أما قواعد الحكم في الدولة الإسلامية فهي أربع قواعد هي: نصب خليفة واحد، وأن يكون السلطان للأمة، وأن تكون السيادة للشرع، وأن يتولى الخليفة وحده تبني الأحكام الشرعية أي جعلها قوانين. فإذا نقصت قاعدة واحدة من هذه القواعد كان الحكم غير إسلامي، بل لا بد من استكمال هذه القواعد الأربع جميعها. والأساس في الدولة الإسلامية هو الخليفة، وما عداه نائب عنه أو مستشار له، فالدولة الإسلامية هي خليفة يطبق الإسلام، والخلافة أو الإمامة هي استحقاق تصرف عام على المسلمين، وهي ليست من العقائد، بل هي من الأحكام الشرعية، إذ هي من الفروع المتعلقة بأفعال العباد.

ونصب الخليفة فرض على المسلمين، ولا يحل للمسلمين أن يبيتوا ثلاث ليالٍ دون بيعة. وإذا خلا المسلمون من خليفة ثلاثة أيام أثموا جميعاً حتى يقيموا خليفة. ولا يسقط عنهم الإثم حتى يبذلوا الجهد لإقامة خليفة ويواصلوا العمل حتى يقيموه. وقد ثبت وجوب نصب الخليفة بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة؛ أما الكتاب فإن الله تعالى أمر الرسول

ﷺ أن يحكم بين المسلمين بما أنزل إليه، وكان أمره جازماً، قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ وخطاب الرسول ﷺ خطاب لأمته ما لم يرد دليل يخصصه به، وهنا لم يرد دليل، فيكون خطاباً للمسلمين بإقامة الحكم، وإقامة الخليفة هي إقامة للحكم والسلطان. وأما السنة فقد أخرج أحمد والطبراني «**ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»، خرجاه من حديث معاوية، ولمسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**». وروى هشام بن عروة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**سيليكم بعدي ولاة فيليكم البَرّ ببِره ويليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق فإن أحسنوا فلكم وإن أساءوا فلكم وعليهم**». وأما الإجماع فإن الصحابة قد جعلوا أهم المهمات بعد وفاة النبي ﷺ نصب الخليفة، على ما في الصحيحين من حديث سقيفة بني ساعدة، وكذا بعد موت كل خليفة من الخلفاء، وقد تواتر نقل إجماع الصحابة على وجوب نصب الخليفة حتى جعلوه من أهم الواجبات. ويعتبر ذلك دليلاً قطعياً، وتواتر إجماع الصحابة أيضاً على امتناع خلو الأمة من خليفة في أي وقت من الأوقات. فواجب على الأمة نصب إمام أي إقامته وتوليته، وتخاطب بذلك جميع الأمة من ابتداء موته عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة.

ويتضح مبلغ اللزوم الحتمي في إقامة الخليفة ومبلغ فهم الصحابة هذا اللزوم مما فعله الصحابة من تقديم إقامة خليفة وبيعته على دفن رسول الله ﷺ، ويتضح كذلك مما فعله عمر بن الخطاب حين طعن وكان مشرفاً على الموت، فقد طلب إليه المسلمون أن يستخلف فأبى، فألحوا عليه فاستخلف ستة، أي حصر الترشيح في ستة ينتخب منهم خليفة ولم يكتف بذلك بل حدد لهم موعداً نهائياً هو ثلاثة أيام، ثم أوصى أنه إذا لم يتفق على الخليفة بعد ثلاثة أيام فليقتل المخالف، ثم وكل بهم من يقتل المخالف مع أنهم أهل الشورى، ومع أنهم كبار الصحابة، إذ هم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص. وإذا كان هؤلاء يقتل أحدهم إن لم يتفق على انتخاب خليفة فذلك يدل على اللزوم الحتمي لانتخاب الخليفة.

على أن كثيراً من الواجبات الشرعية يتوقف على الخليفة كتنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وسد الثغور وتجهيز الجيوش، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد، وحفظ الأمن، ونحو ذلك من الأمور التي بين آحاد الأمة؛ ولذلك كان نصبه واجباً.

وليس طلب الخلافة مكروهاً، فقد تنازع فيها الصحابة رضوان الله عليهم في السقيفة، وتنازع فيها أهل الشورى، ولم ينكر عليهم ذلك أحد مطلقاً، بل انعقد الإجماع من الصحابة في الصدر الأول على قبول هذا التنازع عليها منهم.

ولا يولى أكثر من خليفة واحد على جميع المسلمين لقوله ﷺ: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»، رواه مسلم من حديث أبي سعيد

الخدري، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**» وفي رواية: «**فاضربوه بالسيف كائناً من كان**»، والأمر بقتل الآخر محمول على ما إذا لم يندفع إلا بالقتل. وإن اجتمع عدة ممن توفرت فيهم صفات الخليفة فالخليفة من انعقدت له البيعة من الأكثر، والمخالف للأكثر باغٍ. هذا إن اجتمعوا في الوجود لا في عقد الولاية لكل منهم، أما إن انعقدت الولاية لواحد مستوف شروط الخلافة ثم بايع الأكثر غيره، فالأول هو الخليفة، والثاني يجب رده. والشروط التي يجب أن تتوفر في الخليفة هي: الإسلام، والذكورة، والبلوغ، والعقل، والعدالة والقدرة والحرية. أي يجب أن يكون الخليفة رجلاً، مسلماً، بالغاً، عاقلاً، عدلاً حراً قادراً. أما شرط الإسلام فلقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾؛ وأما شرط الذكورة فلقوله ﷺ: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**»؛ وأما البلوغ والعقل فلقوله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل**»، ومن رفع القلم عنه فهو غير مكلف شرعاً، فلا يصح أن يكون خليفة أو ما دون ذلك من الحكم لأنه لا يملك التصرفات.

وأما العدالة فهي شرط لازم لانعقاد الخلافة ولاستمرارها، لأن الله تعالى اشترط في الشاهد أن يكون عدلاً قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فمن كان أعظم من الشاهد وهو الخليفة فأولى أن يكون عدلاً.

وأما الحرية فلأن العبد مملوك لسيده فلا يملك التصرف بنفسه، ومن باب أولى أنه لا يملك التصرف بغيره فلا يملك الولاية على الناس.

وأما القـدرة فلأن من كان عاجزاً عن القيام بتكليف ما يكون تكليفه به عبثاً، ويؤدي إلى التفريط بالأحكام وضـياع الحقـوق، والإسـلام لا يجـيـز ذلـك.

هذه هي شروط الخليفة الثابتة، وأما ما عداها من الشروط التي ذكرها الفقهاء من مثل الشجاعة والعلم وكونه من قريش أو من آل فاطمة وما شاكل ذلك فليست هي شروط انعقاد للخـلافة و لم يصح أي دليل على أنها شرط لانعقاد الخـلافة وصحة البيعة؛ ولذلك لا تعتبر شرطاً فكل رجل مسلم بالغ عاقل عدل حرّ قادر يصح أن يُبايَعَ خليفة للمسلمين، ولا يشترط فيه أي شرط آخر.

وعلى ذلك فإن إقامة الدولة الإسلامية فرض على المسلمين جميعاً وقد ثبت ذلك بالكتاب والسنة وبـإجماع الصحابة؛ ولأن المسلمين خاضعون لنفوذ الكفر في بلادهم وتطبق عليهم أحكام الكفر وأصبحت دارهم دار كفر بعد أن كانت دار إسلام، أي أصبحت تابعيتهم ليست تابعية إسلامية وإن كانت بلادهم بلاداً إسلامية، وواجب عليهم أن يعيشوا في دار الإسلام وأن تكون لهم تابعية إسلامية، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بـإقامة الدولة الإسلامية، فإن المسلمين سيظلون آثمين حتى يعملوا لإقامة الدولة الإسلامية فيبايعوا خليفة يطبق الإسلام ويحمل دعوته للعالم.

صعوبات قيام الدولة الإسلامية

ليس قيام الدولة الإسلامية سهلاً ميسوراً، لأن استئناف الحياة الإسلامية ليس بالأمر الهين. فهناك عراقيل شتى وضخمة تقوم في وجه قيام الدولة الإسلامية لا بد من إزالتها، وصعوبات كثيرة وكبيرة تقف في طريق استئناف الحياة الإسلامية لا بد من التغلب عليها، لأن الأمر لا يتعلق بقيام دولة أية دولة، ولا بقيام دولة تسمى إسلامية. بل الأمر يتعلق بقيام دولة إسلامية تطبق الإسلام نظاماً منبثقاً عن العقيدة الإسلامية، تطبقه أحكاماً شرعية باعتبارها حكم الله، فتستأنف الحياة الإسلامية كاملة في الداخل، وتحمل الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة في الخارج. وهذه الدولة الإسلامية يجب أن تقوم على العقيدة الإسلامية وما يبنى عليها أو ما يتفرع عنها من أفكار، ثم تقوم على القوانين والنظم التي تنبثق عن العقيدة الإسلامية. وذلك حتى تنبعث حوافز هذه الحياة من داخل النفس فتوجد العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية التي تكفل تنفيذ النظم والقوانين تنفيذاً طوعياً عن شوق واطمئنان من كل من الحاكم والمحكوم على السواء. ولا بد أن تكون هذه الدولة إسلامية في الأمة التي تقيمها، وفي أولي الأمر الذين يتولون رعاية شؤون الأمة، إسلامية في جميع حياتها، محققة استئناف الحياة الإسلامية تحقيقاً يمكنها من حمل رسالتها للعالم. ويمكن غير المسلمين من مشاهدة نور الإسلام في دولته حتى يدخلوا في دين الله أفواجاً، ولذلك كانت الصعوبات التي تقف في طريق استئناف الحياة الإسلامية، أو تقوم في وجه قيام الدولة

الإسلامية كثيرة لا بد من معرفتها، ولا بد من العمل على التغلب عليها. وأهم هذه الصعوبات ما يأتي:

١ ــ وجود الأفكار غير الإسلامية وغزوها للعالم الإسلامي، وذلك أن العالم الإسلامي ــ وقد مر في العصر الهابط وكان ضحل التفكير، عديم المعرفة، ضعيف العقلية، بسبب انحطاطه العام ــ قد غزي وهو على هذه الصورة بالأفكار غير الإسلامية المناقضة لأفكار الإسلام، والقائمة على أساس مغلوط وعلى فهم خاطئ للحياة ولما قبلها وما بعدها، فوجدت هذه الأفكار تربة خصبة خالية من المقاومة فتمكنت منها، ولذلك تشبعت عقلية المسلمين ولا سيما فئة المثقفين بهذه الأفكار، فكونت فيها عقلية سياسية مشبعة بالتقليد، بعيدة عن الابتكار، غير مستعدة لقبول الفكرة الإسلامية سياسياً، وغير مدركة لحقيقة هذه الفكرة، وعلى الأخص من الناحية السياسية، ولذلك كان لزاماً أن تكون الدعوة الإسلامية: دعوة إلى الإسلام، ودعوة إلى استئناف حياة إسلامية، فيدعى غير المسلمين للإسلام بشرح أفكار الإسلام، ويدعى المسلمون إلى العمل لاستئناف الحياة الإسلامية بتفهيمهم الإسلام. وهذا يقضي بأن يبين ما في الأفكار الأخرى غير الإسلامية من زيف، وما في نتائجها من أخطار، وأن تأخذ الدعوة طريقها السياسي، وأن يسعى لتثقيف الأمة ثقافة إسلامية تبرز فيها الناحية السياسية. وبهذا يمكن التغلب على هذه الصعوبة.

٢ ــ وجود البرامج التعليمية على الأساس الذي وضعه المستعمر، والطريقة التي تطبق عليها هذه البرامج في المدارس والجامعات، وتخريجها لمن يتولى أمور الحكم والإدارة والقضاء والتعليم والطب وسائر شؤون الحياة،

بعقلية خاصة تسير فيها وفق الخطة التي يريدها الكافر المستعمر، حتى كان الحكم كما نشاهده هو أن يستبدل بموظفين مستعمرين موظفين من المسلمين، يكون عملهم حراسة ما أقام المستعمر من حدود وقوانين وثقافة وسياسة وأنظمة وحضارة وغير ذلك، والدفاع عنها كدفاعه هو أو أشد. وطريق التغلب على هذه الصعوبة هو كشف هذه الأعمال لهؤلاء الحكام والموظفين وغيرهم لهم وللناس جميعاً، حتى تبرز بشاعة الناحية الاستعمارية الموجودة فيها، ليتخلى هؤلاء عن الدفاع عنها حتى تجد الدعوة طريقها إلى هؤلاء المسلمين.

٣ ـ استمرار تطبيق البرامج التعليمية على الأساس الذي وضعه الكافر المستعمر، وحسب الطريقة التي أرادها، مما جعل جمهرة الشباب من المتخرجين وممن لا يزالون يتعلمون يسيرون باتجاه يناقض الإسلام. ولا نعني ببرامج التعليم البرامج العلمية والصناعية فإن هذه عالمية لا تختص بها أمة من الأمم بل هي عالمية لجميع الناس. وإنما نعني البرامج الثقافية التي تؤثر في وجهة النظر في الحياة، فهذه هي التي جعلت برامج التعليم تقف صعوبة أمام استئناف الحياة الإسلامية، وهذه المعارف تشمل التاريخ والأدب والفلسفة والتشريع، وذلك لأن التاريخ هو التفسير الواقعي للحياة، والأدب هو التصوير الشعوري لها، والفلسفة هي الفكر الأصلي الذي تبنى عليه وجهة النظر في الحياة، والتشريع هو المعالجات العملية لمشاكل الحياة والأداة التي يقوم عليها تنظيم علاقات الأفراد والجماعات، وهذه كلها قد كون بها الكافر المستعمر عقلية أبناء المسلمين تكويناً خاصاً جعل بعضهم لا يشعر بضرورة وجود الإسلام في حياته وحياة أمته، وجعل بعضاً منهم أيضاً يحمل

عداء للإسلام منكراً عليه صلاحيته لمعالجة مشاكل الحياة، ولذلك لا بد من تغيير هذه العقلية، وذلك بتثقيف الشباب خارج المدارس والجامعات ثقافة مركزة، وثقافة جماعية، بالأفكار الإسلامية والأحكام الشرعية، حتى يمكن التغلب على هذه الصعوبة.

٤ ــ وجود إكبار عام لبعض المعارف الثقافية واعتبارها علوماً عالمية، وذلك كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلوم التربية، فإن الناس يعتبرون هذه المعارف علوماً، وأن الحقائق التي جاءت بها هي نتيجة تجارب، ويحملون لها إكباراً عاماً، ويأخذون ما تأتي به قضايا مسلمة يحكمونها في أمور الحياة، وهي تعلم في مدارسنا وجامعاتنا كعلوم، ونطبقها في الحياة ونستعين بها في أمور الحياة، ولذلك يستشهد بما قاله علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء التربية أكثر مما يستشهد بالقرآن والحديث، ولهذا وجدت عندنا أفكار ووجهات نظر خاطئة من جراء تعلم هذه العلوم، من جراء إكبارها، ومن جراء تحكيمها في أمورنا في الحياة. وصار من الصعوبة بمكان أن يقبل القول الذي يخالفها، وهي في جملتها تؤدي إلى فصل الدين عن الحياة، وتؤدي إلى محاربة قيام الدولة الإسلامية.

والحقيقة أن هذه المعارف هي ثقافة وليست علماً؛ لأنها تأتي عن طريق الملاحظة والاستنباط، ولا توجد فيها تجارب. وتطبيقها على الناس لا يعتبر تجارب، وإنما هو ملاحظات متكررة على أشخاص مختلفين، وفي ظروف وأوضاع مختلفة فهي ملاحظة واستنباط وليست تجربة كتجربة المختبر حين يجرب فيه الشيء أو يجرب عليه، ولذلك تدخل في الثقافة لا في العلم. وفوق ذلك فهي ظنية قابلة للخطأ والصواب، على أنها مبنية على

أساس مغلوط، لأنها مبنية على النظرة للفرد والمجتمع، فهي مبنية على النظرة الفردية، ولهذا تنتقل نظرتها من الفرد إلى الأسرة، إلى الجماعة إلى المجتمع، على اعتبار أن المجتمع مكون من أفراد. ولهذا تعتبر المجتمعات منفصلة. وأن ما يصلح لمجتمع لا يصلح لمجتمع آخر. والحقيقة أن المجتمع مكون من الإنسان والأفكار والمشاعر والأنظمة، وأن ما يصلح للإنسان من أفكار ومعالجات في مكان ما يصلح للإنسان في كل مكان، ويحول المجتمعات المتعددة إلى مجتمع واحد تصلحه الأفكار والمشاعر والأنظمة. فخطأ النظرة إلى المجتمع ترتب عليها خطأ النظريات التربوية في علوم التربية، وخطأ النظريات في علم الاجتماع، لأنها مبنية على هذه النظرة. كما أنها مبنية على علم النفس وهو في جملته خطأ من وجهين: **أولاً**: لأنه يعتبر الدماغ مقسماً إلى مناطق، وأن كل منطقة لها قابلية خاصة، وأن في بعض الأدمغة قابليات ليست موجودة في أدمغة أخرى، مع أن الحقيقة أن الدماغ واحد وأن تفاوت الأفكار التي تنتج واختلافها تابع لتفاوت المحسوسات والمعلومات السابقة واختلافها. وأنه لا توجد في دماغ قابلية لا توجد في الآخر بل جميع الأدمغة فيها قابلية الفكر في كل شيء متى توفر الواقع المحسوس والحواس والمعلومات السابقة للدماغ، وإنما تتفاوت الأدمغة في قوة الربط، وفي قوة الإحساس، كما تتفاوت العيون في قوة الإبصار وضعفه، ولذلك يمكن إعطاء كل فرد أية معلومات، وفيه قابلية لهضمها. ولذلك لا أساس لما جاء في علم النفس من القابليات. **ثانياً**: يعتبر علم النفس الغرائز كثيرة، منها ما اكتشف ومنها ما لم يكتشف، وبنى العلماء على هذا المفهوم للغرائز نظريات خاطئة. والحقيقة أن المشاهد بالحس من تتبع الرجع أو رد الفعل أن الإنسان فيه طاقة حيوية، لها مظهران، أحدهما يتطلب الإشباع

الحتمي وإذا لم يشبع يموت الإنسان. والثاني يتطلب الإشباع وإذا لم يشبع يبقى الإنسان حياً ولكنه يكون قلقاً من عدم الإشباع. والأول هو الحاجات العضوية كالجوع والعطش وقضاء الحاجة، والثاني الغرائز وهي غريزة التدين، وغريزة النوع، وغريزة البقاء، وهذه الغرائز هي الشعور بالعجز، والشعور ببقاء النوع، والشعور ببقاء الذات، ولا يوجد غير ذلك. وما عدا هذه الغرائز الثلاث هو مظاهر للغرائز كالخوف والسيادة والملكية مظاهر لغريزة البقاء. والتقديس والعبادة مظاهر لغريزة التدين. والأبوة والأخوة مظاهر لغريزة النوع. فاعتبار علم النفس للغرائز اعتباراً خاطئاً، واعتباره للدماغ اعتباراً خطأً، أدى إلى خطأ النظريات التي بنيت على أساسهما، وبالتالي أدى إلى خطأ علوم التربية التي تأثرت بعلم النفس.

وعليه فعلم الاجتماع وعلوم التربية وعلم النفس معارف ثقافية، وفيها ما يناقض الفكرة الإسلامية، وهي في جملتها خطأ، فبقاء الإكبار لها وتحكيمها يؤدي إلى إيجاد صعوبة تقف في وجه العمل للدولة الإسلامية، ولذلك يجب أن يبين أنها معارف ثقافية وليست علوماً، وأنها ظنية وليست حقائق قطعية، وأنها مبنية على أسس خاطئة؛ ولذلك لا تحكم في الحياة وإنما يحكم الإسلام.

٥ – كون المجتمع في العالم الإسلامي يحيا حياة غير إسلامية، ويعيش وفق طراز من العيش يتناقض مع الإسلام، وذلك لأن جهاز الدولة، ونظام الحكم، الذي يقوم عليه هذا الجهاز والمجتمع، وقواعد الحياة التي يقوم عليها هذا المجتمع بكل مقوماتها، والاتجاه النفسي الذي يتجهه المسلمون، والتكوين العقلي الذي يقوم عليه تفكيرهم، كل ذلك يقوم على أساس

مفاهيم عن الحياة تناقض المفاهيم الإسلامية. فما لم تتغير هذه الأسس، وتصحح هذه المفاهيم المغلوطة، يكون من الصعب تغيير حياة الناس في المجتمع، ومن الصعب تغيير جهاز الدولة، وقواعد المجتمع، والاتجاهات النفسية والعقلية التي تتحكم بالمسلمين.

٦ ــ بُعْدُ الشقة بين المسلمين والحكم الإسلامي، ولا سيما في سياسة الحكم وسياسة المال، يجعل تصور المسلمين للحياة الإسلامية ضعيفاً، ويجعل تصور غير المؤمنين بالإسلام للحياة الإسلامية تصوراً عكسياً، لا سيما وقد عاش المسلمون مدة يساء فيها تطبيق الإسلام عليهم من قبل الحكام، كما عاشوا منذ القضاء على الخلافة حتى اليوم يحكمون من قبل عدوهم على نظام يناقض الإسلام في كل شيء، وفي سياسة الحكم وسياسة المال بوجه خاص، ولهذا كان لا بد من أن يرتفع الناس عن الواقع السيئ الذي يعيشون فيه، وأن يتصوروا الحياة التي يجب أن يحيوها، والتي يجب أن يغيروا واقعهم ويحولوه إليها. وكان لا بد أن يتصوروا أن هذا التحول إلى الحياة الإسلامية لا بد أن يكون تحولاً كاملاً غير مجزأ، وأن تطبيق الإسلام لا بد أن يكون انقلابياً (أي دفعة واحدة) لا تدريجياً بالتجزئة والترقيع، حتى يقرب إليهم تصور واقع الحياة يوم كان عز الإسلام.

٧ ــ وجود حكومات في البلاد الإسلامية تقوم على أساس ديمقراطي، وتطبق النظام الرأسمالي كله على الشعب، وترتبط بالدول الغربية ارتباطاً سياسياً وتقوم على الإقليمية والتجزئة. وهذا يجعل العمل لاستئناف الحياة الإسلامية صعباً، لأنه لا يتأتى إلا إذا كان شاملاً، لأن الإسلام لا يبيح جعل البلاد الإسلامية دولاً، بل يلزم جعلها دولة واحدة. وهذا يقتضي

شمول الدعوة وشمول العمل وشمول التطبيق، وهو يتعرض لمقاومة هذه الحكومات للدعوة الإسلامية ولو كان رجالها من المسلمين، ولهذا كان لا بد من حمل الدعوة الإسلامية في كل إقليم، ولو أدى إلى تحمل الصعوبات والمشقات التي تنشأ عن معارضة الحكومات في البلاد الإسلامية.

٨ ـ وجود رأي عام عن الوطنية والقومية والاشتراكية، وقيام حركات سياسية على الأساس الوطني والقومي والاشتراكي. وذلك أن استيلاء الغرب على بلاد الإسلام، وتسلمه زمام الحكم فيها وتطبيقه النظام الرأسمالي عليها أثار في النفوس الميل للدفاع عن النفس، فنتجت عنها العاطفة الوطنية للدفاع عن الأراضي التي يعيش الناس عليها، وأثار العصبية العنصرية للدفاع عن النفس وعن العائلة وعن القوم والعمل لجعل الحكم لهم، فنشأت عن ذلك حركات سياسية باسم الوطنية لطرد العدو من البلاد، وباسم القومية لجعل الحكم عليها لأهلها. ثم تبين للناس فساد النظام الرأسمالي وعدم صلاحيته، وانتشرت بينهم دعاوة للاشتراكية فقامت تكتلات باسم الاشتراكية لترقيع الرأسمالية ولم يكن لهذه الحركات أي تصور لنظام الحياة إلا التصور الارتجالي مما أبعدهم عن المبدأ وأبعدهم عن الإسلام بوصفه مبدأً عالمياً.

كيف تقوم الدولة الإسلامية

إن قوة الفكرة الإسلامية مقرونة بطريقتها كافية لإقامة دولة إسلامية، ولاستئناف الحياة الإسلامية، إذا غرست هذه الفكرة في القلوب، وتغلغلت في النفوس، وتجسدت في المسلمين، فأصبحت إسلاماً حياً يعمل في الحياة. إلا أنه بالرغم من ذلك، لا بد من أن تتم أعمال عظيمة قبل قيام الدولة، وأن تبذل جهود جبارة لاستئناف الحياة الإسلامية. ولذلك لا يكفي مجرد الرغبة والتفاؤل ليجعل هذه الدولة قائمة. ولا مجرد الحماسة والأمل ليحقق استئناف الحياة الإسلامية. فكان من أوجب الواجبات أن تقدر العوائق الضخمة التي تقف في وجه الإسلام حق التقدير، للتمكن من إزالتها، وكان من ألزم الأشياء أن ينبه المسلمون إلى ثقل التبعة التي تنتظر من ينهضون لهذه الغاية، وأن يلفت نظر المفكرين بوجه خاص إلى المسؤولية الكبرى لكل رأي يعطى في مثل هذا الأمر المهم، حتى يكون القول والعمل سائراً في طريقة السوي بوعي وإرادة وحزم وإقدام، ولا بد أن يعلم أن السائرين في طريق استئناف الحياة الإسلامية إنما ينحتون طريقهم في الصخر الأصم، ولكن معاولهم مرهفة ضخمة كفيلة بتكسير صخوره، وأنهم يعالجون أمراً دقيقاً. ولكن رفقهم كفيل بحسن معالجته، وأنهم يصطدمون بالأحداث الكبار، ولكنهم سيتغلبون عليها، ولا يحيدون عن طريقتهم، لأنها الطريقة التي سار عليها رسول الله ﷺ، وسلوكها سلوكاً صحيحاً يجعل النتائج قطعية لا ريب فيها، والنصر محققاً لا شك فيه. وهذه الطريقة هي التي يجب أن يسلكها

المسلمون اليوم سلوكاً دقيقاً، على أن يكون الاقتداء بالرسول ﷺ دقيقاً، والسير صحيحاً حسب خطواته، حتى لا يتعثر السائر، لأن كل خطأ في القياس، وكل حيد عن الطريق، يسبب التعثر بالسير والعقم في العمل. ولهذا لم يكن قيام مؤتمرات للخلافة طريقاً لقيام الدولة الإسلامية، ولا السعي لاتحاد دول تحكم شعوباً إسلامية وسيلة للدولة الإسلامية، ولا عقد مؤتمرات للشعوب الإسلامية محققاً استئناف حياة إسلامية، ليس ذلك ومثله هو الطريق، وإنما هو أُلهيات تُنَفّسُ فيها عواطف المسلمين فتفرّغ مخزون حماستها وتقعد بعد ذلك عن العمل، فضلاً عن أنها تخالف طريقة الإسلام. بل الطريق الوحيد لإقامة الدولة الإسلامية، هو حمل الدعوة الإسلامية، والعمل لاستئناف الحياة الإسلامية، وذلك يقتضي أن تتخذ البلاد الإسلامية وحدة واحدة، لأن المسلمين أمة واحدة، إذ هي مجموعة إنسانية تجمعها عقيدة واحدة، ينبثق عنها نظامها. ولذلك كان حدوث أي عمل في أي قطر إسلامي يؤثر في باقي الأقطار. ويثير فيها المشاعر والأفكار، فكان لا بد أن تتخذ جميع البلاد الإسلامية بلداً واحداً وتحمل الدعوة لها جميعها، حتى تؤثر في مجتمعها. وذلك لأن المجتمع الواحد الذي يشكل أمة يكون كالماء في القدر فإنك إذا وضعت تحته ناراً سخن الماء ثم وصل إلى درجة الغليان، ثم تحول هذا الغليان إلى بخار يدفع، ويحدث الحركة والاندفاع، وكذلك المجتمع يوضع فيه المبدأ الإسلامي. فتحدث حرارته فيه سخونة، ثم غلياناً، ثم يتحول هذا الغليان إلى ما يدفع المجتمع إلى الحركة والعمل، ولهذا كان لا بد من أن تبعث الدعوة إلى العالم الإسلامي، ليعمل لاستئناف الحياة الإسلامية، وذلك بالكتب والرسائل والاتصالات وجميع وسائل الدعوة، ولا سيما الاتصالات، لأنها أنجح طرق الدعوة، إلا أن بعث الدعوة بهذا الشكل

المفتوح إنما هو للوقود في المجتمع، حتى يتحول هذا الجمود الذي فيه إلى حرارة. ولا يمكن أن يتحول إلى غليان ثم إلى حركة إلا إذا كانت الدعوة العملية في توجيهها السياسي محصورة العمل في إقليم أو أقاليم يبدأ منها العمل، ثم تنطلق منها الدعوة إلى باقي أجزاء العالم الإسلامي، ثم يتخذ هذا الإقليم أو عدة أقاليم نقطة إرتكاز تقوم فيها الدولة الإسلامية، ويبدأ منها النمو في تكوين الدولة الإسلامية الكبرى، التي تحمل رسالة الإسلام للعالم وهذا كما فعل ﷺ، فإنه بلغ دعوته للناس كافة. وكانت خطوات التبليغ تسير في الطريق العملي. فقد دعا أهل مكة ودعا العرب جميعاً في موسم الحج، فكانت دعوته تنتشر في جميع أنحاء الجزيرة، وكأنه كان يوقد تحت المجتمع في الجزيرة العربية وقوداً يبعث الحرارة في جميع العرب، وكان الإسلام يدعى إليه العرب من قبل الرسول ﷺ بالاتصال بهم ودعوتهم في موسم الحج، وفي الذهاب إلى القبائل في منازلهم ودعوتهم للإسلام، كما أن الدعوة كانت تصل إلى سائر العرب بالاحتكاك الذي كان بين الرسول ﷺ وقريش حيث كانت أصداء هذا التصادم تملأ أسماع العرب، وتثير فيهم حب الاستطلاع والتساؤل، إلا أنه مع إرسال الدعوة إلى العرب، كان مجال الدعوة محصوراً في مكة، ثم امتد إلى المدينة حيث تكونت الدولة الإسلامية في الحجاز. وحينئذٍ كانت حرارة الدعوة، وانتصار الرسول ﷺ قد أحدثا في العرب الغليان ثم الحركة فآمنوا جميعاً، حتى شملت دولة الإسلام جميع جزيرة العرب وحملت رسالته للعالم. ولهذا كان لزاماً علينا أن نتخذ حمل الدعوة الإسلامية والعمل لاستئناف الحياة الإسلامية طريقة لإقامة الدولة الإسلامية، وكان لزاماً علينا أن نتخذ جميع البلاد الإسلامية مجتمعاً واحداً وهدفاً للدعوة إلا أنه يجب أن نحصر مجال العمل في إقليم أو أقاليم نقوم فيها

بتثقيف الناس بالإسلام حتى يحيا فيهم ويحيوا به ومن أجله، ونقوم فيها بـإيجاد الوعي العام عليه والرأي العام له، حتى يحصل التجاوب بين حَمَلَة الدعوة والمجتمع تجاوباً منتجاً فعالاً مؤثراً في تحويل الدعوة إلى تفاعل وإنتاج، هذا التفاعل هو حركة كفاح تستهدف إيجاد الدولة الإسلامية المنبثقة عن الأمة في هذا الإقليم أو تلك الأقاليم. وحينئذٍ تكون الدعوة قد سارت من فكرة في الذهن إلى وجود في المجتمع، ومن حركة شعبية إلى دولة. فتكون قد اجتازت أدوارها فانتقلت من نقطة ابتداء إلى نقطة انطلاق، ثم إلى نقطة ارتكاز تتمركز في الدولة المستكملة عناصر الدولة وقوة الدعوة. وحينئذٍ يبدأ الدور العملي الذي يوجبه الشرع على هذه الدولة ويوجبه الشرع على المسلمين الذين يعيشون في أقاليم لا يشملها سلطان هذه الدولة. أما واجب هذه الدولة فهو الحكم بما أنزل الله حكماً كاملاً، ثم جعل توحيد باقي الأقاليم معها أو توحيدها مع باقي الأقاليم جزءاً من السياسة الداخلية، فتباشر في حمل الدعوة والدعاوة لاستئناف الحياة الإسلامية في جميع الأقاليم الإسلامية، ولا سيما الأقاليم المجاورة لها. ثم ترفع الحدود السياسية الوهمية التي خططها الاستعمار بينها. وجعل حكام البلاد التابعين له حراساً على هذه الحدود السياسية. ولذلك كان لزاماً على هذه الدولة أن تلغي هذه الحدود حتى ولو لم يلغها الإقليم المجاور فتلغي تأشيرات المرور، ومراكز ضرائب (الجمارك) وتفتح أبوابها لسكان الأقاليم الإسلامية، وبهذا تجعل جميع الذين يسكنون في الأقاليم الإسلامية يشعرون بأن هذه الدولة إسلامية، ويرون بأنفسهم تطبيق الإسلام وتنفيذه. أما واجب المسلمين فهو أن يعملوا لأن تصبح دارهم التي لا يطبق فيها الإسلام، والتي تعتبر دار كفر، دارَ إسلام، بالعمل على دمجها في الدولة الإسلامية بالدعوة والدعاوة، وبهذا

يصبح المجتمع في العالم الإسلامي في جميع أقاليمه في حالة غليان تدفعه إلى الحركة الصحيحة التي بها يتحد المسلمون جميعهم في دولة واحدة، وبذلك توجد الدولة الإسلامية الكبرى، وبهذا تتكون الدولة الإسلامية التي تمثل قيادة فكرية عالمية، ويكون لها خطرها ومركزها الذي يمكنها من حمل دعوتها، ومن العمل على إنقاذ العالم من الشرور.

وإذا كانت الأمة الإسلامية قديماً في بلاد لا تعدو جزيرة العرب ولا يزيد عددها عن بضعة ملايين ومع ذلك فإنها حين اعتنقت الإسلام وحملت الدعوة شكلت قوة عالمية أمام المعسكرين اللذين كانا قائمين حينئذٍ وضربتهما معاً واستولت على بلادهما ونشرت الإسلام في أكثر أجزاء المعمورة في ذلك الوقت. فما بالنا في الأمة الإسلامية اليوم وهي تقارب ربع سكان العالم، وتقع في بلاد متصلة ببعضها تكون بلداً واحداً، وهي من مراكش إلى الهند وأندونيسيا، وهي تحتل بقعة من أحسن بقاع الأرض ثروة ومركزاً وتحمل مبدأ هو وحده المبدأ الصحيح، فإنها ولا ريب تشكل جبهة أقوى من الدول العظمى في كل شيء، ولهذا كان واجب كل مسلم أن يعمل منذ الآن لإيجاد الدولة الإسلامية الكبرى التي تحمل رسالة الإسلام للعالم، وأن يبدأ عمله هذا بحمل الدعوة الإسلامية والعمل لاستئناف حياة إسلامية في جميع البلاد الإسلامية، حاصراً مجاله العملي في إقليم أو عدة أقاليم، لتكون نقطة ارتكاز، حتى يبدأ العمل الجدي. ومثل هذه الغاية العظيمة التي يجب أن يهدف إليها المسلم، سالكاً هذا الطريق العملي الواضح الذي يجب أن يسلك، جدير به أن يتحمل في سبيلها كل مشقة، وأن يبذل لها كل جهد، وأن يسير متوكلاً على الله، غير طالب أي جزاء على ذلك سوى نوال رضوان الله سبحانه وتعالى.

مشـروع الدسـتور

أحـكام عامّـة

المادة ١ ــ العقيدة الإسلامية هي أساس الدولة، بحيث لا يتأتى وجود شيء في كيانها أو جهازها أو محاسبتها أو كل ما يتعلق بها، إلا بجعل العقيدة الإسلامية أساساً له. وهي في الوقت نفسه أساس الدستور والقوانين الشرعية بحيث لا يُسمح بوجود شيء مما له علاقة بأي منهما إلا إذا كان منبثقاً عن العقيدة الإسلامية.

المادة ٢ ــ دار الإسلام هي البلاد التي تطبق فيها أحكام الإسلام، ويكون أمانها بأمان الإسلام، ودار الكفر هي التي تطبق أنظمة الكفر، أو يكون أمانها بغير أمان الإسلام.

المادة ٣ ــ يتبنّى الخليفة أحكاماً شرعية معينة يسنها دستوراً وقوانين، وإذا تبنى حكماً شـرعياً في ذلك، صار هذا الحكم وحده هو الحكم الشرعي الواجب العمل به، وأصبح حينئذٍ قانوناً نافذاً وجبت طاعته على كل فرد من الرعية ظاهراً وباطناً.

المادة ٤ ــ لا يتبنّى الخليفة أي حكم شرعي معين في العبادات ما عدا الزكاة والجهاد، ولا يتبنّى أي فكر من الأفكار المتعلقة بالعقيدة الإسلامية.

المادة ٥ ــ جميع الذين يحملون التابعية الإسلامية يتمتعون بالحقوق والواجبات الشرعية.

المادة ٦ ــ لا يجوز للدولة أن يكون لديها أي تمييز بين أفراد الرعية في ناحية الحكم أو القضاء أو رعاية الشؤون أو ما شاكل ذلك، بل يجب أن تنظر للجميع نظرة واحدة بغض النظر عن العنصر أو الدين أو اللون أو غير ذلك.

المادة ٧ ــ تنفذ الدولة الشرع الإسلامي على جميع الذين يحملون التابعية الإسلامية سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين على الوجه التالي:

أ ــ تنفذ على المسلمين جميع أحكام الإسلام دون أي استثناء.

ب ــ يُترك غير المسلمين وما يعتقدون وما يعبدون ضمن النظام العام.

ج ــ المرتدون عن الإسلام يطبق عليهم حكم المرتد إن كانوا هم المرتدين، أما إذا كانوا أولاد مرتدين وولدوا غير مسلمين فيعاملون معاملة غير المسلمين حسب وضعهم الذي هم عليه من كونهم، مشركين أو أهل كتاب.

د ــ يعامل غير المسلمين في أمور المطعومات والملبوسات حسب أديانهم ضمن ما تجيزه الأحكام الشرعية.

هـ ــ تفصل أمور الزواج والطلاق بين غير المسلمين حسب أديانهم، وتفصل بينهم وبين المسلمين حسب أحكام الإسلام.

و ــ تنفذ الدولة باقي الأحكام الشرعية وسائر أمور الشريعة الإسلامية من معاملات وعقوبات وبينات ونظم حكم واقتصاد وغير ذلك على الجميع ويكون تنفيذها على المسلمين وعلى غير المسلمين على السواء،

وتنفذ كذلك على المعاهدين والمستأمنين وكل من هو تحت سلطان الإسلام كما تنفذ على أفراد الرعية إلا السفراء والقناصل والرسل ومن شاكلهم. فإن لهم الحصانة الدبلوماسية.

المادة ٨ ــ اللغة العربية هي وحدها لغة الإسلام وهي وحدها اللغة التي تستعملها الدولة.

المادة ٩ ــ الاجتهاد فرض كفاية، ولكل مسلم الحق بالاجتهاد إذا توفرت فيه شروطه.

المادة ١٠ ــ جميع المسلمين يحملون مسؤولية الإسلام، فلا رجال دين في الإسلام، وعلى الدولة أن تمنع كل ما يشعر بوجودهم من المسلمين.

المادة ١١ ــ حمل الدعوة الإسلامية هو العمل الأصلي للدولة.

المادة ١٢ ــ الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقياس هي وحدها الأدلة المعتبرة للأحكام الشرعية.

المادة ١٣ ــ الأصل براءة الذمة، ولا يعاقب أحد إلا بحكم محكمة، ولا يجوز تعذيب أحد مطلقاً، وكل من يفعل ذلك يعاقب.

المادة ١٤ ــ الأصل في الأفعال التقيد بالحكم الشرعي فلا يقام بفعل إلا بعد معرفة حكمه، والأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد دليل التحريم.

المادة ١٥ ــ الوسيلة إلى الحرام محرمة إذا غلب على الظن أنها توصل إلى الحرام، فإن كان يُخشى أن توصل فلا تكون حراماً.

نظـام الحـكم

المادة ١٦ ــ نظام الحكم هو نظام وحدة وليس نظاماً اتحادياً.

المادة ١٧ ــ يكون الحكم مركزياً والإدارة لا مركزية.

المادة ١٨ ــ الحكام أربعة هم: الخليفة، ومعاون التفويض، والوالي، والعامل. ومن عداهم لا يعتبرون حكاماً، وإنما هم موظفون.

المادة ١٩ ــ لا يجـوز أن يتولى الحكم أو أي عمل يعتبر من الحكم إلا رجـل حـرّ، بالغ، عاقل، عدل، قادر من أهل الكفاية، ولا يجوز أن يكون إلا مسلماً.

المادة ٢٠ ــ محاسبة الحكام من قبل المسلمين حق من حقوقهم وفرض كفاية عليهم. ولغير المسلمين من أفراد الرعية الحق في إظهار الشكوى من ظلم الحاكم لهم، أو إساءة تطبيق أحكام الإسلام عليهم.

المادة ٢١ ــ للمـسـلمين الحق في إقامة أحزاب سياسية لمحاسبة الحكام، أو الوصـول للحـكم عن طـريق الأمـة على شـرط أن يكون أسـاسـها العقيدة الإسـلامية، وأن تكون الأحكام التي تتبناها أحكاماً شـرعية. ولا يحتاج إنشاء الحزب لأي ترخيص ويمنع أي تكتل يقوم على غير أساس الإسلام.

المادة ٢٢ ــ يقوم نظام الحكم على أربع قواعد هي:

١ ــ السيادة للشرع لا للشعب.

٢ ــ السلطان للأمة.

٣ ــ نصب خليفة واحد فرض على المسلمين.

٤ ــ للخليفة وحده حق تبني الأحكام الشرعية فهو الذي يسن الدستور وسائر القوانين.

المادة ٢٣ ــ تقوم الدولة على ثمانية أجهزة وهي:

١ ــ الخليفة.

٢ ــ معاون التفويض.

٣ ــ معاون التنفيذ.

٤ ــ أمير الجهاد.

٥ ــ الولاة.

٦ ــ القضاء.

٧ ــ مصالح الدولة.

٨ ــ مجلس الأمة.

الخليفة

المادة ٢٤ ــ الخليفة هو الذي ينوب عن الأمة في السلطان وفي تنفيذ الشرع.

المادة ٢٥ ــ الخلافة عقد مراضاة واختيار، فلا يجبر أحد على قبولها، ولا يجبر أحد على اختيار من يتولاها.

المادة ٢٦ ــ لكل مسلم بالغ عاقل رجلاً كان أو امرأة الحق في انتخاب الخليفة وفي بيعته، ولا حق لغير المسلمين في ذلك.

المادة ٢٧ ــ إذا تم عقد الخلافة لواحد بمبايعة من يتم انعقاد البيعة بهم تكون حينئذٍ بيعة الباقين بيعة طاعة لا بيعة انعقاد فيجبر عليها كل من يلمح فيه إمكانية التمرد وشقّ عصا المسلمين.

المادة ٢٨ ــ لا يكون أحد خليفة إلا إذا ولاه المسلمون. ولا يملك أحد صلاحيات الخلافة إلا إذا تم عقدها له على الوجه الشرعي كأي عقد من العقود في الإسلام.

المادة ٢٩ ــ يشترط في القطر أو البلاد التي تبايع الخليفة بيعة انعقاد أن يكون سلطانها ذاتياً يستند إلى المسلمين وحدهم لا إلى أية دولة كافرة، وأن يكون أمان المسلمين في ذلك القطر داخلياً وخارجياً بأمان الإسلام لا بأمان الكفر. أما بيعة الطاعة فحسب من البلاد الأخرى فلا يشترط فيها ذلك.

المادة ٣٠ ــ لا يشترط فيمن يُبايَع للخلافة إلاّ أن يكون مستكملاً شروط الانعقاد ليس غير، وإن لم يكن مستوفياً شروط الأفضلية، لأن العبرة بشروط الانعقاد.

المادة ٣١ ــ يشترط في الخليفة حتى تنعقد له الخلافة سبعة شروط وهي أن يكون رجلاً مسلماً حراً بالغاً، عاقلاً، عدلاً، قادراً من أهل الكفاية.

المادة ٣٢ ــ إذا خلا منصب الخلافة بموت الخليفة أو اعتزاله، أو عزله، يجب نصب خليفة مكانه خلال ثلاثة أيام بلياليها من تاريخ خلو منصب الخلافة.

المادة ٣٣ ــ طريقة نصب الخليفة هي:

أ ــ يُجري الأعضاء المسلمون في مجلس الأمة حصر المرشحين لهذا المنصب وتعلن أسماؤهم ثم يطلب من المسلمين انتخاب واحد منهم.

ب ــ تعلن نتيجة الانتخاب ويعرف المسلمون من نال أكثر أصوات المنتخبين.

ج ــ يبادر المسلمون بمبايعة من نال أكثر الأصوات خليفة للمسلمين على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

د ــ بعد تمام البيعة يعلن من أصبح خليفة للمسلمين للملأ حتى يبلغ خبر نصبه الأمة كافة، مع ذكر اسمه وكونه يجوز الصفات التي تجعله أهلاً لانعقاد الخلافة له.

المادة ٣٤ ــ الأمة هي التي تنصب الخليفة ولكنها لا تملك عزله متى تم انعقاد بيعته على الوجه الشرعي.

المادة ٣٥ ــ الخليفة هو الدولة، فهو يملك جميع الصلاحيات التي تكون للدولة، فيملك الصلاحيات التالية:

أ ــ هو الذي يجعل الأحكام الشرعية حين يتبناها نافذة فتصبح حينئذٍ قوانين تجب طاعتها، ولا تجوز مخالفتها.

ب ــ هو المسؤول عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية معاً، وهو الذي يتولى قيادة الجيش، وله حق إعلان الحرب، وعقد الصلح والهدنة وسائر المعاهدات.

ج ــ هو الذي له قبول السفراء الأجانب ورفضهم، وتعيين السفراء المسلمين وعزلهم.

د ــ هو الذي يعين ويعزل المعاونين والولاة، وهم جميعاً مسؤولون أمامه كما أنهم مسؤولون أمام مجلس الأمة.

هـ ــ هو الذي يعين ويعزل قاضي القضاة، ومديري الدوائر، وقواد الجيش، وأمراء ألويته، وهم جميعاً مسؤولون أمامه وليسوا مسؤولين أمام مجلس الأمة.

و ــ هو الذي يتبنّى الأحكام الشرعية التي توضع بموجبها ميزانية الدولة، وهو الذي يقرر فصول الميزانية والمبالغ التي تلزم لكل جهة سواء أكان ذلك متعلقاً بالواردات أم بالنفقات.

المادة ٣٦ ــ الخليفة مقيد في التبني بالأحكام الشرعية فيحرم عليه أن يتبنى حكماً لم يستنبط استنباطاً صحيحاً من الأدلة الشرعية، وهو مقيد بما تبناه من أحكام، وبما التزمه من طريقة استنباط، فلا يجوز له أن يتبنّى حكماً استنبط حسب طريقة تناقض الطريقة التي تبناها، ولا أن يعطي أمراً يناقض الأحكام التي تبناها.

المادة ٣٧ ــ للخليفة مطلق الصلاحية في رعاية شؤون الرعية حسب رأيه واجتهاده. فله أن يتبنّى من المباحات كل ما يحتاج إليه لتسيير شؤون الدولة، ورعاية شؤون الرعية، ولا يجوز له أن يخالف أي حكم شرعي بحجة المصلحة، فلا يمنع الأسرة الواحدة من إنجاب أكثر من ولد واحد بحجة قلة المواد الغذائية مثلاً، ولا يسعّر على الناس بحجة منع الاستغلال مثلاً، ولا يعيّن كافراً أو امرأة والياً بحجة رعاية الشؤون أو المصلحة، ولا غير ذلك مما يخالف أحكام الشرع، فلا يجوز أن يحرّم حلالاً ولا أن يحل حراماً.

المادة ٣٨ ــ ليس للخليفة مدة محدودة، فما دام الخليفة محافظاً على الشرع منفذاً لأحكامه، قادراً على القيام بشؤون الدولة، يبقى خليفة ما لم تتغير حاله تغيراً يخرجه عن كونه خليفة، فإذا تغيرت حاله هذا التغيّر وجب عزله في الحال.

المادة ٣٩ ــ الأمور التي يتغير بها حال الخليفة فيخرج بها عن الخلافة ثلاثة أمور هي:

أ ــ **إذا اختل شرط من شروط انعقاد الخلافة كأن ارتد، أو فسق فسقاً ظاهراً، أو جن، أو ما شاكل ذلك. لأن هذه الشروط شروط انعقاد، وشروط استمرار.**

ب ــ العجز عن القيام بأعباء الخلافة لأي سبب من الأسباب.

ج ــ القهر الذي يجعله عاجزاً عن التصرف بمصالح المسلمين برأيه وَفْقَ الشرع. فإذا قهره قاهر إلى حد أصبح فيه عاجزاً عن رعاية مصالح الرعية برأيه وحده حسب أحكام الشرع يعتبر عاجزاً حكماً عن القيام بأعباء الدولة فيخرج بذلك عن كونه خليفة. وهذا يتصور في حالتين:

الحالة الأولى: أن يتسلط عليه فرد واحد أو عدة أفراد من حاشيته فيستبدون بتنفيذ الأمور. فإن كان مأمول الخلاص من تسلطهم ينذر مدة معينة، ثم إنْ لم يرفع تسلطهم يخلع. وإن لم يكن مأمول الخلاص يخلع في الحال.

الحالة الثانية: أن يصير مأسوراً في يد عدو قاهر، إمّا بأسره بالفعل أو بوقوعه تحت تسلط عدوه، وفي هذه الحال ينظر فإن كان مأمول الخلاص يمهل حتى يقع اليأس من خلاصه، فإن يئس من خلاصه يخلع، وإن لم يكن مأمول الخلاص يخلع في الحال.

المادة ٤٠ ــ محكمة المظالم وحدها هي التي تقرر ما إذا كانت قد تغيرت حال الخليفة تغيراً يخرجه عن الخلافة أم لا، وهي وحدها التي لها صلاحية عزله أو إنذاره.

معـاون التفـويض

المادة ٤١ ــ يعين الخليفة معاون تفويض له يتحمل مسؤولية الحكم، فيفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده.

المادة ٤٢ ــ يشترط في معاون التفويض ما يشترط في الخليفة، أي أن يكون رجلاً حراً، مسلماً، بالغاً، عاقلاً، عدلاً، قادراً من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أعمال.

المادة ٤٣ ــ يشترط في تقليد معاون التفويض أن يشتمل تقليده على أمرين أحدهما عموم النظر، والثاني النيابة. ولذلك يجب أن يقول له الخليفة قلدتك ما هو إليّ نيابة عني، أو ما في هذا المعنى من الألفاظ التي تشتمل على عموم النظر والنيابة. فإن لم يكن التقليد على هذا الوجه لا يكـون معـاوناً، ولا يملك صـلاحيات معاون التفويض إلا إذا كان تقليده على هذا الوجه.

المادة ٤٤ ــ على معاون التفويض أن يطالع الخليفة بما أمضاه من تدبير، وأنفذه من ولاية وتقليد، حتى لا يصير في صلاحياته كالخليفة وعليه أن يرفع مطالعته، وأن ينفذ ما يؤمر بتنفيذه.

المادة ٤٥ ــ يجب على الخليفة أن يتصفح أعمال معاون التفويض وتدبيره للأمور، ليقر منها الموافق للصواب، ويستدرك الخطأ. لأن تدبير شؤون الأمة موكول للخليفة ومحمول على اجتهاده هو.

المادة ٤٦ ــ إذا دبر معاون التفويض أمراً وأقره الخليفة فإن عليه أن

ينفذه كما أقره الخليفة ليس بزيادة ولا نقصان. فإن عاد الخليفة وعارض المعاون في رد ما أمضاه ينظر، فإن كان في حكم نفذه على وجهه، أو مال وضعه في حقه، فرأي المعاون هو النافذ، لأنه بالأصل رأي الخليفة وليس للخليفة أن يستدرك ما نفذ من أحكام، وأنفق من أموال. وإن كان ما أمضاه المعاون في غير ذلك مثل تقليد والٍ أو تجهيز جيش جاز للخليفة معارضة المعاون وينفذ رأي الخليفة، ويلغى عمل المعاون، لأن للخليفة الحق في أن يستدرك ذلك من فعل نفسه فله أن يستدركه من فعل معاونه.

المادة ٤٧ ــ لا يخصص معاون التفويض بدائرة من الدوائر أو بقسم خاص من الأعمال لأن ولايته عامة وكذلك لا يباشر الأمور الإدارية، ويكون إشرافه عاماً على الجهاز الإداري.

معـاون التنفـيذ

المادة ٤٨ ــ يعين الخليفة معاوناً للتنفيذ، وعمله من الأعمال الإدارية، وليس من الحكم ودائرته هي جهاز لتنفيذ ما يصدر عن الخليفة للجهات الداخلية والخارجية، ولرفع ما يرد إليه من هذه الجهات، فهي واسطة بين الخليفة وغيره، تؤدي عنه، وتؤدي إليه.

المادة ٤٩ ــ يكون معاون التنفيذ رجلاً مسلماً لأنه من بطانة الخليفة.

المادة ٥٠ ــ يكـون معـاون التـنـفـيـذ متـصـلاً مباشرة مع الخليفة، كمعاون التفويض، ويعتبر معاوناً ولكن في التنفيذ وليس في الحكم.

أمـير الجهـاد

المادة ٥١ ـ تتألف دائرة أمير الجهاد من أربع دوائر هي: الخارجية، والحربية، والأمن الداخلي، والصناعة، ويشرف عليها ويديرها أمير الجهاد.

المادة ٥٢ ـ تتولى دائرة الخارجية الشؤون الخارجية التي تتعلق بعلاقة الدولة بالدول الأجنبية مهما كانت هذه الشؤون.

المادة ٥٣ ـ تتولى دائرة الحربية جميع الشؤون المتعلقة بالقوات المسلحة من جيش وشرطة ومعدات ومهمات وعتاد وما شاكل ذلك. ومن كليات عسكرية، وبعثات عسكرية، وكل ما يلزم من الثقافة الإسلامية، والثقافة العامة للجيش، وكل ما يتعلق بالحرب والإعداد لها.

المادة ٥٤ ـ دائرة الأمن الداخلي هي الدائرة التي تتولى إدارة كل ما له مساس بالأمن وتتولى حفظ الأمن في البلاد بوساطة القوات المسلحة وتتخذ الشرطة الوسيلة الرئيسية لحفظ الأمن.

المادة ٥٥ ـ دائرة الصناعة هي الدائرة التي تتولى جميع الشؤون المتعلقة بالصناعة سواء أكانت صناعة ثقيلة كصناعة المحركات والآلات، وصناعة هياكل المركبات، وصناعة المواد والصناعات الإلكترونية، أم كانت صناعة خفيفة، وسواء أكانت المصانع هي من نوع الملكية العامة، أم من المصانع التي تدخل في الملكية الفردية ولها علاقة بالصناعة الحربية، والمصانع بأنواعها يجب أن تقام على أساس السياسة الحربية.

الجيـش

المادة ٥٦ ـ الجهاد فرض على المسلمين، والتدريب على الجندية إجباري فكل رجل مسلم يبلغ الخامسة عشرة من عمره فرض عليه أن يتدرب على الجندية استعداداً للجهاد، وأما التجنيد فهو فرض على الكفاية.

المادة ٥٧ ـ الجيش قسمان قسم احتياطي، وهم جميع القادرين على حمل السلاح من المسلمين. وقسم دائم في الجندية تخصص لهم رواتب في ميزانية الدولة كالموظفين.

المادة ٥٨ ـ القوى المسلحة قوة واحدة هي الجيش، وتختار منها فرق خاصة تنظم تنظيماً خاصاً وتعطى ثقافة معينة هي الشرطة.

المادة ٥٩ ـ يعهد إلى الشرطة بحفظ النظام، والإشراف على الأمن الداخلي والقيام بجميع النواحي التنفيذية.

المادة ٦٠ ـ تجعل للجيش ألوية ورايات والخليفة هو الذي يعقد اللواء لمن يوليه على الجيش، أما الرايات فيقدمها رؤساء الألوية.

المادة ٦١ ـ الخليفة هو قائد الجيش، وهو الذي يعين رئيس الأركان، وهو الذي يعين لكل لواء أميراً ولكل فرقة قائداً. أما باقي رتب الجيش فيعينهم قواده وأمراء ألويته. وأما تعيين الشخص في الأركان فيكون حسب درجة ثقافته الحربية ويعينه رئيس الأركان.

المادة ٦٢ ـ يجعل الجيش كله جيشاً واحداً يوضع في معسكرات

خاصة، إلا أنه يجب أن توضع بعض هذه المعسكرات في مختلف الولايات، وبعضها في الأمكنة الاستراتيجية، ويجعل بعضها معسكرات متنقلة تنقلاً دائمياً، تكون قوات ضاربة. وتنظم هذه المعسكرات في مجموعات متعددة يطلق على كل مجموعة منها اسم جيش ويوضع لها رقم فيقال الجيش الأول، الجيش الثالث مثلاً، أو تسمى باسم ولاية من الولايات أو عمالة من العمالات.

المادة ٦٣ ـ يجب أن يوفر للجيش التعليم العسكري العالي على أرفع مستوى، وأن يرفع المستوى الفكري لديه بقدر المستطاع، وأن يثقف كل شخص في الجيش ثقافة إسلامية تمكنه من الوعي على الإسلام ولو بشكل إجمالي.

المادة ٦٤ ـ يجب أن يكون في كل معسكر عدد كاف من الأركان الذين لديهم المعرفة العسكرية العالية والخبرة في رسم الخطط وتوجيه المعارك، وأن يوفر في الجيش بشكل عام هؤلاء الأركان بأوفر عدد مستطاع.

المادة ٦٥ ـ يجب أن تتوفر لدى الجيش الأسلحة والمعدات والتجهيزات واللوازم والمهمات التي تمكنه من القيام بمهمته بوصفه جيشاً إسلامياً.

القضاء

المادة ٦٦ ـ القضاء هو الإخبار بالحكم على سبيل الإلزام، وهو يفصل الخصومات بين الناس، أو يمنع ما يضر حق الجماعة، أو يرفع النزاع

الواقع بين الناس وأي شخص ممن هو في جهاز الحكم، حكاماً أو موظفين، خليفة أو من دونه.

المادة ٦٧ ـ يعين الخليفة قاضياً للقضاة من الرجال البالغين الأحرار المسلمين العقلاء العدول من أهل الفقه، وتكون له صلاحية تعيين القضاة وتأديبهم وعزلهم ضمن الأنظمة الإدارية، أما باقي موظفي المحاكم فمربوطون بمدير الدائرة التي تتولى إدارة شؤون المحاكم.

المادة ٦٨ ـ القضاة ثلاثة: أحدهم القاضي، وهو الذي يتولى الفصل في الخصومات ما بين الناس في المعاملات والعقوبات. والثاني المحتسب، وهو الذي يتولى الفصل في المخالفات التي تضر حق الجماعة. والثالث قاضي المظالم، وهو الذي يتولى رفع النزاع الواقع بين الناس والدولة.

المادة ٦٩ ـ يشترط فيمن يتولى القضاء أن يكون مسلماً، حراً، بالغاً، عاقلاً، عدلاً، فقيهاً، مدركاً لتنزيل الأحكام على الوقائع. ويشترط فيمن يتولى قضاء المظالم زيادة على هذه الشروط أن يكون رجلاً وأن يكون مجتهداً.

المادة ٧٠ ـ يجوز أن يُقَلَّدَ القاضي والمحتسب تقليداً عاماً في القضاء بجميع القضايا في جميع البلاد، ويجوز أن يُقَلَّدَ تقليداً خاصاً بالمكان وبأنواع القضاء، أما قاضي المظالم فلا يُقَلَّدُ إلا تقليداً عاماً من حيث القضاء، أما من حيث المكان فيجوز أن يُقَلَّدَ في جميع أنحاء البلاد، ويجوز أن يُقَلَّدَ في ناحية من النواحي.

المادة ٧١ ـ لا يجوز أن تتألف المحكمة إلا من قاضٍ واحد له صلاحية الفصل في القضاء، ويجوز أن يكون معه قاضٍ آخر أو أكثر، ولكن ليست لهم صلاحية الحكم وإنما لهم صلاحية

الاستشارة وإعطاء الرأي، ورأيهم غير ملزم له.

المادة ٧٢ ــ لا يجوز أن يقضي القاضي إلا في مجلس قضاء، ولا تُعتَبر البينة واليمين إلا في مجلس القضاء.

المادة ٧٣ ــ يجوز أن تتعدد درجات المحاكم بالنسبة لأنواع القضايا، فيجوز أن يُخَصَّصَ بعض القضاة بأقضية معينة إلى حد معين، وأن يوكل أمر غير هذه القضايا إلى محاكم أخرى.

المادة ٧٤ ــ لا توجد محاكم استئناف، ولا محاكم تمييز، فالقضاء من حيث البت في القضية درجة واحدة، فإذا نطق القاضي بالحكم فحكمه نافذ، ولا ينقضه حكم قاضٍ آخر مطلقاً إلاّ إذا حكم بغير الإسلام، أو خالف نصاً قطعياً في الكتاب أو السنة أو إجماع الصحابة، أو تبين أنه حكم حكماً مخالفاً لحقيقة الواقع.

المادة ٧٥ ــ المحتسب هو القاضي الذي ينظر في كافة القضايا التي هي حقوق عامة لا يوجد فيها مدع، على أن لا تكون داخلة في الحدود والجنايات.

المادة ٧٦ ــ يملك المحتسب الحكم في المخالفة فور العلم بها في أي مكان دون حاجة لمجلس قضاء، ويُجعل تحت يده عدد من الشرطة لتنفيذ أوامره، وينفذ حكمه في الحال.

المادة ٧٧ ــ للمحتسب الحق في أن يختار نواباً عنه تتوفر فيهم شروط المحتسب، يوزعهم في الجهات المختلفة، وتكون لهؤلاء النواب صلاحية القيام بوظيفة الحسبة في المنطقة أو المحلة التي عينت لهم في القضايا التي فوضوا فيها.

المادة ٧٨ ــ قاضي المظالم هو قاض ينصب لرفع كل مَظْلِمَة تحصل

من الدولة على أي شخص يعيش تحت سلطان الدولة، سواء أكان من رعاياها أم من غيرهم، وسواء حصلت هذه المظلمة من الخليفة أو ممن هو دونه من الحكام والموظفين.

المادة ٧٩ ـ يُعيَّن قاضي المظالم من قِبَل الخليفة، أو من قبل قاضي القضاة، أما محاسبته وتأديبه وعزله فيكون من قبل الخليفة أو من قبل محكمة المظالم أو قاضي القضاة إذا أعطاهما الخليفة صلاحية ذلك. إلاّ أنه لا يصح عزله أثناء قيامه بالنظر في مظلِمة على الخليفة، أو معاون التفويض، أو قاضي القضاة.

المادة ٨٠ ـ لا يحصر قاضي المظالم بشخص واحد أو أكثر بل لرئيس الدولة أن يعين عدداً من قضاة المظالم حسب ما يحتاج رفع المظالم مهما بلغ عددهم. ولكن عند مباشرة القضاء لا تكون صلاحية الحكم إلا لقاضٍ واحد ليس غير، ويجوز أن يجلس معه عدد من قضاة المظالم أثناء جلسة القضاء، ولكن تكون لهم صلاحية الاستشارة ليس غير. وهو غير ملزم بالأخذ برأيهم.

المادة ٨١ ـ لمحكمة المظالم حق عزل أي حاكم أو موظف في الدولة، كما لها حق عزل الخليفة.

المادة ٨٢ ـ تملك محكمة المظالم صلاحية النظر في أية مظلمة من المظالم سواء أكانت متعلقة بأشخاص من جهاز الدولة، أم متعلقة بمخالفة الخليفة لأحكام الشرع، أم متعلقة بمعنى نص من نصوص التشريع في الدستور والقانون وسائر الأحكام الشرعية ضمن تبني رئيس الدولة، أم متعلقة بفرض ضريبة من الضرائب، أم غير ذلك.

المادة ٨٣ ـ لا يشترط في قضاء المظالم مجلس قضاء، ولا دعوة المدعى عليه، ولا وجود مدعٍ، بل لها حق النظر في المظلمة ولو لم يدع بها أحد.

المادة ٨٤ ـ لكل إنسان الحق في أن يوكل عنه في الخصومة وفي الدفاع من يشاء سواء أكان مسلماً أم غير مسلم رجلاً كان أو امرأة. ولا فرق في ذلك بين الوكيل والموكِّل. ويجوز للوكيل أن يوكَّل بأجر ويستحق الأجرة على الموكِّل حسب تراضيهما.

المادة ٨٥ ـ يجوز للشخص الذي يملك صلاحيات في أي عمل من الأعمال الخاصة كالوصي والولي، أو الأعمال العامة كالخليفة والحاكم والموظف، وكقاضي المظالم والمحتسب، أن يقيم مقامه في صلاحياته وكيلاً عنه في الخصومة والدفاع فقط باعتبار كونه وصياً أو ولياً أو رئيس دولة أو حاكماً أو موظفاً أو قاضي مظالم أو محتسباً. ولا فرق في ذلك بين أن يكون مدعياً أو مدعى عليه.

الولاة

المادة ٨٦ ـ تقسم البلاد التي تحكمها الدولة إلى وحدات، وتسمى كل وحدة وِلاية، وتقسم كل ولاية إلى وحدات تسمى كل وحدة منها عِمالة، ويسمى كل من يتولى الوِلاية والياً أو أميراً، ويسمى كل من يتولى العِمالة عاملاً أو حاكماً.

المادة ٨٧ ــ يُعَيَّنُ الولاة من قبل الخليفة، ويُعَيَّنُ العمال من قبل الخليفة ومن قبل الولاة إذا فوض إليهم ذلك. ويشترط في الولاة والعمال ما يشترط في المعاونين فلا بد أن يكونوا رجالاً أحراراً مسلمين بالغين عقلاء عدولاً، وأن يكونوا من أهل الكفاية فيما وُكِّل إليهم من أعمال، ويُتَخَيَّرُونَ من أهل التقوى والقوة.

المادة ٨٨ ــ للوالي صلاحية الحكم والإشراف على أعمال الدوائر في ولايته نيابة عن الخليفة، فله جميع الصلاحيات في ولايته عدا المالية والقضاء والجيش، فله الإمارة على أهل ولايته، والنظر في جميع ما يتعلق بها. إلا أن الشرطة توضع تحت إمارته من حيث التنفيذ لا من حيث الإدارة.

المادة ٨٩ ــ لا يجب على الوالي مطالعة الخليفة بما أمضاه في عمله على مقتضى إمارته إلا على وجه الاختيار، فإذا حدث إنشاء جديد غير معهود وقفه على مطالعة الخليفة، ثم عمل بما أمر به. فإن خاف فساد الأمر بالانتظار قام بالأمر واطلع الخليفة وجوباً على الأمر وعلى سبب عدم مطالعته قبل القيام بعمله.

المادة ٩٠ ــ يكون في كل ولاية مجلس منتخب من أهلها يرأسه الوالي وتكون لهذا المجلس صلاحية المشاركة في الرأي في الشؤون الإدارية لا في شؤون الحكم ورأيه غير ملزم للوالي.

المادة ٩١ ــ ينبغي أن لا تطول مدة ولاية الشخص الواحد على الولاية بل يعفى من ولايته عليها كلما رؤي له تركز في البلد، أو افتتن الناس به.

المادة ٩٢ ــ لا يُنْقَلُ الوالي من ولاية إلى ولاية، لأن توليته عامة

النظر محددة المكان، ولكن يُعْفَى ويولى ثانية.

المادة ٩٣ ـ يُعْزَلُ الوالي إذا رأى الخليفة عزله، أو إذا أظهر مجلس الأمة عدم الرضى منه بسبب أو بدون سبب، أو إذا أظهر جمهرة أهل ولايته السخط منه. وعزله إنما يجري من قبل الخليفة.

المادة ٩٤ ـ على الخليفة أن يتحرى أعمال الولاة، وأن يكون شديد المراقبة لهم، وأن يعين من ينوب عنه للكشف عن أحوالهم، والتفتيش عليهم وأن يجمعهم أو قسماً منهم بين الحين والآخر، وأن يصغي إلى شكاوى الرعية منهم.

الجهاز الإداري

المادة ٩٥ ـ إدارة شؤون الدولة ومصالح الناس تتولاها مصالح ودوائر وإدارات، تقوم على النهوض بشؤون الدولة وقضاء مصالح الناس.

المادة ٩٦ ـ سياسة إدارة المصالح والدوائر والإدارات تقوم على البساطة في النظام والإسراع في إنجاز الأعمال، والكفاية فيمن يتولون الإدارة.

المادة ٩٧ ـ لكل من يحمل التابعية، وتتوفر فيه الكفاية رجلاً كان أو امرأة، مسلماً كان أو غير مسلم أن يُعَيَّنَ مديراً لأية مصلحة من المصالح، أو أية إدارة، وأن يكون موظفاً فيها.

المادة ٩٨ ـ يُعَيَّنُ لكل مصلحة مدير عام ولكل دائرة وإدارة مدير يتولى إدارتها، ويكون مسؤولاً عنها مباشرة، ويكون هؤلاء

المديرون مسؤولين أمام من يتولى الإدارة العليا لمصالحهم، أو دوائرهم أو إداراتهم من حيث عملهم ومسؤولين أمام الوالي والعامل من حيث التقيد بالأحكام والأنظمة العامة.

المادة ٩٩ ــ المديرون في جميع المصالح والدوائر والإدارات لا يُعْزَلُونَ إلا لسبب ضمن الأنظمة الإدارية، ولكن يجوز نَقْلُهُمْ من عمل إلى آخر، ويجوز توقيفهم عن العمل، ويكون تعيينهم ونقلهم وتوقيفهم وتأديبهم وعزلهم من قبل من يتولى الإدارة العليا لمصالحهم، أو دوائرهم، أو إداراتهم.

المادة ١٠٠ ــ الموظفون غير المديرين يتم تعيينهم ونقلهم وتوقيفهم وتأديبهم وعزلهم من قبل من يتولى الإدارة العليا لمصالحهم أو دوائرهم أو إداراتهم.

مجلس الأمّة

المادة ١٠١ ــ الأشخاص الذين يمثلون المسلمين في الرأي ليرجع إليهم الخليفة هم مجلس الأمة، ويجوز لغير المسلمين أن يكونوا في مجلس الأمة من أجل الشكوى من ظلم الحكام، أو من إساءة تطبيق أحكام الإسلام.

المادة ١٠٢ ــ يُنْتَخَبُ أعضاء مجلس الأمة انتخاباً.

المادة ١٠٣ ــ لكل من يحمل التابعية إذا كان بالغاً عاقلاً الحق في أن يكون عضواً في مجلس الأمة رجلاً كان أو امرأة مسلماً كان أو غير مسلم، إلا أن عضوية غير المسلم قاصرة على إظهار الشكوى من ظلم الحكام، أو من إساءة تطبيق الإسلام.

المادة ١٠٤ ــ الشورى والمشورة هي أخذ الرأي مطلقاً، وهي غير ملزمة في التشريع، والتعريف، والأمور الفكرية ككشف الحقائق، وفي الأمور الفنية والعلمية، وتكون مُلْزِمَةً عند استشارة الخليفة في كل ما هو من الأمور العملية، والأعمال التي لا تحتاج إلى بحث وإنعام نظر.

المادة ١٠٥ ــ الشورى حق للمسلمين فحسب. ولا حق لغير المسلمين في الشورى، وأما إبداء الرأي فإنه يجوز لجميع أفراد الرعية مسلمين وغير مسلمين.

المادة ١٠٦ ــ المسائل التي تكون فيها الشورى ملزمةً عند استشارة الخليفة يؤخذ فيها برأي الأكثرية بغض النظر عن كونه صواباً أو خطأ. أما ما عداها مما يدخل تحت الشورى فيتحرى فيها عن الصواب بغض النظر عن الأكثرية أو الأقلية.

المادة ١٠٧ ــ لمجلس الأمة صلاحيات خمس هي:

١ ــ (أ): استشارة الخليفة له وإشارته على الخليفة في الأعمال والأمور العملية مما لا تحتاج إلى بحث وإنعام نظر مثل شئون الحكم، والتعليم، والصحة، والاقتصاد، والتجارة، والصناعة، والزراعة، وأمثالها، ويكون رأيه فيها ملزماً.

(ب): أما الأمورُ الفكريةُ التي تحتاجُ إلى بحثٍ وإنعامِ نظرٍ، والأمورُ الفنيةُ والمالية والجيش والسياسة الخارجية، فإن للخليفة أن يرجع للمجلس لاستشارته فيها والوقوف على رأيه، ورأي المجلس فيها غير ملزم.

٢ ــ للخليفة أن يحيل للمجلس الأحكام والقوانين التي يريد أن يتبناها، وللمسلمين من أعضائه حق مناقشتها وبيان وجه الصواب والخطأ فيها ورأيهم في ذلك غير ملزم.

٣ ــ للمجلس الحق في محاسبة الخليفة على جميع الأعمال التي تحصل بالفعل في الدولة سواء أكانت من الأمور الداخلية أم الخارجية أم المالية أم الجيش أم غيرها، ورأي المجلس ملزم فيما كان رأي الأكثرية فيه ملزماً، وغير ملزم فيما كان رأي الأكثرية فيه غير ملزم.

وإن اختلف المجلس مع الخليفة على عمل قد تم بالفعل من الناحية الشرعية فَيُرْجَعُ فيه إلى محكمة المظالم للبتّ فيه من حيث الشرعية وعدمها، ورأي المحكمة فيه ملزم.

٤ ــ للمجلس الحق في إظهار عدم الرضا من المعاونين والولاة والعمال ويكون رأيه في ذلك ملزماً، وعلى الخليفة عزلهم في الحال.

٥ ــ للمسلمين من أعضائه حق حصر المرشحين للخلافة ورأيهم في ذلك ملزم، فلا يُقبل ترشيحُ غير من حَصر المجلسُ الترشيحَ فيهم.

النظـام الاجتمـاعي

المادة ١٠٨ ـ الأصـل في المـرأة أنها أم وربـة بيت وهي عـرض يجـب أن يصـان.

المادة ١٠٩ ـ الأصل أن ينفصل الرجال عن النساء ولا يجتمعون إلا لحاجة يقرها الشرع، ويقر الاجتماع من أجلها كالحج والبيع.

المادة ١١٠ ـ تُعْطى المرأة ما يُعْطى الرجل من الحقوق، ويُفْرَضُ عليها ما يُفْرَضُ عليه من الواجبات إلا ما خصها الإسلام به، أو خص الرجل به بالأدلة الشرعية، فلها الحق في أن تزاول التجارة والزراعة والصناعة وأن تتولى العقود والمعاملات، وأن تملك كل أنواع الملك، وأن تنمي أموالها بنفسها وبغيرها، وأن تباشر جميع شؤون الحياة بنفسها.

المادة ١١١ ـ يجـوز للـمـرأة أن تُعَيَّـنَ في وظـائـف الدولـة، وأن تنتخب أعضـاء مجـلس الأمـة وأن تكـون عضـواً فيه، وأن تشـترك في انتخاب الخليفة ومبايعته.

المادة ١١٢ ـ لا يجوز أن تتولى المرأة الحكم، فلا تكون خليفة ولا معاوناً ولا والياً ولا عاملاً ولا تباشر أي عمل يعتبر من الحكم، وكذلك لا تكون قاضي قضاة، ولا قاضياً في محكمة المظالم، ولا أمير جهاد.

المادة ١١٣ ـ المرأة تعيش في حياة عامة وفي حياة خاصة. ففي الحياة العامة يجوز أن تعيش مع النساء والرجال المحارم والرجال الأجانب

على أن لا يظهر منها إلا وجهها وكفاها، وغير متبرجة ولا متبذّلة. وأما في الحياة الخاصة فلا يجوز أن تعيش إلا مع النساء أو مع محارمها ولا يجوز أن تعيش مع الرجال الأجانب. وفي كلتا الحياتين تتقيد بجميع أحكام الشرع.

المادة ١١٤ ـ تمنع الخلوة بغير محرم، ويمنع التبرج وكشف العورة أمام الأجانب.

المادة ١١٥ ـ يمنع كل من الرجل والمرأة من مباشرة أي عمل فيه خطر على الأخلاق، أو فساد في المجتمع.

المادة ١١٦ ـ الحياة الزوجية حياة اطمئنان، وعشرة الزوجين عشرة صحبة، وقوامة الزوج على الزوجة قوامة رعاية لا قوامة حكم وقد فرضت عليها الطاعة، وفرض عليه نفقتها حسب المعروف لمثلها.

المادة ١١٧ ـ يتعاون الزوجان في القيام بأعمال البيت تعاوناً تاماً، وعلى الزوج أن يقوم بجميع الأعمال التي يقام بها خارج البيت، وعلى الزوجة أن تقوم بجميع الأعمال التي يقام بها داخل البيت حسب استطاعتها. وعليه أن يحضر لها خداماً بالقدر الذي يكفي لقضاء الحاجات التي لا تستطيع القيام بها.

المادة ١١٨ ـ كفالة الصغار واجب على المرأة وحق لها سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة ما دام الصغير محتاجاً إلى هذه الكفالة. فإن استغنى عنها ينظر، فإن كانت الحاضنة والولي مسلمين خُيِّرَ الصغير في الإقامة مع من يريد فمن يختاره له أن ينضم إليه سواء أكان الرجل أم المرأة، ولا فرق في الصغير بين أن يكون ذكراً أو أنثى. أما إن كان أحدهما غير مسلم فلا يخير بينهما بل يُضم إلى المسلم منهما.

النظـام الاقتصـادي

المادة ١١٩ ـ سياسة الاقتصاد هي النظرة إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع عند النظرة إلى إشباع الحاجات فَـيُجْعَلُ ما يجب أن يكون عليه المجتمع أساساً لإشباع الحاجات.

المادة ١٢٠ ـ المـشـكلة الاقتصـادية هي توزيع الأمـوال والمنافـع على جميع أفراد الرعية وتمـكينهم من الانتفاع بها بتمكينهم من حيازتها ومن السعي لها.

المادة ١٢١ ـ يجب أن يُضْمَنَ إشباع جميع الحاجات الأساسية لجميع الأفراد فرداً فرداً إشباعاً كلياً. وأن يُضْمَنَ تمكين كل فرد منهم من إشباع الحاجات الكمالية على أرفع مستوى مستطاع.

المادة ١٢٢ ـ المال لله وحده وهو الذي استخلف بني الإنسان فيه فصار لهم بهذا الاستخلاف العام حق ملكيته، وهو الذي أذن للفرد بحيازته فصار له بهذا الإذن الخاص ملكيته بالفعل.

المادة ١٢٣ ـ الملـكـيـة ثـلاثـة أنواع: ملكـيـة فـرديـة، وملـكـيـة عامة، وملكية الدولة.

المادة ١٢٤ ـ الملكية الفردية هي حكم شرعي مقدر بالعين أو المنفعة يقتضي تمكين من يضاف إليه من انتفاعه بالشيء وأخذ العوض عنه.

المادة ١٢٥ ــ الملكية العامة هي إذن الشارع للجماعة بالاشتراك في الانتفاع بالعين.

المادة ١٢٦ ــ كل مال مصرفه موقوف على رأي الخليفة واجتهاده يعتبر ملكاً للدولة، كأموال الضرائب والخراج والجزية.

المادة ١٢٧ ــ الملكية الفردية في الأموال المنقولة وغير المنقولة مقيدة بالأسباب الشرعية الخمسة وهي:

أ ــ العمل.

ب ــ الإرث.

ج ــ الحاجة إلى المال لأجل الحياة.

د ــ إعطاء الدولة من أموالها للرعية.

هـ ــ الأموال التي يأخذها الأفراد دون مقابل مال أو جهد.

المادة ١٢٨ ــ التصرف بالملكية مُقَيَّدٌ بإذن الشارع، سواء أكان تصرفاً بالإنفاق أو تصرفاً بتنمية الملك. فَيُمْنَعُ السَّرَفُ والترف والتقتير، وتُمْنَعُ الشركات الرأسمالية والجمعيات التعاونية وسائر المعاملات المخالفة للشرع، ويمنع الربا والغبن الفاحش والاحتكار والقمار وما شابه ذلك.

المادة ١٢٩ ــ الأرض العشرية هي التي أسلم أهلها عليها وأرض جزيرة العرب، والأرض الخراجية هي التي فتحت حرباً أو صلحاً ما عدا جزيرة العرب، والأرض العشرية يملك الأفراد رقبتها ومنفعتها. وأما الأرض الخراجية فرقبتها ملك للدولة ومنفعتها يملكها الأفراد، ويحق لكل فرد تبادل الأرض العشرية، ومنفعة الأرض الخراجية بالعقود الشرعية وتورث عنهم كسائر الأموال.

المادة ١٣٠ ــ الأرض الموات تملك بالإحياء والتحجير، وأما غير

الموات فلا تملك إلا بسبب شرعي كالإرث والشراء والإقطاع.

المادة ١٣١ ــ يمنع تأجير الأرض للزراعة مطلقاً سواء أكانت خراجية أم عشرية، كما تمنع المزارعة، أما المساقاة فجائزة مطلقاً.

المادة ١٣٢ ــ يجبر كل من ملك أرضاً على استغلالها ويعطى المحتاج من بيت المال ما يمكنه من هذا الاستغلال. وكل من يهمل الأرض ثلاث سنين من غير استغلال تؤخذ منه وتعطى لغيره.

المادة ١٣٣ ــ تتحقق الملكية العامة في ثلاثة أشياء هي:

أ ــ كل ما هو من مرافق الجماعة كساحات البلدة.

ب ــ المعادن التي لا تنقطع كمنابع البترول.

ج ــ الأشياء التي طبيعتها تمنع اختصاص الفرد بحيازتها كالأنهار.

المادة ١٣٤ ــ المصنع من حيث هو من الأملاك الفردية إلا أن المصنع يأخذ حكم المادة التي يصنعها. فإن كانت المادة من الأملاك الفردية كان المصنع ملكاً فردياً كمصانع النسيج. وإن كانت المادة من الأملاك العامة كان المصنع ملكاً عاماً كمصانع استخراج الحديد.

المادة ١٣٥ ــ لا يجوز للدولة أن تحوّل ملكية فردية إلى ملكية عامة، لأن الملكية العامة ثابتة في طبيعة المال وصفته لا برأي الدولة.

المادة ١٣٦ ــ لكل فرد من أفراد الأمة حق الانتفاع بما هو داخل في الملكية العامة، ولا يجوز للدولة أن تأذن لأحد دون باقي الرعية بملكية الأملاك العامة أو استغلالها.

المادة ١٣٧ ــ يجوز للدولة أن تحمي من الأرض الموات ومما هو داخل في الملكية العامة لأية مصلحة تراها من مصالح الرعية.

المادة ١٣٨ ــ يمنع كنز المال ولو أخرجت زكاته.

المادة ١٣٩ ــ تجبى الزكاة من المسلمين، وتؤخذ على الأموال التي عين الشرع الأخذ منها من نقد وعروض تجارة ومواش وحبوب. ولا تؤخذ من غير ما ورد الشرع به. وتؤخذ من كل مالك سواء أكان مكلفاً كالبالغ العاقل أم غير مكلف كالصبي والمجنون، وتوضع في باب خاص من بيت المال، ولا تصرف إلا لواحد أو أكثر من الأصناف الثمانية الذين ذكرهم القرآن الكريم.

المادة ١٤٠ ــ تجبى الجزية من الذميين، وتؤخذ على الرجال البالغين بقدر ما يحتملونها، ولا تؤخذ على النساء ولا على الأولاد.

المادة ١٤١ ــ يجبى الخراج على الأرض الخراجية بقدر احتمالها، وأما الأرض العشرية فتجبى منها الزكاة على الناتج الفعلي.

المادة ١٤٢ ــ تستوفى من المسلمين الضريبة التي أجاز الشرع استيفاءها لسد نفقات بيت المال، على شرط أن يكون استيفاؤها مما يزيد على الحاجات التي يجب توفيرها لصاحب المال بالمعروف، وأن يراعى فيها كفايتها لسد حاجات الدولة.

المادة ١٤٣ ــ كل ما أوجب الشرع على الأمة القيام به من الأعمال وليس في بيت المال مال للقيام به فإن وجوبه ينتقل على الأمة، وللدولة حينئذٍ الحق في أن تحصله من الأمة بفرض الضريبة عليها. وما لم يجب على الأمة شرعاً القيام به لا يجوز للدولة أن تفرض أية ضريبة من أجله، فلا يجوز أن تأخذ رسوماً للمحاكم أو الدوائر أو لقضاء أية مصلحة.

المادة ١٤٤ ــ لميزانية الدولة أبواب دائمية قررتها أحكام شرعية. وأما فصول الميزانية والمبالغ التي يتضمنها كل فصل، والأمور التي تخصص لها هذه المبالغ في كل فصل، فإن ذلك موكول لرأي الخليفة واجتهاده.

المادة ١٤٥ ــ واردات بيت المال الدائمية هي الفيء كله، والجزية، والخراج، وخمس الركاز، والزكاة. وتؤخذ هذه الأموال دائمياً سواء أكانت هنالك حاجة أم لم تكن.

المادة ١٤٦ ــ إذا لم تكف واردات بيت المال الدائمية لنفقات الدولة فإن لها أن تحصل من المسلمين ضرائب، ويجب أن تسير في تحصيل الضرائب على الوجه التالي:

أ ــ لسد النفقات الواجبة على بيت المال للفقراء والمساكين وابن السبيل وللقيام بفرض الجهاد.

ب ــ لسد النفقات الواجبة على بيت المال على سبيل البدل كنفقات الموظفين وأرزاق الجند وتعويضات الحكام.

ج ــ لسد النفقات الواجبة على بيت المال على وجه المصلحة والإرفاق دون بدل كإنشاء الطرقات واستخراج المياه وبناء المساجد والمدارس والمستشفيات.

د ــ لسد النفقات الواجبة على بيت المال على وجه الضرورة كحادث طرأ على الرعية من مجاعة أو طوفان أو زلزال.

المادة ١٤٧ ــ يعتبر من الواردات التي توضع في بيت المال الأموال التي تؤخذ من الجمارك على ثغور البلاد، والأموال الناتجة من الملكية العامة أو من ملكية الدولة، والأموال الموروثة عمن لا وارث له ومال المرتدين.

المادة ١٤٨ ــ نفقات بيت المال مقسمة على ست جهات هي:

أ ــ الأصناف الثمانية الذين يستحقون أموال الزكاة يصرف لهم من باب الزكاة.

ب ــ الفقراء والمساكين وابن السبيل والجهاد والغارمون إذا لم

يوجد في باب أموال الزكاة مال صرف لهم من واردات بيت المال الدائمة، وإذا لم يوجد لا يصرف للغارمين شيء. وأما الفقراء والمساكين وابن السبيل والجهاد فتحصل ضرائب لسد نفقاتهم ويقترض لأجل ذلك في حالة خوف الفساد.

ج ـ الأشخاص الذين يؤدون خدمات للدولة كالموظفين والحكام والجند فإنه يصرف لهم من بيت المال. وإذا لم يكف مال بيت المال تحصل ضرائب في الحال لسد هذه النفقات ويقترض لأجلها في حالة خوف الفساد.

د ـ المصالح والمرافق الأساسية كالطرقات والمساجد والمستشفيات والمدارس يصرف عليها من بيت المال، فإذا لم يف ما في بيت المال تحصل ضرائب في الحال لسد هذه النفقات.

هـ ـ المصالح والمرافق الكمالية يصرف عليها من بيت المال، فإذا لم يوجد ما يكفي لها في بيت المال لا يصرف لها وتؤجل.

و ـ الحوادث الطارئة كالزلازل والطوفان يصرف عليها من بيت المال، وإذا لم يوجد يقترض لأجلها المال في الحال ثم يسدد من الضرائب التي تجمع.

المادة ١٤٩ ـ تضمن الدولة إيجاد الأعمال لكل من يحمل التابعية.

المادة ١٥٠ ـ الموظفون عند الأفراد والشركات كالموظفين عند الدولة في جميع الحقوق والواجبات، وكل من يعمل بأجر هو موظف مهما اختلف نوع العمل أو العامل. وإذا اختلف الأجير والمستأجر على الأجرة يُحَكَّمُ أجر المثل. أما إذا اختلفوا على غيرها فَيُحَكَّمُ عقد الإجارة على حسب أحكام الشرع.

المادة ١٥١ ـ يجوز أن تكون الأجرة حسب منفعة العمل، وأن تكون حسب منفعة العامل، ولا تكون حسب معلومات الأجير، أو شهاداته العلمية، ولا توجد ترقيات للموظفين بل يعطون جميع ما يستحقونه من أجر سواء أكان على العمل أم على العامل.

المادة ١٥٢ ـ تضمن الدولة نفقة من لا مال عنده ولا عمل له ولا يوجد من تجب عليه نفقته، وتتولى إيواء العجزة وذوي العاهات.

المادة ١٥٣ ـ تعمل الدولة على تداول المال بين الرعية وتحول دون تداوله بين فئة خاصة.

المادة ١٥٤ ـ تيسر الدّولة لأفراد الرعية إمكانية إشباع حاجاتهم الكمالية وإيجاد التوازن في المجتمع حسب توفر الأموال لديها، على الوجه التالي:

أ ـ أن تعطي المال منقولاً أو غير منقول من أموالها التي تملكها في بيت المال، ومن الفيء وما شابهه.

ب ـ أن تقطِع من أراضيها العامرة وغير العامرة من لا يملكون أرضاً كافية. أما من يملكون أرضاً ولا يستغلونها فلا تعطيهم. وتعطي العاجزين عن الزراعة مالاً لتوجد لديهم القدرة على الزراعة.

ج ـ تقوم بسداد ديون العاجزين عن السداد من مال الزكاة ومن الفيء وما شابه.

المادة ١٥٥ ـ تشرف الدولة على الشؤون الزراعية ومحصولاتها وَفْقَ ما تتطلبه السياسية الزراعية التي تحقق استغلال الأرض على أعلى مستوى من الإنتاج.

المادة ١٥٦ ـ تشرف الدولة على الشؤون الصناعية برمتها، وتتولى

مباشرة الصناعات التي تتعلق بما هو داخل في الملكية العامة.

المادة ١٥٧ ـ التجارة الخارجية تعتبر حسب تابعية التاجر لا حسب منشأ البضاعة، فالتجار الحربيون يمنعون من التجارة في بلادنا إلا بإذن خاص للتاجر أو للمال. والتجار المعاهدون يعاملون حسب المعاهدات التي بيننا وبينهم، والتجار الذين من الرعية يمنعون من إخراج ما تحتاجه البلاد من المواد ومن إخراج المواد التي من شأنها أن يتقوّى بها العدو عسكرياً أو صناعياً أو اقتصادياً، ولا يُمنعون من إدخال أي مال يملكونه. ويُستثنى من هذه الأحكام البلد الذي بيننا وبين أهله حرب فعلية «كإسرائيل» فإنه يأخذ أحكام دار الحرب الفعلية في جميع العلاقات معه تجارية كانت أم غير تجارية.

المادة ١٥٨ ـ لجميع أفراد الرعية الحق في إنشاء المختبرات العلمية المتعلقة بكافة شؤون الحياة، وعلى الدولة أن تقوم هي بإنشاء هذه المختبرات.

المادة ١٥٩ ـ يمنع الأفراد من ملكية المختبرات التي تنتج مواد تؤدي ملكيتهم لها إلى ضرر على الأمة أو على الدولة.

المادة ١٦٠ ـ توفر الدولة جميع الخدمات الصحية مجاناً للجميع، ولكنها لا تمنع استئجار الأطباء ولا بيع الأدوية.

المادة ١٦١ ـ يمنع استغلال واستثمار الأموال الأجنبية في البلاد كما يمنع منح الامتيازات لأي أجنبي.

المادة ١٦٢ ـ تصدر الدولة نقداً خاصاً بها يكون مستقلاً ولا يجوز أن يرتبط بأي نقد أجنبي.

المادة ١٦٣ ـ نقود الدولة هي الذهب والفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة. ولا يجوز أن يكون لها نقد غيرهما. ويجوز أن تصدر الدولة

بدل الذهب والفضة شيئاً آخر على شرط أن يكون في خزانة الدولة ما يساويه من الذهب والفضة. فيجوز أن تصدر الدولة نحاساً أو برونزاً أو ورقاً أو غير ذلك وتضربه باسمها نقداً لها إذا كان له مقابل يساويه تماماً من الذهب والفضة.

المادة ١٦٤ ـ الصرف بين عملة الدولة وبين عملات الدول الأخرى جائز كالصرف بين عملتها هي سواء بسواء وجائز أن يتفاضل الصرف بينهما إذا كانا من جنسين مختلفين على شرط أن يكون يداً بيد، ولا يصح أن يكون نسيئة. ويسمح بتغيير سعر الصرف دون أي قيد ما دام الجنسان مختلفين، ولكل فرد من أفراد الرعية أن يشتري العملة التي يريدها من الداخل والخارج وأن يشتري بها دون أية حاجة إلى إذن عملة أو غيره.

سياسة التعليم

المادة ١٦٥ ـ يجب أن يكون الأساس الذي يقوم عليه منهج التعليم هو العقيدة الإسلامية، فتوضع مواد الدراسة وطرق التدريس جميعها على الوجه الذي لا يحدث أي خروج في التعليم عن هذا الأساس.

المادة ١٦٦ ـ سياسة التعليم هي تكوين العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية، فتوضع جميع مواد الدراسة التي يراد تدريسها على أساس هذه السياسة.

المادة ١٦٧ ـ الغاية من التعليم هي إيجاد الشخصية الإسلامية وتزويد الناس بالعلوم والمعارف المتعلقة بشؤون الحياة. فتجعل طرق التعليم على الوجه الذي يحقق هذه الغاية وتمنع كل طريقة تؤدي لغير هذه الغاية.

المادة ١٦٨ ـ يجب أن تجعل حصص العلوم الإسلامية والعربية أسبوعياً بمقدار حصص باقي العلوم من حيث العدد ومن حيث الوقت.

المادة ١٦٩ ـ يجب أن يفرق في التعليم بين العلوم التجريبية وما هو ملحق بها كالرياضيات، وبين المعارف الثقافية. فتدرس العلوم التجريبية وما يلحق بها حسب الحاجة، ولا تقيّد في أية مرحلة من مراحل التعليم. أما المعارف الثقافية فإنها تؤخذ في المراحل الأولى قبل العالية وَفْقَ سياسة معينة لا تتناقض مع أفكار الإسلام وأحكامه. وأما المرحلة العالية فتؤخذ كالعلم على شرط أن لا تؤدي إلى أي خروج عن سياسة التعليم وغايته.

المادة ١٧٠ ـ يجب تعليم الثقافة الإسلامية في جميع مراحل التعليم، وأن يخصص في المرحلة العالية فروع لمختلف المعارف الإسلامية كما

يخصص فيها للطب والهندسة والطبيعيات وما شاكلها.

المادة ١٧١ ــ الفنون والصناعات قد تلحق بالعلم من ناحية كالفنون التجارية والملاحة والزراعة وتؤخذ دون قيد أو شرط، وقد تلحق بالثقافة عندما تتأثر بوجهة نظر خاصة كالتصوير والنحت فلا تؤخذ إذا ناقضت وجهة نظر الإسلام.

المادة ١٧٢ ــ يكون منهاج التعليم واحداً، ولا يسمح بمنهاج غير منهاج الدولة، ولا تمنع المدارس الأهلية ما دامت مقيدة بمنهاج الدولة، قائمة على أساس خطة التعليم، متحققة فيها سياسة التعليم وغايته، على ألاّ يكون التعليم فيها مختلطاً بين الذكور والإناث لا في التلاميذ ولا في المعلمين، وعلى ألا تختص بطائفة أو دين أو مذهب أو عنصر أو لون.

المادة ١٧٣ ــ تعليم ما يلزم للإنسان في معترك الحياة فرض على الدولة أن توفره لكل فرد ذكراً كان أو أنثى في المرحلتين الابتدائية والثانوية، فعليها أن توفر ذلك للجميع مجاناً، وتَفسح مجال التعليم العالي مجاناً للجميع، بأقصى ما يتيسر من إمكانيات.

المادة ١٧٤ ــ تهيئ الدولة المكتبات والمختبرات وسائر وسائل المعرفة في غير المدارس والجامعات لتمكين الذين يرغبون مواصلة الأبحاث في شتى المعارف من فقه وأصول فقه وحديث وتفسير، ومن فكر وطب وهندسة وكيمياء، ومن اختراعات واكتشافات وغير ذلك، حتى يوجد في الأمة حشد من المجتهدين والمبدعين والمخترعين.

المادة ١٧٥ ــ يمنع استغلال التأليف للتعليم في جميع مراحله ولا يملك أحد مؤلفاً كان أو غير مؤلف حقوق الطبع والنشر إذا طبع الكتاب ونشره. أما إذا كان أفكاراً لديه لم تطبع ولم تنشر فيجوز له أن يأخذ أجرة إعطائها للناس كما يأخذ أجرة التعليم.

السياسة الخارجية

المادة ١٧٦ ـ السياسة هي رعاية شؤون الأمة داخلياً وخارجياً، وتكون من قبل الدولة والأمة. فالدولة هي التي تباشر هذه الرعاية عملياً، والأمة هي التي تحاسب بها الدولة.

المادة ١٧٧ ـ لا يجوز لأي فرد، أو حزب، أو كتلة، أو جماعة، أن تكون لهم علاقة بأية دولة من الدول الأجنبية مطلقاً. والعلاقة بالدول محصورة بالدولة وحدها، لأن لها وحدها حق رعاية شؤون الأمة عملياً. وعلى الأمة والتكتلات أن تحاسب الدولة على هذه العلاقة الخارجية.

المادة ١٧٨ ـ الغاية لا تبرر الواسطة، لأن الطريقة من جنس الفكرة، فلا يتوصل بالحرام إلى الواجب ولا إلى المباح. والوسيلة السياسية لا يجوز أن تناقض طريقة السياسة.

المادة ١٧٩ ـ المناورات السياسية ضرورية في السياسة الخارجية، والقوة فيها تكمن في إعلان الأعمال وإخفاء الأهداف.

المادة ١٨٠ ـ الجرأة في كشف جرائم الدول، وبيان خطر السياسات الزائفة، وفضح المؤامرات الخبيثة، وتحطيم الشخصيات المضللة، هو من أهم الأساليب السياسية.

المادة ١٨١ ـ يعتبر إظهار عظمة الأفكار الإسلامية في رعاية شؤون الأفراد والأمم والدول من أعظم الطرق السياسية.

المادة ١٨٢ ــ القضية السياسية للأمة هي الإسلام في قوة شخصية دولته، وإحسان تطبيق أحكامه، والدأب على حمل دعوته إلى العالم.

المادة ١٨٣ ــ حمل الدعوة الإسلامية هو المحور الذي تدور حوله السياسة الخارجية، وعلى أساسها تبنى علاقة الدولة بجميع الدول.

المادة ١٨٤ ــ علاقة الدولة بغيرها من الدول القائمة في العالم تقوم على اعتبارات أربعة:

أحدها: الدول القائمة في العالم الإسلامي تعتبر كأنها قائمة في بلاد واحدة فلا تدخل ضمن العلاقات الخارجية، ولا تعتبر العلاقات معها من السياسة الخارجية، ويجب أن يعمل لتوحيدها كلها في دولة واحدة.

ثانيها: الدول التي بيننا وبينها معاهدات اقتصادية، أو معاهدات تجارية، أو معاهدات حسن جوار، أو معاهدات ثقافية، تعامل وَفْقَ ما تنص عليه المعاهدات. ولرعاياها الحق في دخول البلاد بالهوية دون حاجة إلى جواز سفر إذا كانت المعاهدة تنص على ذلك، على شرط المعاملة بالمثل فعلاً. وتكون العلاقات الاقتصادية والتجارية معها محدودة بأشياء معينة، وصفات معينة على أن تكون ضرورية، ومما لا يؤدي إلى تقويتها.

ثالثها: الدول التي ليس بيننا وبينها معاهدات والدول الاستعمارية فعلاً كإنكلترا وأميركا وفرنسا والدول التي تطمع في بلادنا كروسيا، تعتبر دولاً محاربة حكماً، فتتخذ جميع الاحتياطات بالنسبة لها ولا يصح أن تنشأ معها أية علاقات ديبلوماسية. ولرعايا هذه الدول أن يدخلوا بلادنا ولكن بجواز سفر وبتأشيرة خاصة لكل فرد ولكل سفرة، إلا إذا أصبحت محاربة فعلاً.

رابعها: الدول المحاربة فعلاً «كإسرائيل» مثلاً يجب أن تتخذ معها حالة الحرب أساساً لكافة التصرفات وتعامل كأننا وإياها في حرب فعلية سواء أكانت بيننا وبينها هدنة أم لا. ويمنع جميع رعاياها من دخول البلاد.

المادة ١٨٥ ـ تمنع منعاً باتاً المعاهدات العسكرية، وما هو من جنسها، أو ملحق بها كالمعاهدات السياسية، واتفاقيات تأجير القواعد والمطارات. ويجوز عقد معاهدات حسن جوار، والمعاهدات الاقتصادية، والتجارية، والمالية، والثقافية، ومعاهدات الهدنة.

المادة ١٨٦ ـ المنظمات التي تقوم على غير أساس الإسلام، أو تطبيق أحكام غير أحكام الإسلام، لا يجوز للدولة أن تشترك فيها، وذلك كالمنظمات الدولية مثل هيئة الأمم، ومحكمة العدل الدولية، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وكالمنظمات الإقليمية مثل الجامعة العربية.